سبارتاكوس

ثورة العبيد

الجزء الثاني

تأليف هوارد فاست

ترجمة أنور المشرى

راجعه ... وهم

الناشر

دار الكرنك

www.library4arab

مكتبة
www.library4arab

الألف كتاب

(٣١٥)

سبارتاكوس

(ثورة العبيد)

بإشراف

الإدارة العامة للثقافة

وزارة التعليم العالى

١٩٦٣

مكتبة

www.library4arab.com

تصدر هذه السلسلة بمعاونة

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

مكتبة مهاجر

الألف كتاب
(٣١٤)

سبارتاكوس

(ثورة العبيد)

(الجزء الثاني)

تأليف
هوارد فاست

ترجمه
أنور المشرى

راجعه
على أدهم

www.library4arab.com

الناشر
دار الكرنك للنشر والطبع والتوزيع
عمارة ومنيس . ميدان ... القاهرة

هـــذه ترجمـــة كتاب :

SPARTACUS

تأليف

Howard Fast

مكتبة
www.library4arab

الجزء الخامس

ويتضمن قصة لنتولوس [illegible]اكوس ، وبعض ذكرياته ، وبعض تفاصيل إقامته فى [illegible]ا .

مكتبة
www.library4arab

كان لنتولوس جراكوس مغرما بترديد أن قدرته على مواجهة الأزمات تزداد مع زيادة وزنه . وكان ما يؤيد صدق هذا الزعم أنه أمضى سبعة وثلاثين عاما من عمره البالغ ستة وخمسين فى مسايرة السياسة الرومانية بنجاح .. فالسياسة ، كما كان يردد من وقت لآخر تحتاج إلى مواهب ثلاثة لا تتبدل ، ولا تحتاج إلى أية فضائل . وكان يزعم أن الفضيلة حطمت من السياسيين أكثر ممن حطمهم أى سبب آخر . وكان يرتب المواهب الثلاثة على هذا النحو : الموهبة الأولى هى القدرة على اختيار الجانب الرابح . فإذا ما فشلت هذه ، فالموهبة الثانية هى القدرة على الانسحاب من الجانب الخاسر . أما الموهبة الثالثة فهى ألا تعادى أحداً .

وهذه المواهب الثلاثة كلها مثل عليا ، إلا أنه نظراً لأن للمثل العليا طبيعتها ، وللناس طبيعتها ، لذلك لم يكن هناك ما هو تحقيق كامل لهذه المثل مائة فى المائة . ومع ذلك فهو من جانبه قد نجح . إذ بدأ حياته ابنا لإسكاف بسيط لكنه مجتهد . وفى التاسعة عشرة من عمره كان يبيع ويشترى الأصوات الانتخابية ، وفى الخامسة والعشرين كان يبيع ويشترى المناصب ويقوم بعمليات الاغتيال بين الفينة والفينة ، وفى الثامنة والعشرين تزعم عصابة سياسية قوية ، أما فى الثلاثين فقد أصبح الزعيم المطاع لحى كايليوس الشهير . وبعد ذلك بسنوات خمس أصبح قاضيا ، وفى سن الأربعين دخل مجلس الشيوخ . وكان يعرف فى المدينة عشرة آلاف شخص بالاسم

وعشرين ألفا آخرين بالنظر . وكان يضمن قائمة عطاياه حتى أعدى أعدائه . ونظراً لأنه لم يرتكب يوما خطأ الاعتقاد فى أمانة أى من مساعديه ، فقد ساعده ذلك على ألا يقع أبداً فى خطأ أعمق .. هو قبول عدم أمانة أى واحد منهم على علاتها .

كان وزنه ومعدنه يلائمان وضعه فى الحياة . لم يثق بالنساء قط ولم يلاحظ أن زملاءه قد حققوا من ورائهن منفعة بعينها . إنما كانت رذيلته الوحيدة هى حب الطعام . ونجحت طبقات الشحم الضخمة التى اكتنزها على مدى سنوات عمره الناجحة ، لا فى أن تكسوه المهابة فحسب ، بل جعلت منه كذلك واحداً من أولئك الرومانيين القلائل الذين لا يظهرون فى المجتمعات إلا وهم ملتفون بطيات العباءة الرومانية . إذ لم يكن لنتولوس جراكوس ليبدو فى المعاطف كرجل يسعى الإنسان لكسب وده ، أما فى العباءة الرومانية فكان رمزاً للمعدن وللفضائل الرومانية . وكان جسده البالغ فى وزنه ثلاثمائة رطل يحمل رأسا أصلع ملغدا مثبتا بإحكام فى دوائر الشحم . وكان صوته عميقا أجش ، وابتسامته جذابة ، له عينان زرقاوان صغيرتان مبتسمتان تطلان من بين طيات اللحم ، وبشرة وردية كبشرة الرضيع .

وكان جراكوس شخصاً مطلعاً أكثر منه شخصاً ساخراً بالدنيا . لم يستغلق عليه يوما فهم تركيب القوة الرومانية . وكان تقدم

شيشرون المتشدد نحو ما مال شيشرون إلى اعتباره أعلى الحقائق وأكثرها أهمية يسليه ويبهجه . فعندما سأله أنطونيوس كايوس عن رأيه فى شيشرون ، أجاب جراكوس فى اقتضاب قائلا :

— شاب يتمسك بالقديم .

وعلاقة جراكوس بأنطونيوس كايوس علاقة طيبة للغاية ، شأن علاقاته بكثير من النبلاء . إذ كانت الأرستقراطية هى السر والمحراب الوحـــيد الذى يسمح لنفسه بدخوله . فهو يحب الأرستقراطيين . وهو يحسدهم ، ويحتقرهم كذلك ، إنما فى نطاق معين ، لأنه يعتبرهم كلهم أميل إلى الغباء . ولم يستطع قط أن يهضم عدم إفادتهم كثيرا من مزايا الأصل العريق والمكانة المرموقة . ومع ذلك فهو يتقرب منهم وتبعث فيه دعوته إلى إحدى ضيعاتهم الفاخرة ، مثل فيلاسالاريا ، الشعور بالكبرياء والسعادة . ولم يكن يتظاهر بما ليس فيه ، ولم يحاول يوما أن يدعى أنه أرستقراطى . ولم يتكلم لغتهم اللاتينية المهذبة المنمقة ، إذ كان يفضل لغته السوقية السهلة . ولم يحاول أن يشترى لنفسه ضيعة خاصة وإن كان قادراً على ذلك . أما بالنسبة للأرستقراطيين فكانوا يقدرون فيه إمكانياته العملية وحصيلته من المعلومات المفيدة ، وكان حجمه الضخم يوحى بالثقة . وكان أنطونيوس كايوس يحبه ، لأن جراكوس كان رجلا لا تهزه الأحكام الأخلاقية على الإطلاق ،

وكان يشير إلى جراكوس عادة على أنه الرجل الوحيد الأمين أمانة كاملة من بين من عرف فى حياته .

لم يفت جراكوس إلا قليل مما دار فى تلك الأمسية . فهو يقدر الأشياء ويزنها ، لكنه لا يصدر أحكاما . فهو لا يكن لكايوس إلا الاحتقار . أما القائد الكبير الثرى كراسوس فهو بالنسبة له رجل مسل . أما شيشرون فقد قال عنه لمضيفه :

— إنه يملك كل شىء إلا العظمة . وأعتقد أنه من النوع الذى يذبح أمه لو كان فى ذلك خدمة لأهدافه .

— لكن ، ليس لأهداف شيشرون كل هذه الأهمية .

— تماما . ولهذا فسيفشل فى كل شىء تقريبا . فهو إنسان لا خوف منه ما دام هو إنسانا لا يثير الإعجاب .

وكان هذا تعليقا نافذا يعلو على فهم أنطونيوس كايوس ، الإنسان الجدير بالإعجاب ، على الرغم من أن ميوله الجنسية قد توقفت عند المستوى الخاص بصبى فى الثانية عشرة من عمره . وكان جراكوس على استعداد لأن يعترف بينه وبين نفسه أن الأرض التى يقف عليها تميد به من تحته وتستحيل إلى وحل ، وأن عالمه يتفكك وينحل ، لكنه لم يرغب فى خداع نفسه ما دام سير التفكك بطيئا كل البطء ، وما دام هو نفسه بعيداً كل البعد عن أن يكون خالداً . وهو قادر على أن يرى ما يدور

من حوله دون أن يتحيز لجانب إذ لم يكن فى المظهر الذى يظهر به ما يدعوه إلى التحيز لجانب ما .

ظل فى تلك الأمسية بالذات مستيقظا بعد أن نام بقية أهل البيت . فهو قليل النوم ، وإذا نام فلا ينام نوما عميقا ، لذا راح يجول فى الحدائق فى ضوء القمر المنير . ولو أنه سئل لاستطاع أن يقدم تقريراً دقيقاً واضحاً عن العلاقات الخاصة بين الناس . لكنه قد لحظ ذلك وأدركه دون تجسس ، ولم يشعر بأى امتعاض ، فهذه هى روما ، والأحمق وحده هو الذى لا يدرك ذلك .

وبينما هو يسير إذ شاهد جوليا تجلس على أريكة من الحجر كشبح حزين فى الليل ، مسلوبة الإرادة ، يعصف بها الذعر من الطريقة التى رفض بها كايوس عرضها لنفسها . فاستدار متجها إليها وقال لها :

— نحن وحدنا عشاق الليل . إنها ليلة رائعة الجمال . أليست كذلك يا جوليا ؟

— إذا كنت تشعر بالجمال .

فراح يرتب عباءته الرومانية ثم قال :

— وأنت ، ألا تشعرين بالجمال يا جوليا ؟ أتودين أن أجلس معك برهة ؟

— أرجو أن تجلس .

وجلس صامتاً زمناً ، مستجيباً فى رقة لجمال الحدائق التى يضيئها نور القمر ، والبيت الأبيض الكبير يسمق رائعاً من مرقده بين الشجيرات والنباتات دائمة الخضرة ، والشرفة ، والنافورات ، والأشعة الشاحبة للتماثيل هنا وهناك ، والأشجار ومن تحتها الأرائك الرائعة من الرخام الوردى الشاحب أو الأسود الداكن . لقد نجحت روما فى تحقيق قدر كبير من الجمال !

وفى النهاية قال :

— يبدو يا چوليا أن كل هذا يجب أن يرضينا .

— أجل . يبدو ذلك .

— إنها ميزة أن يكون الشخص رومانيا .

فأجابت چوليا فى هدوء :

— أنت لا تقول هذه التفاهات الحمقاء أبداً إلا عندما تكون معى .

— حقا ؟

— أجل . أظن ذلك . قل لى ، هل سمعت أبدا عن ڤارينيا ؟

— ڤارينيا ؟

— ألا تقرر شيئاً أبداً قبل أن تديره فى ذهنك خمس مرات على الأقل ؟ أنا لا أحاول المكر بك يا عزيزى .

وأراحت يدها على مخلبه الضخم ثم قالت :

— فأنا لا أستطيع . كانت ڤارينيا زوجة سبارتاكوس .

— أجل ، لقد سمعت عنها . والحقيقة ، أنكم تحيون هنا وشبح سبارتاكوس فى مخيلتكم . فأنا لم أسمع الليلة عن شىء عداه .

— الحق ، إنه لم يدمر ڤيلا سالاريا ، ولست أدرى أأشكر له ذلك أم لا . لكنى أظن أن السبب فى ذلك هو رموز العقاب . لم أخرج إلى الطريق بعد ، أهى مخيفة جداً ؟

— مخيفة . لا أعرف أنى أعرتها كثيرا من التفكير . فهى هناك ،وهذا كل شىء تقريبا . الحياة رخيصة ، والعبيد لا قيمة لها تقريبا فى هذه الأيام . لماذا تسألينى عن ڤارينيا ؟

— كنت أحاول التفكير فى شخص أحسده . أظن أنى أحسدها .

— حقا يا چوليا ؟ تحسدين أمة بربرية حقيرة ؟ أتودين أن أبعث غدا بمن ينتقى لك اثنتى عشرة واحدة مثلها من السوق ويرسلهن إلى هنا ؟

— أنت لا تعرف الجد أبدا . ألست كذلك يا جراكوس ؟

— قليل جداً ما يستحق الجد . لماذا تحسدينها ؟

— لأنى أكره نفسى .

فقال فى صوت كالمهزوم :

— هذا أمر كثير التعقيد بالنسبة لى . أتستطيعين أن تتصورى شكلها وهى قذرة ، تمسح أنفها بيدها ، وتتنخم ، وتبصق ، وأظافرها مكسورة قذرة ، ووجهها تغطيه الدمامل ؟ هذه هى أميرتك الأمة . أما زلت تحسدينها ؟

— وهل كانت بهذه الصورة ؟

فضحك جراكوس وقال :

— من يدرى يا جوليا ؟ السياسة أكذوبة والتاريخ تسجيل للأكذوبة . لو أنك ذهبت إلى الطريق غدا ونظرت إلى تلك الصلبان فسترين الحقيقة الوحيدة عن سبارتاكوس . الموت . ولا شىء عداه . وكل شىء عدا ذلك ليس إلا تلفيقا . أنا أعرف .

— أنا أنظر إلى عبيدى !

— ولا ترين سبارتاكوس ممثلا فيهم ؟ طبعا . كفاك تعذيبا لنفسك ياجوليا . أنا أكبر منك سنا ، ولى الحق فى أن أوجه إليك النصح . نعم ولو بمخاطرة التدخل فيما لاشأن لى به . انتق من بين عبيدك من يعجبك .

— كفى يا جراكوس .

وطفقت تبكى . وجراكوس لم ير كثيرا من نساء طبقته يبكين فشعر فجأة بالحرج والحماقة . وبدأ يسألها هل أخطأ ، فهو لم يقل شيئا مهينا بالذات ، لكن أكان ذلك خطأ منه ؟

— لا . لا . أرجوك يا جراكوس . أنت واحد من أصدقائى القلائل . لا تكف عن صداقتك لى لأنى على هذا القدر من الحماقة .

وجففت عينيها واعتذرت وتركته هناك وهى تقول :

— أنا شديدة التعب . أرجو ألا تأتى معى .

كان لجراكوس ، مثل شيشرون ، إحساس بالتاريخ ، ولكن كان الفارق الكبير بينهما أن جراكوس لم يحير نفسه يوما فى فهم مكانه ودوره ، فاستطاع لذلك أن يرى كثيرا من الأشياء أوضح مما كان يراها شيشرون .. جلس وحده فى تلك اللحظة من ليل إيطاليا الدافىء الرقيق ، وراح يقلب فى ذهنه الحالة الغريبة للسيدة الرومانية النبيلة التى تحسد أمة بربرية . ففكر أولا هل كانت جوليا صادقة ، وقرر أنها صادقة فعلا . إذ أن فارينيا ، لسبب ما ، تلقى الضوء على جوهر المأساة المثيرة للشفقة التى تعيش فيها جوليا — وتساءل هل معنى حياة الاثنين متضمن بنفس الطريقة فى رموز العقاب التى لا حصر لها والتى تخطط الطريق الأبيوسى . وجراكوس لا تزعجه الأخلاقيات ، فهو يعرف شعبه ، وليس هو من تخدعه أسطورة السيدة الرومانية والعائلة الرومانية . لكنه ، لسبب ما لا يدريه ، كان منزعجا فى أعماقه لما قالته جوليا . وظلت هذه المسألة عالقة بذهنه ترفض أن تفارقه .

وجاءه الجواب على تساؤله فى لمحة من الفهم تركته باردا مهزوزا بطريقة لم تهزه من قبل إلا نادرا ، وتركته مليئا بالخوف من الموت ومن الظلام المطبق المخيف ومن العدم الذى يعقب الموت . فقد بدد الجواب قدرا كبيرا من اليقين الساخر الذى يستنده فى حياته

وتركه يجلس هناك على الأريكة الحجرية مثقلا ، رجلا عجوزا سمينا مستكرشا ، ارتبط مصيره كشخص فجأة بحركة هائلة من تيارات التاريخ .

رأى ذلك بوضوح . فالشيء الذي دخل إلى العالم حديثا هو مجتمع كامل يقوم على ظهور العبيد ، ولغة هذا المجتمع هي قرقعة السياط . وماذا قدم هذا العالم لهؤلاء الذين يجيدون استعمال هذا السوط ؟ ماذا كانت جوليا تعني بقولها ؟ هو لم يتزوج قط ، فقد حالت نواة لهذا الفهم الحالي بينه وبين اتخاذ زوجة ، فاشترى النساء والمحظيات ليبقين في بيته عندما يحتاج إليهن . لكن أنطونيوس كايوس يحتفظ بحظيرة من المحظيات مثلما يحتفظ كل سيد من معارفه بعدد من النساء ، كما يحتفظ المرء بعدد من الخيول أو الكلاب . والزوجات يعرفن هذا ويقبلنه ويعملن نفس الشيء مع العبيد .

لم يكن الأمر مجرد فساد بسيط ، إنما هو هول مخيف قلب العالم رأسا على عقب . وهؤلاء الناس المجتمعون الليلة معا في ڤيلا سالاريا يحيون في رعب من شبح سبارتاكوس لأن سبارتاكوس كان كل ما لم يكونوه هم : قد لا يفهم شيشرون أبداً من أين نبع فضل هذا العبد الغامض ، لكنه هو جراكوس قد فهم . فالعبيد كانوا يدافعون عن البيت والأسرة والشرف والفضيلة وعن كل ما هو طيب ونبيل ، كما كانوا يمتلكون كل هذا لا لأنهم طيبون نبلاء ، إنما لأن سادتهم قد تركوا لهم كل ما هو مقدس .

وكما استطاع سبارتاكوس أن ينفذ ببصيرته إلى ما قد يحدث مستقبلا ـ وهى الرؤيا النابعة من نفسه ـ كذلك استطاع جراكوس أن ينفذ بطريقته الخاصة إلى رؤية ما قد يحدث مستقبلا . وجعله ما رآه فى المستقبل يحس بالبرودة والمرض والخوف ، فنهض وجمع عباءته الرومانية حول جسده ومشى بطيئا بخطوات ثقيلة متجها إلى غرفته ومرقده .

لكنه لم يستطع النوم بسهولة . وحقق رغبة جوليا فى الإبقاء على صداقته لها فبكى من أجلها كصبى صغير بدموع جافة صامتة ، من أجل زميلة له فى وحدته . وتظاهر كصبى ، بأن الأمة فارينيا تشاركه مرقده . وزاد الرعب من رغبته الحزينة فى الفضيلة ، وراحت يداه السمينتان المحلاتان بالخواتم تربتان على شخص وهمى يرقد على ملاءة سريره . ومرت الساعات وهو يرقد هناك مع ذكرياته .

كلهم يكرهون سبارتاكوس . وروح سبارتاكوس تملأ هذا البيت ، وليس فيهم من يعرف هيئته أو شكله ، أو أفكاره أو سلوكه ، ومع ذلك فهو موجود فى كل مكان فى هذا البيت ، كما هو موجود فى كل مكان فى روما . ووهم مطلق أن يقال إنه هو ، جراكوس ، كان خلوا من تلك الكراهية لسبارتاكوس . على العكس ، فإن كراهيته لسبارتاكوس ، التى أخفاها بمهارة على الدوام ، لهى أكثر عنفا ، وأكثر مرارة ، وأكثر توقدا من كراهيتهم لسبارتاكوس .

وبينما هو يصطرع مع ذكرياته ، راحت ذكرياته تتخذ لنفسها شكلا وهيئة ولونا وواقعا . تذكر كيف كان يجلس فى مجلس الشيوخ ، وما من مرة جلس فيها فى قاعة المجلس إلا أحس واستقبح شعوره الخاص بالكبرياء لوجوده هنـــاك بين العظماء الأرستقراطيين . عندما جاءت الأنباء بالبريد العاجل من كابوا بأنه قد حدث تمرد بين المجالدين فى معهد لنتولوس باتياتوس ، وأن التمرد يتسع وينتشر فى الريف . وتذكر موجة الخوف التى انتشرت فى مجلس الشيوخ وكيف بدأوا ينقنقون كسرب كبير من الإوز ، إذ راحوا يتكلمون كلهم فى نفس الوقت ، يقولون كلهم أشياء عنيفة مذعورة لا لشىء إلا لأن حفنة من المجالدين قد قتلوا مدربيهم . وتذكر اشمئزازه منهم . وتذكر كيف نهض وهو يجمع عباءته حول جسده ويلقى بطرفها فوق كتفه ويومىء إيماءته المكتسحة التى صبحت علامة مميزة له ، ويصيح كالرعد مخاطبا زملاءه الأجلاء .

— ياسادة ، ياسادة أنتم تنسون أنفسكم .

فكفوا عن نقنقتهم واستداروا له .

— ياسادة ، نحن نواجه جريمة ارتكبها حفنة من العبيد القصابين القذرين التعسين . لسنا نواجه غزوا بربريا . وحتى إذا كنا ، فإنه

يبدو لى ياسادة أن من واجب مجلس الشيوخ أن يسلك سلوكا مخالفا لهذا . يبدو لى أننا مطالبون تجاه أنفسنا بقدر من الوقار .

فأشعلت عباراته غضبهم نحوه ، لكنه كان شديد الغضب منهم . فهو يعتبر السيطرة الدائمة على الأعصاب مظهراً من مظاهر الكبرياء . لكن هذه المرة كانت إحدى المرات التى فقد فيها السيطرة الدائمة على أعصابه ، فأهان ، هو ، الوضيع المنبت والنشأة ، السوق ، وحقر أكبر وأجل هيئة فى العالم بأسره . ومع ذلك فقد قال لنفسه .

— اللعنة على ذلك .

وخرج من القاعة ودفاعهم الورع عن كرامتهم يدوى فى أذنيه وعاد إلى بيته .

كان ذلك اليوم يحيا فى ذاكرته . كل دقيقة من ذلك اليوم عاشت معه . لقد أصابه الفزع أول الأمر . فقد خان القواعد المقدسة التى استنها لسلوكه ، ففقد السيطرة على أعصابه ، وخلق لنفسه خصوما . ومشى فى شوارع مدينته المحبوبة روما وهو ملىء بالمخاوف مما فعل . لكن الخوف كان ممزوجا بالاحتقار لزملائه ، والاحتقار لنفسه ، لأنه لم يستطع حتى حينذاك أن يتغلب على رهبته من مجلس الشيوخ ومن الاحترام الذى تشبعت به نفسه لأولئك الحمق الذين يحتلون مقاعد المجلس .

ولأول مرة فى حياته يعمى عن روائع وأصوات ومناظر محبوبته روما . فجراكوس مولود فى روما وفيها نشأ ، وروما مسكنه ومأواه ، وهى جزء منه ، وهو جزء منها . وربى فى نفسه احتقاراً كاملا للآفاق المفتوحة والأودية الخضراء والجداول الرقراقة ، وتعلم السير والجرى والقتال فى المسالك المتعرجة ومجارى المياه القذرة فى روما ، وتسلق فى طفولته كالعنزة الأسطح العالية لمنازل السكنى التى لا حصر لها ، وأصبحت رائحة الفحم المحترق التى تسود هذه المدينة أحلى عطر عرفه . كانت هذه إحدى فترات حياته التى لم تستطع طبيعته الساخرة أن تنفذ إليها قط . إذ كان السير فى شوارع الأسواق الضيقة بما يزحمها من عربات اليد والأكشاك حيث تعرض وتباع تجارة العالم بأسره مغامرة جديدة بالنسبة له على الدوام . ونصف المدينة يعرفه بالنظر ، والتحيات تلقى إليه . . « مرحى جراكوس » هنا ، و « أهلا جراكوس » هناك دون احتفال أو اهتمام من جانبه . والباعة المتجولون والإسكافية والشحاذون والمتعطلون وسائقو عربات النقل والبناءون والنجارون يحبونه لأنه واحد منهم كافح وجاهد فى سبيل شق طريقه إلى القمة . وهم يحبونه لأنه يدفع أعلى الأسعار ثمنا لشراء الأصوات الانتخابية . وهم يحبونه لأنه لا يتظاهر بما ليس فيه ولأنه يفضل أن يمشى على قدميه بدلا من الركوب فى محفة ، ولأن لديه على الدوام الوقت لتحية صديق قديم ، أما كونه لم يقدم لهم علاجا لشقائهم المتزايد ولفقدانهم

الأمل فى فى عالم يجرفهم فيه العبيد نحو التعطل والشحاذة والحياة على صدقات الدولة ، فهذا لم يغير حبهم له فى قليل أو كثير . لأنهم لم يكونوا ليعرفوا لوضعهم علاجا . وكان بدوره يحب عالمهم ، عالم الكآبة ، حيث تكاد رءوس منازل السكنى العالية تلتقى فوق الطرقات الضيقة القذرة فيضطرون إلى إبعاد بعضها عن البعض بعروق الخشب ، عالم الشوارع الصاخبة القذرة التعسة فى أكبر مدينة فى العالم .

لكنه كان أعمى غافلا عن كل هذا فى ذلك اليوم الذى يذكره الآن بكل وضوح . إذ راح يسير فى الشوارع غير عابىء بالتحيات الموجهة إليه . ولم يشتر شيئا من الأكشـــاك . حتى شرائح لحم الخنزير المملح المقلية ذات الطعم الجميل ، والسجق المدخن ، والجلد المحشو ، التى كانت تطهى فوق كثير من عربات اليد لم تجذبه إليها . فهو لا يستطيع عادة مقاومة إغراء الطعام المطهو فى الشارع .. فطائر العسل ، والسمك المدخن وأسماك السردين المملحة المجففة والتفاح المخلل والبطارخ ، لكنه غفل عن كل هذا فى ذلك اليوم ـ وعاد إلى بيته غارقا فى كآبته .

لم يرض جراكوس لنفسه قط ، وهو فى مثل ثراء كراسوس تقريباً ، أن يشيد أو يشترى لنفسه إحدى الفيلات الخاصة التى كانت تنشأ فى الجزء الجديد من المدينة بين الحدائق والمتنزهات إلى جانب النهر . وفضل أن يشغل الدور الأرضى فى منزل للسكنى فى

حيه القديم ، وترك أبوابه مفتوحة على الدوام لكل من يرغب فى مقابلته. والجدير بالذكر أن كثيرا من العائلات الثرية كانت تعيش فى هذه الأدوار الأرضية ، إذ كانت خير ما يسكن فى منازل السكنى . فقد كان الإيجار فى منازل السكنى الرومانية يقل والتعس يزيد كلما صعد المرء فى السلالم الواهنة المؤدية إلى الأدوار العليا . كما جرت العادة على أن ينعم الطابقان الأول والثانى وحدهما بالمياه عن طريق الأنابيب وبدورات المياه والحمامات الجديرة بحمل أسمائها . ولم يكن المجتمع القبلى قد أوغل فى القدم بعد حتى يمكن الفصل فصلا كاملا بين الفقراء والأغنياء فى كل مكان. فكان الكثير من التجار الأغنياء أو المصرفيين يقطنون مساكن تحمل فوق رءوسها عشا حقيقياً للفقر يعلو سبعة طوابق .

وهكذا يذكر جراكوس كيف عاد إلى بيته فى ذلك اليوم دون أن يلقى كلمة ترحيب أو تحية لأى إنسان ، وكيف دخل إلى مكتبه وهو يلقى إلى عبيده أمرا غير عادى بألا يدخل عليه إنسان . وكان كل عبيده من النساء ، وكان يصر على ذلك ويرفض أن يشاركه عبد ذكر فى سكناه . ومع ذلك فلم يبالغ فى شراء الإماء كما كان الكثير من أصدقائه يفعلون . فاكتفى بأربع عشرة أمة لسد كل حاجياته . ولم يكن ليحتفظ لنفسه بحريم خاص كما كان العزاب يفعلون عادة . ولما لم يكن ليرغب فى تعقيد حياته المنزلية ، كان

يبيع من تحمل من إمائه، إلى مالك ضيعة لأنه كان يرى أن من الخير للأطفال أن يشبوا فى الريف . ولم يكن ليجد فى ذلك التصرف من جانبه شيئا قاسيا أو منافيا للأخلاق .

ولم يكن يفضل امرأة من نسائه على أخرى ـ ما دام أنه لم يكن ليقدر على أكثر من مجرد العلاقة العابرة مع أى امرأة . وكان مغرما بترديد أن بيته أكثر نظاما وأكثر هدوءا وسلاما من غالبية البيوت. لكنه الآن وهو يرقد فى سريره فى ڤيلاسالاريا ويسترجع ذلك اليوم لا يجد فى ذكرياته عن بيته دفئا ولا بهجة . فقد استولى عليه معيار أخلاقى جديد وأسقمه التفكير فى طريقة حياته السابقة . ومع ذلك فقد راح يتابع أحداث ذلك اليوم . رأى نفسه من وجهة نظر امتيازه ، رجلا سمينا ضخما يلتف بالعباءة الرومانية ويجلس وحيدا فى الغرفة العارية التى يسميها مكتبه . ولا بد أنه قد أمضى هناك ما يزيد على الساعة جالسا قبل أن يزعجه أحد . إذ سمع طرقا على الباب فسأل قائلا :

ــ ماذا جرى ؟

فقالت الأمة

ــ جماعة من السادة يرغبون فى مقابلتك .

ــ لا أريد أن أقابل أحدا .

كم كان هذا التصرف صبيانيا من جانبه .

— إنهم سادة أجلاء ورجال نبلاء من مجلس الشيوخ .

إذن فقد جاءوا إليه ، ولم يضع أو يطرد من دوائرهم بعد . ما الذى دفعه إلى التفكير فى أنهم سيطردونه ؟ من الطبيعى أن يأتوا إليه . وشعر بالحياة تعود إليه من جديد . وعادت إليه نفسه فقفز من مقعده وفتح الباب على مصراعيه وعاد من جديد جراكوس القديم الباسم الواثق من نفسه الكفؤ . وقال :

— يا سادة ، مرحبا بكم يا سادة .

كانوا خمسة من أعضاء لجنة المجلس من بينهم اثنان من القناصل أما الثلاثة الآخرون فكانوا من النبلاء ذوى المكانة والحكمة . لقد رأت لجنة المجلس ألا تدع هذه الحالة الطارئة الحديثة تزيد من أى خلاف سياسى قد يفكر جراكوس فى إثارته فرجوا بين الألفة والتعاظم وهم يؤنبونه قائلين .

— ماذا دهاك ياجراكوس ؟ أكنت تجلس فى مجلس الشيوخ طيلة هذا العام فى انتظار فرصة لإهانتنا .

فاعتذر جراكوس قائلا

— لست أملك لا القريحة ولا البراعة لأطلب منكم الصفح كما يجب .

— بل أنت تملك الاثنتين . لكن هذا خارج عن الموضوع .

وطلب مقاعد وجلسوا فى دائرة من حوله ، خمسة رجال يزينهم السن والوقار يلتفون فى العباءات الرومانية البيضاء الفاخرة التى أصبحت رمزا للحكم الرومانى للعالم بأسره ، وجاء الشراب وصينية من الحلوى . وتولى القنصل كاسبيوس الحديث باسم الجميع . فتملق جراكوس وحيره لأن جراكوس لم ير فيما حدث أزمة لها كل هذه الضخامة ، وهو طالما حلم بأن يصبح قنصلا ، لكن ذلك لم يكن ممكنا فهو لم يكن يملك المواهب أو الصلات العائلية الخاصة اللازمة لذلك ، وحاول أن يخمن ما يسعون إليه فكان كل ما انتهى إليه تخمينه هو أن الموضوع صلة بأسبانيا ، حيث استحالت الثورة ضد مجلس الشيوخ — وروما بالطبع — التى يقودها سير توريوس إلى نزاع حول السلطان بين سير توريوس وبومبى . وكان لجراكوس تقديره الخاص لهذا الموضوع . فهو يحتقر الخصمين المتنافسين وكان قد عقد العزم على ألا يحرك ساكنا وأن يتركهما ليحطم كل منهما الآخر . وكان يعرف أن للسادة الخمسة الجالسين حوله نفس الرأى .

وقال كاسبيوس

— أنت ترى إذن أن هذه الثورة التى نشبت فى كابوا تنذر بخطر عظيم .

فأجابه جراكوس فى صراحة

— أنا لا أرى هذا على الإطلاق .

— لو وضعنا فى اعتبارنا ما قاسيناه من ثورات العبيد —

فسأله جراكوس فى مزيد من الرقة عن ذى قبل :

— ماذا تعرفون عن هذه الثورة ؟ كم عدد العبيد المشتركين فيها ؟ من هم ؟ وأين ذهبوا ؟ وما مدى الصحة فى هذا الجزء من جانبكم ؟

فأجاب كاسيوس على أسئلته واحدا إثر واحد قائلا :

— لقد داومنا على الاتصال بكابوا . تقول التقارير إن المجالدين وحدهم هم الذين قاموا بالثورة فى أول الأمر . ويقول تقرير إنه لم يهرب من المجالدين سوى سبعين . ثم جاء فى تقرير وصل بعد ذلك أن عدد الهاربين يزيد على المائتين وهم التراقيون والغاليون وعدد من الإفريقيين السود . وتزيد التقارير التى وردت بعد ذلك من عددهم وقد يكون هذا نتيجة للذعر . ومن ناحية أخرى ، من المحتمل أن تكون الاضطرابات قد سادت الضيعات . ويبدو أن الثوار قد تسببوا فى إحداث خسائر كبيرة ، لكن التفاصيل لم ترد بعد . أما أين ذهبوا ، فيبدو أنهم يتقدمون فى اتجاه جبل ڤيزوف .

فانفجر جراكوس يقول وهو نافد الصبر :

— ليس هناك أكثر من ، «يبدو أنهم» . أهم من الحماقة فى كابوا إلى حد أنهم لا يستطيعون تقدير ما حدث بين ظهرانيهم ؟ لديهم قوات

للحراسة هناك. لماذا لم تقم هذه القوات بإخماد هذا الشيء بسرعة وفي الحال ؟

فتطلع كاسيوس إلى جراكوس في هدوء وقال :

— ليس في كابوا إلا كتيبة واحدة.

— كتيبة واحدة ؟ وكم من القوات نحتاج لتؤدب قلة من الجالدين التعسين ؟

— أنت تعرف كما أعرف أنا ما يمكن أن يكون قد حدث في كابوا.

— أنا لا أعرف ، لكنى أستطيع أن أخمن . وتخمينى هو أن قائد قوات الحراسة يتناول أجراً من كل متعهدى الجالدين القذرين الذين يعملون في المنطقة . عشرون جندياً هنا ، واثنا عشر جندياً هناك . كم من القوات كان موجودا في المدينة ؟

— مائتان وخمسون جنديا ، هذا ما تبقى ، ولا حاجة بك إلى مطالبة الناس بالاستقامة ياجراكوس . لقد هزم الجالدون قواتنا . وهذا ما يزعجنا غاية الإزعاج ياجراكوس . ونحن نحس أن من الضرورى أن نبعث بكتائب المدينة إلى كابوا على وجه السرعة .

— وكم عددهم ؟

— ست كتائب على الأقل - ثلاثة آلاف رجل على الأقل .

— متى ؟

— فى الحال .

فهز جراكوس رأسه . فهذا بالضبط هو ما كان يتوقعه . وفكر فيما ينوى أن يقول . وأعاد التفكير فيه بعناية كبيرة . وجمع فى ذهنه كل ما يعرفه وكل ما عرفه عن نفسية العبيد . ثم قال .

— لا تفعلوا .

وكان معتادا على معارضتهم فطلب الجميع معرفة السبب فقال :

— لأنى لا أثق فى كتائب المدن . دعوا العبيد وشأنهم فى الوقت الحاضر . دعوا قليلا من الفوضى والفساد يدب فيهم . لا ترسلوا كتائب المدن .

— ومن نرسل إذن ؟

— استدعوا فيلقا من الفيالق .

— من أسبانيا ؟ وبومبى ؟

— دعوا بومبى يتعفن ويذهب إلى الجحيم . حسن . لندع سبانيا جانبا . استدعوا الفيلق الثالث من بلاد الغال (عبر الألب) ولا تتعجلوا فهم إلا عبيد ، حفنة من العبيد . ولن يصبح الأمر شيئا إلا إذا جعلتم أنتم منه شيئا .

وراحوا يجادلون ويتناقشون . واسترجع جراكوس تلك المناقشة حية في ذاكرته من جديد وفقدها مره ثانية ، [illegible] يقررون، [illegible] غير المعقول من ثورة العبيد ، إرسال بعث من كتائب المرتزقة. ونام جراكوس قليلا واستيقظ عند مطلع الفجر كما يفعل دائما ، بغض النظر عن الزمان والمكان الذى ينام فيه وحمل الماء والفاكهة اللذين يتناولهما كل صباح إلى الشرفة حيث جلس يتناولهما .

يبدد ضوء النهار مخاوف الإنسان وحيرته . بل هو فى كثير من الأحيان بلسم وبركة . نقول فى كثير من الأحيان ولكن ليس بصفة دائمة لأن من المخلوقات البشرية فئات معينة لا ترحب بضوء النهار . فالسجين يحتضن الليل ويعتبره رداء يبعث فيه الدفء ويحميه ويبعث الراحة إلى نفسه ، بينما لا يحمل ضوء النهار إلى المحكوم عليه بالإعدام أى بهجة . لكن ضوء النهار يمحو فى معظم الأحوال ما ضمه الليل من بلبلة وحيرة . ففى كل صباح يتشح الرجال العظام بوشاح عظمتهم من جديد . ذلك لأنه حتى الرجال العظام يصبحون كغيرهم من الرجال أثناء الليل، ويقترف بعضهم خلاله أعمالا حقيرة بينما يبكى البعض ، ويتزاحم الخوف من الموت فى نفوس البعض الآخر والخوف من ظلمة أعمق من الظلمة المحيطة بهم . أما فى الصباح فإنهم يعودون رجالا عظاما من جديد . وكان جراكوس وهو جالس فى الشرفة متشحا بعباءة جديدة بيضاء كالثلج ووجهه الضخم السمين يشوش فيه ثقة بالنفس ، كان صورة لما يجب أن يكون عليه عضو مجلس الشيوخ الرومانى . فقد قيل أكثر من مرة ، فى ذلك الوقت وفيما تلاه من الأزمان ، إن العالم لم يشهد هيئة من الرجال اجتمعت لمناقشات تشريعية أحسن أو أنبل أو أحكم من مجلس الشيوخ فى الجمهورية الرومانية . وكانت النظرة

إلى جراكوس تميل بالإنسان إلى تصديق ذلك . حقيقة لم يكن جراكوس نبيل المولد ، وكانت الدماء التى تجرى فى عروقه من سلالة مشكوك فى أمرها إلى حد كبير ، لكنه كان واسع الثراء . وكان من فضائل الجمهورية أن تقدير الرجل كان يقاس على أساس ما حققه هو نفسه ، وعلى أساس الأصل الذى ينحدر منه بنفس القدر . وكان ذلك مصداقا للحقيقة القائلة بأن الآلهة عندما منحت الإنسان الثروة كان ذلك دليلا على مميزاته الشخصية . وأن المرء إذا أراد البرهان على ذلك فكل ما عليه هو أن يرى أن كثرة الناس من الفقراء وأن الأغنياء قلة قليلة .

وانضمت بقية الجماعة ، التى زادت ڤيلاسالاريا رواء ، إلى جراكوس وهو جالس هناك . وكانت جماعة غير عادية من الرجال والنساء اجتمعت هناك لقضاء الليل ويستمتع أفرادها بمعرفة أنهم أشخاص مرموقون ومن ذوى الحيثية . وساعد هذا على تيسير التعامل فيما بينهم وأكد ثقتهم فى أنطونيوس كايوس الذى لم يخطىء قط بالجمع بين أشخاص غير متكافئين فى ضيعته . لكنهم بالنسبة للظروف العامة للحياة فى الريف الرومانى لم يكونوا غير عاديين إلى حد كبير . حقيقة أن من بينهم اثنان من أغنى أغنياء العالم ، وامرأة شابة ستصبح بغياً شهيرة على مدى الأجيال ، وشاب سيظل شهيرا خلال أجيال عديدة قادمة عن طريق حياته القائمة على التآمر وإعداد الخطط فى هدوء بارد وحساب دقيق ، وشاب آخر سيصبح

انحلاله موضوعا للشهرة فى حد ذاته ، إلا أن فيلا سالاريا كانت تشهد جماعات مماثلة فى كل وقت تقريبا .

اجتمعوا هذا الصباح حول جراكوس . وكان هو الوحيد من بينهم الذى يرتدى العباءة الرومانية ، مثال للقاضى الكبير الذى لا يهتز وهو جالس هناك وأمامه الماء المعطر يقشر تفاحة ويلق بكلمة هنا وهناك . وقال لنفسه وهو ينظر إلى الرجال المصففة شعورهم فى دقة وإلى النساء المزوقات فى عناية ، فشعورهن صففتها يد خبيرة فى شكل جميل وطلاء الشفاه وأحمر الخدود قد وضعتهما يد فنانة .

— إنهم سرعان ما يعودون إلى أنفسهم .

إذ راحوا يتحدثون عن هذا الشىء وعن ذاك . وكان حديثهم بارعا أجيد تدريبهم عليه . إذا تكلموا عن النحت اتخذ شيشرون سمة المسئول ، كما هو المتوقع من جانبه وقال :

— لقد سئمت كل هذا الحديث عن اليونان . هل عملوا شيئا لم يعمله المصريون قبلهم بألف عام ؟ فى كلا الحالتين تجدون فى نحتهم انحلالا من نوع خاص ، تجدون فيه شعبا غير قادر على النمو أو السلطان . هذا ما يعكسه النحت عندهم . بينما يصور الفنان الرومانى ما هو موجود على الأقل .

فاحتجت هيلينا ، فخر الشباب ، هيلينا المثقفة ، والمرأة فى نفس الوقت قائلة :

— لكن من الممكن أن يكون ما هو موجود باعثا على الملل .

وكان المتوقع من جراكوس أن ينفى معرفته أى شىء عن الفن على الإطلاق . ومع ذلك فقد ظهر أن جراكوس يعرف الكثير عن الفن إذ قال :

— أنا أعرف ما أحب .

فهو يشترى الفن المصرى لأنه يمس وترا معينا من نفسه . بينما لم تكن لكراسوس آراء قوية عن الفن . وكان مما يلفت النظر قلة الآراء القوية عنده ومع ذلك فقد كان قائدا خبيرا كما أثبتت التجربة . وامتعض فى نفس الوقت من رأى شيشرون لما فيه من زهو وثقة ، فمن الرائع أن تتكلم عن الانحلال عندما لا تكون مضطرا إلى محاربة من تصفهم بالانحلال .

وعلق أنطونيوس كايوس قائلا :

— أحب أن أقول إنى أفضل النحت اليونانى فهو رخيص ويصبح أكثر بهجة ما إن يزول عنه الطلاء . وما أملكه منه طبعا هو هذه القطع القديمة الخالية من اللون التى يجدها المرء من حوله . لكن منظرها يبدو جميلا إذا وضعت فى حديقة ، وأنا أفضل رؤيتها فى هذا الإطار .

— إذن كان من الممكن أن تشترى آثار سبارتاكوس قبل أن يأمر صديقنا كراسوس بتحطيمها .

وابتسم شيشرون . فسألت هيلينا قائلة :

— آثار ؟

فقال كراسوس فى هدوء :

— كان من الضرورى تحطيمها .

— أية آثار ؟

فقال شيشرون :

— إذا لم أكن مخطئا ، كان جراكوس هو الذى وقع الأمر بتحطيمها .

فهدر جراكوس يقول :

— أنت لا تخطىء أبدا . ألست كذلك أيها الشاب ؟ أنت على صواب تام .

ثم قال يشرح لهيلينا :

— أقام سبارتاكوس على السفح الشرقى لجبل فيزوف تمثالين كبيرين نحتا من الحجر البركانى . لم أرهما قط لكنى وقعت الأمر بتحطيمهما .

فسألته هيلينا :

— كيف أقدمت على ذلك ؟

— وكيف لا أقدم على ذلك ؟ إذا أقامت القذارة رمزا من القذارة فعليك أن تزيليه .

وسألت كلوديا قائلة :

— وكيف كان شكلها ؟

فهز جراكوس رأسه مبتسما فى حسرة أسفا على الطريقة التى تتدخل بها أشباح العبيد وشبح قائدهم فى المحادثة مهما كان الموضوع الذى تبدأ منه المحادثة . ثم قال :

— لم أرهما قط يا عزيزتى . كراسوس هو الذى شاهدهما فاسأليه .

فقال كراسوس :

— لا أستطيع أن أبدى لك فيهما رأى فنان . لكن شكل هذه الأشياء يكون مثل ما هو مطلوب منها أن تمثله . كان هناك تمثالان ، يمثل الأول عبدا أستطيع أن أقول إن طوله يبلغ حوالى خمسين قدما يقف متباعد الساقين وقد حطم أغلاله لأنها ما زالت تحيط بجسده وهى محطمة ، ويضم إلى صدره طفلا على إحدى ذراعيه ، ويتدلى من يده الأخرى سيف أسبانى . كان هذا واحدا من الاثنين ، وتستطيعين أن تصفيه بأنه هائل فيما أعتقد . وكان متقن الصنع بقدر ما أستطيع أن أرى ، ولو أنى لست من يحكم على الأعمال الفنية كما قلت ، لكنه كان منحوتا فى بساطة . وكان الرجل والطفل جيلى التكوين إلى حد يبرز حتى التفاصيل الصغيرة أمثال القروح والآثار الجسدية التى من الطبيعى أن تحدثها السلاسل . وأذكر كيف راح كايوس تانريا الشاب يوضح لى التكوين القوى لكتف العبد

والعروق البارزة على اليدين كما ترين فى أى عبد وراء المحراث تماما. وأنت تعرفين أنه كان مع سبارتاكوس عدد كبير من اليونانيين. واليونانيون بارعون فى هذا النوع من الأشياء. لم يجدوا الفرصة لطلاء التمثال قط أو لعلهم لم يستطيعوا الحصول على أية صبغة. وكان التمثال فى مجموعه يذكرنى ببعض التماثيل القديمة التى ترينها فى أثينا، التماثيل التى زال من عليها الطلاء. وأوافق كايوس على أن شكلها أفضل من غير طلاء — ورخيصة جدا كذلك.

أما التمثال الآخر فلم يكن بمثل هذا الطول. إذ لم يزد طول الأجسام عن عشرين قدما، لكنها هى الأخرى كانت دقيقة الصنع. كان هذا التمثال يمثل ثلاثة مجالدين، تراقى وغالى وأفريقى. والطريف حقا أن تمثال الأفريقى كان منحوتا من الحجر الأسود، أما الآخران فكانا من الحجر الأبيض. كان الأفريقى يقف فى الوسط وأطول بعض الشىء من زميليه ويمسك بمدراته فى كلتا يديه فى قوة. وعلى جانب منه وقف التراقى ممسكا بالسكين فى يده وفى الجانب الآخر وقف الغالى والسيف فى يده. وكان متقن الصنع لأنك كنت تستطيعين أن ترى أنهم كانوا يقاتلون لأن أذرعتهم وسيقانهم كانت مغطاة بجراح عميقـــة. ومن خلفهم تقف امرأة. تقف فى كبرياء بالغة ويقولون إنه تمثال فارينيا. وكانت المرأة تمسك بمسطرين فى إحدى يديها وبمعول فى اليد الأخرى. ومن واجبى أن أعترف بأنى لم أستطع على الإطلاق أن أفهم مغزى ذلك.

فسأله جراكوس فى هدوء قائلا :

— فارينيا ؟

وسألته هيلينا قائلة :

— لماذا كنت مضطرا إلى تحطيمها ؟

فتولى جراكوس الرد عليها إذ قال :

— أكان من الممكن أن تترك تماثيلهم قائمة ؟ أكان من الممكن أن تتركها قائمة هناك ليشير إليها الجميع وليقولوا هذا مافعله العبيد ؟

فقالت هيلينا تعلن عن رأيها :

— إن روما من القوة إلى حد أن تسمح ببقائها — أجل وأن يشار إليها .

فعلق شيشرون قائلا :

— كلام طيب .

لكن كراسوس كان يفكر فيما كانت عليه الأحوال حينذاك ، وعشرة آلاف مقاتل من خيرة قواته يسبحون فى دمائهم فى ميدان القتال ، والعبيد يرحلون كأسد غاضب لم ينجحوا إلا فى إزعاجه وفشلوا فى الإضرار به .

وسأله جراكوس وهو يحاول أن يجعل سؤاله يبدو كما لو كان قد جاء عرضا ،

— وكيف كان شكل تمثال ڤارينيا ؟

— لا أظن أنى مستطيع أن أسترجعه فى ذاكرتى جيدا . إذ كنت تحسبها امرأة ألمانية أو غالية ، لها شعر طويل ومئزر واسع فضفاض .. وكل هذه الأشياء . الشعر مضفر ومعقوص بالطريقة التى تعقص بها الألمانيات وبنات الغال شعورهن . صدر جميل — جسد جميل قوى مثل بعض تلك الألمانيات اللاتى تراهن فى الأسواق هذه الأيام ويقبل الناس على شرائهن . بالطبع لا أحد يدرى أكانت تلك ڤارينيا حقيقة أم لا . كـكل شىء آخر فى قصة سبارتاكوس . فالمرء لا يكاد يعرف شيئا عنها . اللهم إلا إذا أردت أن تصدق الدعاية كاملة وتدع الأمر عند هذا الحد . كل ما أعرفه عن ڤارينيا هو ما رواه لى ذلك المتعهد القديم القذر باتياتوس ، وكان ما رواه لى قليلا جدا ، عدا أن لسانه تدلى وسال لعابه لمجرد ذكراها . ولذا لابد أنها كانت جميلة .

وقالت هيلينيا :

— وحطمت هذا التمثال أيضا ؟

فأحنى كراسوس رأسه . فلم يكن هو بالرجل السهل إزعاجه . وقال لهيلينيا :

— ياعزيزتى كنت جنديا وكنت أنفذ تعليمات مجلس الشيوخ . وستسمعين أن حرب العبيد كانت شيئا بسيطا . ومن الطبيعى جدا

أن يتخذوا منها هذا الموقف ما دامت روما لن تفيد كثيرا من مصارحة العالم بحقيقة ما عانيناه من جماعة من العبيد . لكننا نستطيع هنا على هذه الشرفة البهيجة فى بيت صديقنا العزيز الطبيب أنطونيوس كايوس وفى هذه الصحبة أن نصرف النظر عن الأساطير ، لم يوشك إنسان على تحطيم روما كما أوشك سبارتاكوس ، ولم يستطع أحد أن يصيبها بمثل هذه الجراح الرهيبة . أنا لا أريد أن أفخم فيما فعلت ، فليكن بومبى هو البطل فليس إخماد فتنة للعبيد بالأمر الخطير ، لكن الحقيقة تبقى . وإذا كانت رموز العقاب أمرا لا يسر ، فلتفكرى فيما أحسسته عندما رأيت الأرض مغطاة بجثث جنود أحسن القوات فى روما . لذلك لم أفزع أو أتراجع عن تحطيم بعض التماثيل الحجرية التى أقامها العبيد . على العكس تماما لقد أحسست رضاء نفسيا معينا فى القيام بذلك . لقد حطمنا التماثيل تحطيما كاملا وسحقناها ترابا حتى لا يبقى منها أثر . وكذلك حطمنا سبارتاكوس وجيشه وكذلك سنحطم فى الوقت المناسب — وتبعا للضرورة — مجرد ذكرى ما فعل وكيف فعل ذلك . ما أنا إلا مجرد رجل بسيط ، ولست بارعا براعة خاصة لكنى أعرف هذا ، أعرف أن نظام الأشياء هو أن البعض يجب أن يحكم وأن البعض الآخر يجب أن يخدم . هكذا نظمت الآلهة الأشياء وأرادتها . وهكذا سنكون .

وكان من صفات كراسوس أنه يستطيع أن يستثير عواطف الآخرين دون أن ينفعل هو أدنى انفعال . وكانت تقاطيع وجهه

المنسقة القوية العسكرية تزيد من وزن ما يقول . كان يمثل الصقر البرونزى رمز الجمهورية بكل معانى الكلمة .

وراح جراكوس يرقبه من تحت جفونه المسدلة . إذ جلس جراكوس هناك يتطلع إليهم الواحد بعد الآخر ، شيشرون النحيل الوجه ، النهاب ، وكايوس الغندور الشاب ، وهيلينا ، وجوليا الصامتة المعذبة المثيرة للضحك إلى حد ما ، وكلوديا الناعمة القانعة ، أنطونيوس كايوس — وكراسوس — كلهم راح يرقبهم ويصغى إلى ما يقولون . وعاد بذاكرته من جديد إلى يوم جاءت لجنة مجلس الشيوخ وراءه بعد أن تركها وخرج . كانت تلك هى البداية طبعا — عندما أرسلت اللجنة الكتائب الستة . والبداية معرضة للنسيان وكذلك النهاية كما قال كراسوس — اللهم إلا إذا كانت النهاية لم تأت بعد — كما هو محتمل .

كان قرار مجلس الشيوخ فى أول الأمر هو إرسال ست من كتائب حراسة المدنية إلى كابوا فى التو لإخماد ثورة العبيد . وكان هذا هو القرار الذى عارضه جراكوس والذى نفذوه من ناحية ليلقنوه مبادىء التحقير . وكان جراكوس يتذكر مسألة التحقير هذه فى ضوء ما حدث بعد ذلك فى رضاء معين مرير .

كانت كل كتيبة من كتائب حراسة المدن تتكون من خمسمائة وستين جنديا - مسلحين كتسليح جنود الفيالق العاديين - إنما فى مظهر أفضل وبمعدات أغلى ثمنا . فالمدينة مكان طيب للإقامة . أما الفيالق فتذهب إلى أطراف المعمورة ولا تعود أبدا فى كثير من الأحيان، من إنما تدفن فى أرض غريبة ولا تعود فى كثير من الأحيان كذلك إلا بعد خمس أو عشر أو خمس عشرة سنة . وجنود الفيالق يمشون طيلة اليوم على حفنة من الطعام ويعرقون ويعملون ويشقون الطرق ويشيدون المدن فى الفيافى وتصبح روما المدينة الكبيرة بالنسبة لهم مجرد ذكرى فى بعض الأحيان . أما جنود كتائب حراسة المدن فيعيشون على خيرات الأرض ، ولا نهاية للنساء والشراب والألعاب بالنسبة لهم . حتى الجندى البسيط فى كتيبة لحراسة المدينة كان يمثل عاملا سياسيا وكانت قطرات المال تداعب راحته على الدوام . وكان لكثير من رجال الكتائب فى المدينة

مساكن جيدة لأوقات الفراغ . وكان البعض يملك عددا من الإماء يصل إلى ستة نساء . وقد رويت قصة عن أحد جنود المدينة كان يملك أربع عشر محظية فى مسكن كبير فى روما ويدير عملا رابحا من إنجاب الأطفال وتربيتهم حتى سن السادسة ثم بيعهم فى الأسواق . كما كانت تروى قصص كثيرة مشابهة .

كان جنود كتائب حراسة المدن يرتدون سترات رسمية أنيقة، ويقود كل كتائب الحراسة ضباط شبان من أبناء العائلات الطيبة الذين كانوا يبنون مستقبلهم فى الجيش لكنهم يرغبون فى ألا يكون مستقبلهم بعيدا عن المسرح وساحة القتال والمطاعم الجيدة . وكان نصفهم من أصدقاء كايوس ، وداعبته مرة أو مرتين فكرة الالتحاق بمثل هذا العمل ، لكنه نبذ الفكرة لأنها لا تتلاءم مع مواهبه الخاصة . لكن هذا النوع من السلطان بالإضافة إلى حقيقة أن الكتائب كانت تستدعى للقيام بالاستعراضات العسكرية فى كل احتفال رسمى عام تقريبا ، أديا إلى حدوث تنافس طبيعى بين السادة الشبان حـــول قيادة أحسن الفصائل مظهرا . فى المدينة كانت السراويل الجلدية القذرة المشربة بالعرق التى يرتديها جندى الفيالق يستبدل بها جلد أنثى الغزال الجميل الصباغة الرقيق الدباغة . كما كان لكل فصيلة لونها الخاص بها . وكانوا فى العادة يمنحونهم امتياز تثبيت الريش فى الخوذات . وكانت الشرائح الحديدية التى توضع على الكتف وتنزل على الصدر من الأمام وتتداخل فى الشريحة التى

توضع على الصدر كثيرا ما تطلى بالذهب أو الفضة . وكانت دروع إحدى الكتائب كلها من النحاس الأصفر كما كان لكل فصيلة حذاء متميز يعلو حتى الركبة وتزينه الأجراس الفضية الصغيرة . وكان نصف جنود فصائل المدينة يستعمل دروع الساقين البرونزية التى أقلعت فيالق الحدود عن استعمالها منذ زمن بعيد لأنها وجدت أن مشى الأميال فى اليوم الواحد أمر مستحيل بالنسبة لرجال سيقانها مغلفلة بالمعدن . وكان لكل كتيبة تصميم مختلف لواجهة الدروع وكانت أسلحتها ودروعها من نوع لا نظير له فى كل إيطاليا.

لم تكن الكتائب مفتقرة إلى التدريب ، فقد كانت تقـــوم بتدريباتها كل يوم فى تلك الفترة . إذ كانت تتدرب عادة فى الصباح المبكر فى ساحة مكسيموس المستديرة التى كانت حينذاك ميدانا مفتوحا للسباق فى منخفض وادى موراسيا . وكانت مشاهدة الجنود وهى تقوم بتدريباتها على إيقاع الموسيقى الصادرة عن مائة صفارة أمرا يبعث البهجة إلى النفس . فكانت سفوح التلال المحيطة بالساحة المستديرة تزدحم كل صباح بأطفال روما الذين كانوا يرقبون المشهد العسكرى فى غبطة وحسد .

ولكن حقيقة الأمر كانت أن الكتائب لم تكن فى قوة الفيالق . فتشتيت جمهرة من المتعطلين الجائعين اليائسين ، والاشتراك فى خصام سياسى فى شوارع المدينة الضيقة شىء ، أما قتال الأسبان أو الغاليين أو الألمان أو التراقيين أو اليهود أو الإفريقيين فذلك شىء آخر مختلف تماما .

ومع ذلك لم يكن هذا أكثر من تمرد قامت به حفنة من العبيد . وست من كتائب المدن ، مع كل ما فيها من نواحى النقص تضم أكثر من ثلاثة آلاف وخمسمائة جندى رومانى . وكان جراكوس نفسه يسلم بذلك ولو فى القليل . إذ لم يكن ليرضى من ناحية المبدأ أن يرى الكتائب تبعد عن جدران المدينة أكثر من مسيرة يوم واحد . لكن عـــدد الكتائب كان سبعة وعشرين . وحتى جراكوس سلم بأن فى استطاعتها أن تقوم بما كلفت به . إنما قامت معارضته بصورة أكبر على أساس من خوف عميق من هذه الفصائل السياسية التى لا تتكون من الجنود الفلاحين إنما من أبناء المدينة التى ولدوا وعاشوا فيها ومن المتعطلين فاقدى الضمير والطفيليات المتعفنة فى روما ومن المنبوذين وفاقدى الأمل الذين كانوا يحيون حياتهم محصورين بين كتلة العبيد التى يقوم عليها المجتمع وحفنة الحكام التى تنهض فوقها . وكانوا يزيدون فى عددهم عن عمال روما ، جوهر الصناع وأصحاب الحوانيت الذين كانوا فى تناقص مستمر . وكانوا ينفقون أيامهم فى الشوارع أو فى الساحة ، ويعيشون على مرتباتهم الضئيلة ويقامرون ويراهنون فى السباق ويبيعون أصواتهم الانتخابية فى كل انتخابات ، ويخنقون أولادهم عقب ولادتهم ليهربوا من مسئولية تربيتهم . وكان جنود الكتائب يمضون الساعات فى الحمامات ويحيون فى المساكن الصغيرة القذرة

فى منازل السكنى العالية — ومن كل هؤلاء كانوا يجندون الجند لكتائب حراسة المدن .

تحركت الكتائب الست فى مطلع الفجر فى اليوم التالى لقرار مجلس الشيوخ . وأعطيت قيادتها لعضو شاب فى مجلس الشيوخ يدعى ڤارينيوس جلابروس ، وأعطوه شارة السفارة ، وبعثوا به كممثل لمجلس الشيوخ وله سلطات المجلس . ولم تكن روما لتخلو من الرجال الأكبر سنا من ڤارينيوس من ذوى الخبرة العسكرية الطويلة ، لكن الصراع الداخلى فى سبيل السلطان كان يمزق روما منذ سنوات طويلة وكان مجلس الشيوخ شديد الحذر من وضع قوة عسكرية بين يدى أى فرد خارج المجلس . وكان ڤارينيوس جلابروس مغرورا أميل إلى الغباء وموثوقا به سياسيا .

وكان ڤارينيوس فى التاسعة والثلاثين من عمره فى ذلك الوقت ، وكانت له عن طريق أمه علاقات عائلية طيبة . فلم يكن طموحه ليفتقر إلى السند ومن ثم رحب هو وعائلته بهذا الاختيار كفرصة لقدر من المجد لا يشوبه احتمال الفشل . وكانت أغلبية الأعضاء فى مجلس الشيوخ ، باختيارهم لڤارينيوس تقوى موقفها من فريق كامل من النبلاء . إذ سيقوم الضباط تحت إمرته بتنفيذ ما يجب عمله عسكريا ، أما القرارات القليلة التى قد يضطر إلى اتخاذها فقد أعطيت له التعليمات الدقيقة الصريحة بشأنها ، عليه أن يقود رجاله

إلى كابوا بسرعة السير فى ميادين القتال أى عشرين ميلا فى اليوم. وهذه المسافة كلها على الطريق الأبيوسى ومعنى ذلك أن العربات هى التى ستحمل الطعام والماء الذى يحمله جندى الفيلق على ظهره عادة . وعليه أن يعسكر للراحة برجاله خارج جدران كابوا وعليه ألا يمضى فى تلك المدينة أكثر من يوم واحد فى جمع المعلومات عن مدى تقدم ثورة العبيد ولوضع خطته لقمعها، وعليه بعد ذلك أن يبعث بخطته إلى مجلس الشيوخ على أن يشرع فى تنفيذها فوراً دون انتظار اعتمادها من المجلس . وعليه أن يتصرف فى العبيد بما يراه واجبا، لكن يجب أن يبذل كل جهد ممكن للقبض على قادة الثورة وأن يعود بهم وبأكبر عدد يمكن أسره إلى روما لمحاكمتهم محاكمة علنية وتوقيع العقاب بهم . وإذا طلب مجلس مدينة كابوا رموز عقاب ، فله الحق فى صلب عشرة من العبيد خارج كابوا — لكن على شريطة أن يكون هذا العدد أقل من نصف الأسرى . وأصدر مجلس الشيوخ أمرا صريحا يقضى بمصادرة كل حقوق ملكية العبيد لحساب المجلس . وصدرت التعليمات لفارينيوس بأن يرفض قبول أى مطالبات بالعبيد ولو أن من الممكن قبول أى إعلانات قضائية لقضايا تترتب على ذلك وأن تسلم هذه الإعلانات إلى لجنة المطالب .

حدث هذا قبل أن يكون لدى روما أى فكرة عن قائد الثورة . ولم يكن اسم سبارتاكوس قد عرف بعد ، كما لم يكن

مفهوما بصورة واضحة كيف قامت الثورة فى مدرسة باتياتوس . تجمعت كتائب حراسة المدينة للقيام باستعراض عسكرى عند مطلع الفجر . ولكن حدث بعض التأخير نتيجة للخلاف بين الضباط حول مواضع الكتائب . فكانت الشمس قد صعدت إلى السماء عندما بدأت الكتائب تتحرك . ودوت فى أنحاء المدينة الموسيقى العسكرية المثيرة الصادرة عن طبولها وصفاراتها . وعندما وصلت الكتائب إلى أبواب المدينة ، كان جمهور كبير قد احتشد لمشاهدتها وهى ترحل .

جراكوس يتذكر كل ذلك جيدا — جيدا جدا . فقد انضم هو واثنان من أعضاء المجلس إلى الجمهور المحتشد عند أبواب المدينة . وتذكر جمال منظر الكتائب وهى تسير ، والفرق الموسيقية تعزف ، والأعلام تتطاير ، والألوية تتمايل فى كبرياء ، وخوذات الجنود بما فيها من ريش تهتز فى أثناء سيرهم ، وفارينيوس على رأس الصفوف يضع على صدره درعا من النحاس اللامع ويمتطى صهوة جواد أبيض رائع ، ويلوح للجماهير التى راحت تحييه . ليس فى العالم ما يثير مثل استعراض لجنود أجيد تدريبهم . جراكوس يتذكر ذلك جيدا جدا .

— ٥ —

وهكذا عرف مجلس الشيوخ اسم سبارتاكوس . ويستطيع جراكوس أن يذكر أول مرة سمع فيها الاسم . ولعل ذلك كان أول مرة ينطق فيها الاسم فى روما . فقد علق عليه ڤارينيوس فى التقرير الذى بعث به بالبريد العاجل من كابوا إلى مجلس الشيوخ فى روما تعليقا عابرا دون اهتمام خاص وبلا احتفال . ولم تكن لتقرير ڤارينيوس أهمية خاصة فقد بدأ بالعبـــارة التقليدية . . « أرجو أن يسر مجلس الشيوخ الموقر » ثم راح يعدد تفاصيل الحوادث القليلة التى حدثت أثناء سير القوات على الطريق الأبيوى والمعلومات التى جمعها فى كابوا . وكان أهم ما حدث أثناء المسير هو أن جنود الكتائب الثلاث التى يضع جنودها الدروع على سيقانهم قد أصيبوا بقروح مؤلمة فى ظاهر القـــدم فقرر ڤارينيوس أن يخلعوا دروع السيقان وأن تعود إحدى العربات بالدروع إلى روما . ورأى ضباط هذه الكتائب الثلاث فى ذلك مساساً بشرفهم العسكرى وإهانة لرجالهم وأن فى الإمكان التغلب على هذه المشكلة بقليل من شحم القدم . فنزل ڤارينيوس على رغباتهم واضطروا نتيجة لذلك إلى ترك أكثر من مائة رجل فى كابوا لأنهم غير صالحين للخدمة ، بينما راحت عدة مئات غيرهم تعرج . ومع ذلك فالشعور العام هو أنهم سيكونون صالحين للاشتراك فى الحملة ضد العبيد .

(وجفل جراكوس عنـــدما سمع كلمة الحملة) . أما بالنسبة للحديث عن الثورة فكان من الواضح أن ڤارينيوس كان موزعا بين رغبته فى تقرير الحقائق بطريقة تهون من أمرها وبين الفرصة للتقدم والرقى . ومعنى هذا المبالغة فى وصفها وتضخيم أمرها . فحشر فى تقريره عبارة لباتياتوس تناول فيها أصل الثورة وأشار إلى ، أنه يبدو أن الثورة بقيادة من يدعى سبارتاكوس وهو تراقى وآخر غالى يدعى كريكوس ، والاثنان من المجالدين . ولكن كان من المستحيل معرفة عدد المقاتلين المشتركين فى الثورة من التقرير . ووصف ڤارينيوس بالتفصيل كيف أحرقت ثلاثة مزارع متباعدة ، وأن العبيد فى هذه المزارع كانوا غاية فى الولاء ، لسادتهم ، وكيف اضطر العبيد تحت التهديد بالقتل إلى الانضمام إلى العبيد الثائرين ، وأن كل من رفض قتلوه فى التو .

(وهز جراكوس رأسه موافقا . فهذه هى الطريقة الوحيدة لحسم الموقف) وحاول اثنان من أصحاب المزارع الاحتماء بكابوا ، لكن المجالدين قطعوا عليهما الطريق وذبحوهما واضطر عبيدهما إلى الانضمام إلى الثورة . وبالإضافة إلى هذا فقد فرت أعداد من عبيـــد المنطقة المتذمرين وانضموا إلى الثائرين . وأضاف ڤارينيوس قائمة طويلة بالأعمال الوحشية التى زعموا أن العبيد قد اقترفوها . وأرفق بتقريره ثلاثة إقرارات منفصلة جمعت وصودق عليها . وعددت هذه الإقرارات أعمالا وحشية أخرى زعموا أن العبيد قد اقترفوها .

وأنهى تقريره بأن قرر ، على قدر معرفته ، أن العبيد قد أقاموا مقر قيادتهم على سفح جبل فيزوف الصخرى الموحش ! وأنه ينوى أن يتقدم إلى هناك فى التو وينفذ مشيئة مجلس الشيوخ فيهم .

تلقى مجلس الشيوخ تقرير فارينيوس وقبله . وتقدم كذلك أحد الأعضاء بقرار أجازه مجلس الشيوخ يقضى بتقديم ثمانين عبدا من الفارين المقرر عقابهم بإرسالهم إلى المناجم لإعدامهم كرموز للعقاب ، كى يجد كل عبيد المدينة فى مصير زملائهم نذيرا ودرساً . وفى نفس اليوم صلبوا هؤلاء التسعين المساكين فى ساحة مكسيموس المستديرة فى فترة الاستراحة أثناء السباق ، وتدلى العبيد فوق صلبانهم بينما كان الجواد الأثير أريستونيز وهو مهر آسيوى رائع قد انطلق دون توقع على شاروس المهرة النوبية فتسبب بذلك فى إفلاس قسم كبير من هواة السباق فى روما .

لكن أخبار فارينيوس وكتائب حراسة المدينة انقطعت ستة أيام متوالية . وفى نهاية اليوم السادس وصل تقرير مقتضب يقول إن العبيد هزموا كتائب حراسة المدينة . كان تقريرا مقتضبا خاليا من الحقائق التى تدعمه ، فانتظر مجلس الشيوخ وانتظرت روما أربعة وعشرين ساعة يترقبون الأنباء مشدودى الأعصاب ، وتحدث كل إنسان عن ثورة العبيد الجديدة دون أن يعرف أحد شيء عنها ، ومع ذلك فقد ساد الخوف المدينة بأسرها .

وعقد مجلس الشيوخ اجتماعاً سرياً متكامل الأعضاء . وتجمعت الجماهير فى الخارج وظلت أعدادها تتزايد حتى امتلأ الميدان وسدت الشوارع المؤدية إليه . وانتشرت الشائعات فى كل مكان لأن مجلس الشيوخ كان يستمع فى تلك اللحظة إلى ما أصاب كتائب حراسة المدينة .

لم يخل من مقاعد المجلس إلا مقعد أو مقعدان . وقرر جراكوس ، وهو يتذكر ذلك الاجتماع ، أن مجلس الشيوخ يكون فى أبهى لحظاته فى مثل تلك اللحظات — لحظات الأزمة والمعرفة المريرة . كانت عيون الشيوخ الغارقين فى الصمت وفى عباءاتهم الرومانية مليئة بالاهتمام وإن لم يزعجها الخوف . بينما كانت وجوه من يصغرونهم سنا قاسية غاضبة لكنهم جميعاً كانوا يحسون إحساسا حادا بكرامة مجلس الشيوخ الرومانى . ومن ثم استطاع جراكوس أن يطفىء غلة سخريته المريرة فى ذلك المحيط. فهو يعرف هؤلاء الرجال ويعرف أية أساليب رخيصة فاسدة، اشتروا بها مقاعدهم،وأية ألاعيب سياسية قذرة لعبوها.وهو يعرف كل واحد منهم ، ويعرف كل أنواع القذارات التى يقيم عليها كل واحد منهم وكلهم حياته الخاصة .. ومع ذلك فقد كان يحس بهزة النشوة والكبرياء لوجوده بين صفوفهم .

إلا أنه لم يستطع فى تلك اللحظة أن يمضى فى تأمل انتصاره

الشخصى بوجوده بينهم لأن انتصاره الشخصى كان جزءا لا يتجزأ مما كانوا يواجهون . ومن هنا اختاروه ليكون مقرراً للمجلس فاضطر إلى أن يحمل همهم وأن يضع نصره الصغير جانبا . ووقف أمامهم يواجه الجنـــدى الرومانى الذى عاد من المعركة ، الجندى الرومانى الذى تربى ونشأ فى شوارع وطرقات المدينة ، لكنه يقف الآن ولأول مرة فى حياته أمام مجلس الشيوخ الموقر . كان رجلا نحيل الوجه أسود العينين وجلا خائفا تطرف إحدى عينيه ويلعق لسانه شفتيه فى قلق المرة بعد المرة . وكان ما زال مرتديا دروعه ، لا يحمل سلاحا كما هو الحال عندما يمثل المرء أمام مجلس الشيوخ ، حليقا ، غسل بعض أجزاء جسمه على الأقل وإن كانت تحيط بذراعه ضمادة مشربة بالدم ، وكان فوق ذلك بالغ التعب . وأقدم جراكوس على مالم يكن ليقدم عليه سواه . طلب قبل أن يبدأ توجيه الأسئلة الشكلية من أحـــد الأتباع أن يحضر نبيذا ويضعه على منضدة صغيرة إلى جانب الجندى ، فقد كان الرجل ضعيفاً ولم يرد جراكوس أن يقعى على ركبتيه مغشياً عليه فذلك لن يساعد فى شىء . وكان الرجل يمسك بين يديه القضيب العاجى الصغير الذى يحمله سفير مجلس الشيوخ ، القضيب الذى كان - إنهم لا يجرؤون على القول - أقوى فى سلطته من جيش غازٍ ، الذى كان يمثل السلاح والسلطان والقوة المركزة فى مجلس الشيوخ .

بدأ جراكوس بقوله :

— لك أن تعطينى إياه .

لم يفهم الجندى أول الأمر ما يعنيه فأخذ جراكوس القضيب من يديه ووضعه فوق المذبح وهو يشعر بحلقه يضيق وبالألم يعتصر قلبه . فهو يستطيع أن يكن الاحتقار للرجال نظرا لما جبلوا عليه من طبائع لكنه لا يستطيع أن يكن احتقاراً لهذا القضيب الصغير الذى يمثل كل ما تعنيه حياته من كرامة وقوة ومجد ، والذى سلموه لڤارينيوس منذ أيام قليلة ليس إلا .

ثم سأل الجندى :

— اسمك أولا .

— أرالوس بورتوس .

— بورتوس ؟

فأعاد الجندى قوله :

— أرالوس بورتوس .

وأحاط أحد أعضاء المجلس أذنه براحة يده وقال :

— ارفع صوتك ، ألا تستطيع أن ترفع صوتك ؟ أنا لا أسمعك .

فقال جراكوس :

— ارفع صوتك . لن يصيبك أذى هنا . أنت هنا فى القاعة المقدسة لمجلس الشيوخ وعليك أن تقول الصدق كاملا بحق الآلهة التى لا تموت . ارفع صوتك .

فأحنى الجندى رأسه موافقاً .

وقال جراكوس :

ـ خذ بعض النبيذ .

وراح الجندى يدير بصره من وجه إلى وجه ، إلى صفوف من الرجال الأغنياء الذين يرتدون ملابس بيضاء ، وإلى المقاعد الحجرية التى جلسوا عليها كتماثيل منحوتة ثم صب بيد مرتعدة كوبا من النبيذ وظل يصب حتى فاض الكوب وشربها دفعة واحدة ثم لعق شفتيه ثانية .

وسأله جراكوس .

ـ كم عمرك ؟

ـ خمس وعشرون عاما .

ـ وأين ولدت ؟

ـ هنا ـ فى المدينة .

ـ ألك تجارة ؟

فهز الرجل رأسه نفياً .

ـ أريد منك الإجابة على كل سؤال . أريد منك أن تجيب بلا أو نعم على الأقل . وإذا استطعت أن تجيب بمزيد من التفاصيل فافعل .

فقال الجندى :

ـ لا ، ليست لى تجارة غير الحرب .

ـ أية فصيلة كانت فصيلتك ؟

ـ فى الكتيبة الثالثة .

ـ وكم مضى عليك من الزمن وأنت جندى فى الكتيبة الثالثة ؟

ـ سنتان وشهران .

ـ وقبل ذلك ؟

ـ كنت أعيش على الإعانة الحكومية .

ـ ومن كان قائدك فى الكتيبة الثالثة ؟

ـ سيلفيوس كايوس سالفاريوس .

ـ ومن كان قائد فصيلتك ؟

ـ ماريوس جراكوس ألفيو .

ـ حسن جدا يا أرالوس بورتوس ، أريد منك الآن أن تقص على وعلى أعضاء المجلس الموقرين المجتمعين هنا كل ما حدث بالضبط بعد أن سارت كتيبتك والكتائب الخمس الأخرى جنوبا من كابوا. وعليك أن تقص على ماحدث بوضوح وبلااستطراد . لن تؤاخذك على شىء مماستقول ، ولن يحل بك أى أذى هنافى هذه القاعة المقدسة .

ومع ذلك فلم يكن من اليسير على الجندى أن يتحدث فى اتساق. أما بالنسبة لجراكوس فقد كانت ذكرى الصور القاسية المشؤمة التى أثارتها كلمات الجندى تعود إليه وهو يجلس فى شرفة فيلا سالاريا

فى ذلك الصباح الرقيق من أيام الربيع بعد الحادث بسنوات ، أكثر وضوحا من الكلمات نفسها ، لم يكن الجيش الذى تقدم جنوبا من كابوا تحت قيادة ڤاريتيوس جلابروس كثير البهجة أو الرضاء. فقد استحال الجو حارا فى غير موسمه فقاست كتائب حراسة المدينة الكثير نظرا لعدم اعتيادها على السير المتواصل. وعلى الرغم من أن أحمال الجندى كانت تقل عشرين رطلا عما يحمله جندى الفيالق أثناء السير . فقد ضاق الجنود بثقل الخوذة والدروع والترس والحربة والسيف . وتقرحت أجسادهم فى الأماكن التى كانت أطراف المعدن الساخن تحك فيها لحم أجسادهم، وتبين لهم أن أحذية الاستعراضات الرقيقة الجميلة التى كانوا يتيهون بها وهم يخطرون جيئة وذهابا فى ساحة مكسيموس المستديرة أقل نفعاً فى السير على الطريق وفى ميدان القتال . وأغرقتهم شآبيب المطر التى هطلت بعد الظهر، فما إن جاء المساء حتى كانت المرارة والاكتئاب قد أخذا بخناقهم .

كان فى استطاعة جراكوس أن يتصورهم أحسن التصور ، الطابور الطويل من الجنود ، وقد خرجوا عن الطريق الأبيوسى وراحوا يمشون فى تثـــاقل فيما تخلفه العربات من دروب قذرة والريش المبلل يتدلى من خوذاتهم النحاسية ، وقد أسكت الشعور بالتعب كل شىء فيهم حتى الرغبة فى الشكوى . كان ذلك الوقت تقريبا هو الذى أمسكوا فيه بأربعة من عبيد الحقول وقتلوهم ـ

ثلاثة رجال وامرأة .

فقاطعه جراكوس قائلا :

ـ ولماذا قتلتموهم ؟

ـ كنا نحس أن كل عبد فى ذلك الجزء من البلد ضدنا .

ـ لو أنهم كانوا ضدكم ، لماذا كانوا ينزلون من سفوح الجبال إلى الطريق ليرقبوا الطوابير وهى تسير ؟

ـ لا أدرى . كانت الكتيبة الثانية هى التى فعلت ذلك . خرجوا من الصفوف وأمسكوا بالمرأة . وحاول الرجال حمايتها فطعنوهم بالحراب . لم يستغرق ذلك إلا دقيقة ثم مات الرجال . وعندما وصلت إلى هناك ـ

فسأله جراكوس قائلا

ـ أتعنى أن فصيلتك خرجت من الصفوف هى الأخرى ؟

ـ أجل يا سيدى . الجيش بأسره . تزاحمنا حولها ـ كل من استطاع منا الاقتراب مما كان يدور .

فقاطعه جراكوس :

ـ لا حاجة بك إلى الخوض فى تفاصيل ذلك . هل تدخل ضباطكم فى الموضوع ؟

ـ كلا يا سيدى .

- أتعنى أنهم سمحوا بالاستمرار فى ذلك دون تدخل من جانبهم ؟
فتوقف الجندى لحظة دون أن يجيب .

- أريدك أن تصدق فى إجابتك ولا أريدك أن تخاف من الصدق فى الإجابة .

- لم يتدخل الضباط .

- وكيف قتلت المرأة ؟

فاستجاب الجندى لدعوته فى صوت خفيض وقال :

- ماتت مما كانوا يفعلونه بها .

عند ذاك اضطروا إلى مطالبته من جديد بأن يرفع من صوته فقد كاد صوته يتلاشى تماماً .

وقص عليهم كيف عسكروا فى تلك الليلة . لم تنصب كتيبتان حتى خيامهما فقد كانت الليلة دافئة ونام الجنود فى حقل فى العراء .
هنا قوطع حديث الجندى :

— هل حاول قائدكم أن يقيم معسكرا محصنا ؟ هل تعرف ما إذا كان قد فعل أم لم يفعل ؟

وكان مما يفخر به الجيش الرومانى أن الفيلق لا يعسكر فى أى مكان ولو لليلة واحدة دون أن يقيم معسكراً محصنا محاطا بسياج من الأعمدة الخشبية ، أو بحائط يقام ، وبخندق وبأوتاد ، ويقام كقلعة صغيرة أو مدينة .

ـ أنا أعرف ما قاله الرجال .

ـ قل لنا ذلك .

ـ قالوا إن ڤاريڤيوس جلابروس كان يريد ذلك لكن قادة الفصائل قاوموا رغبته . وقال الرجال إنه حتى لو أنهم وافقوا كلهم فلم يكن معنا مهندسون وأن الحملة بأسرها لم تصمم على أساس من الفهم أو المعقولية . وقالوا ـ أرجو المجلس الموقر .

ـ قل لنا ما قالوه دون خوف .

ـ أجل : قالوا أن الطريقة التي نظمت بها الحملة خلت من المعنى والإدراك . لكن الضباط تجادلوا حول أن حفنة من العبيد لم تكن تمثل أى خطر عليهم . وكان الليل قد بدأ ينزل فعلا وكانت حجة الضباط ، كما سمعتها ، أنه إذا كان ڤاريڤيوس جلابروس يريد معسكراً محصناً، فلماذا جعلنا نواصل السير حتى الغسق؟ وكان الجنود بدورهم يرددون نفس الكلام . وكان ذلك أسوأ جزء قطعناه من الرحلة كلها . فقد مشينا أولا على الطرق المتربة واختنقنا بالتراب إلى حد أننا لم نستطع التنفس، ثم مشينا بعد ذلك تحت المطر المنهمر . ولم يكن ذلك ليضير الضباط فى شىء ، كما قال الجنود ، إذ كانوا يركبون جيادهم ، أما نحن فقد كنا مضطرين إلى المشى . لكن الجدال كان حول أنه مادامت العربات معنا ، وتحمل عنا متاعنا ، وما دامت العربات موجودة، فيجب أن نقطع أكبر مسافة ممكنة .

- وأين كنتم حينذاك ؟

- ملاصقين للجبل .

نعم كان استرجاع الحادث فى الصور التى أثارها حديث الجندى خيراً منه فى الكلمات التافهة التى أدلى بها الجندى الخائف عديم الخيال الذى كان يدلى بشهادته . وكان بعض هذه الصور من الوضوح فى ذهن جراكوس إلى حد أنه يكاد يعتقد أنه رآها مرأى العين . الطريق القذر وهو يضيق حتى يصبح مجرد درب للعربات ، والحقول الجميلة والمراعى فى الضيعات وهى تنتهى لتبدأ الغابات المتشابكة، وشظايا الصخور النارية المقفرة المحيطة بفوهة البركان، ويسمو فوق كل هذا جبل ڤيزوف فى عظمته المتأملة . وانتظمت الكتائب الست على طول ميل من الطريق . وراحت عربات المتاع تتمايل مترنحة فى الأخاديد والرجال ساخطون متعبون . وعندذاك لاحت أمامهم حافة كبيرة من الصخر ومن تحتها حقل صغير منبسط يجرى فيه جدول من الماء وتكسوه الشقائق الصفراء والأقاح والحشيش الناعم والليل فى طريقه إلى النزول .

هناك أقاموا معسكرهم ونزل ڤارينيوس على رأى الضباط فيما يختص بمسألة التحصينات . وذلك أيضا كان جراكوس يستطيع أن يتصوره . سيقول قادة الفصائل إنهم كانوا يقودون أكثر من ثلاثة آلاف من الجنود الرومانيين المثقلين بالأسلحة . ولم يكن

هناك أى احتمال للهجوم . كما لم يكن هناك أى خطر من الهجوم ، فقد كان عدد المجالدين ، حتى عند بداية الثورة ، مائتين أو حول ذلك ليس إلا ، وقد قتل الكثير من هؤلاء . وكان الرجال شديدى التعب فرقد بعضهم على الحشائش وسرعان ما ناموا . ونصبت فصائل قليلة الخيام وحاولت أن تشق الطرق بين خيام الفصائل بطريقة منظمة . وأشعلت معظم الفصائل النيران للطهى ، إلا أن بعضها استغنى حتى عن ذلك نظراً لوجود كميات كبيرة من الخبز فى عربات الأمتعة . هكذا كانت صورة المعسكر الذى أقيم فى ظل الجبل . ونصب ڤارينيوس خيمته فى وسط المعسكر تماما . وهناك عقد لواءه والبيرق الذى يمثل مجلس الشيوخ . وكان سكان كاپوا قد أعدوا لهم سلالا كبيرة من أطايب الطعام الجميلة الطهى لابد أنه جلس مع ضباطه العظام ليأكلوها . ولعله كان قد استراح إذ لم يعد مضطراً إلى القيام بعملية بناء الاستحكامات الشاقة . وبعد فليست هذه بأسوأ حملة فى العالم فهى إن كان فيها تشريف له فمن المحتمل ألا يكون فيها إلا القليل من المجد ، وما هى إلا مسيرة أيام قليلة من المدينة الكبيرة .

وهكذا راح جراكوس يتصور ويسترجع الصور التى كونت البداية فى ذاكرته ، معتمدا فى ذلك على بصيرته الباطنة التى ترفعه عن مستوى الحيوان وتفصل بينه وبين الحيوان . فالذاكرة متعة

للبشرية ومصدر أسى لها . جلس جراكوس ممدد الأطراف فى الشمس ينظر إلى كوب ماء الصباح وهو ممسك به فى يده ، ويصغى إلى الصدى البعيد لجندى تعس عاد يحمل فى يده القضيب العاجى الذى يحمله السفير وجاءته الصور . كيف يكون حال من يتربص بهم الموت بعد ساعات قليلة وهم لا يعرفون ؟ هل سمع ڤارينيوس جلابروس باسم سبارتاكوس قط ؟ ربما لا .

وقال الجندى لأعضاء المجلس ذوى الوجوه المتحجرة :

— أذكر كيف نزل الليل وسطعت كل النجوم فى السماء .

الجمال البسيط فى حديث بجندى أحمق . نزل الليل ولابد أن ڤارينيوس جلابروس جلس هو وضباطه فى فسطاطه الكبير يشربون النبيذ ويأكلون بنات اللحم من صغار الحمام المطهو بالعسل . ولابد أن حديثاً شائقاً قد دار فى تلك الليلة ، حديثاً بارعا ، فتلك مجموعة من السادة الشبان من أكثر المجتمعات التى شهدها العالم تحضراً . علام تراهم قد تحدثوا ؟ حاول جراكوس أن يتذكر اليوم ، وبعد سنوات أربع ، ما كان شائعاً فى ذلك الوقت ـ فى المسرح ، فى ميادين السباق ، وفى ساحات القتال . ألم يكن ذلك بعد الإخراج الجديد لمسرحية باكوفيوس « اللعب بالسلاح » مباشرة ؟ ألم يغنى فلاڤيوس جاليس الدور الرئيسى كما لم يغنه أحد من قبل ؟ (أم هل كان ذلك مجرد تخيل كما هى العادة ، أن يقال إن المغنى أو الممثل

قام بغناء أو تمثيل الدور كما لم يغنه أو يمثله أحد من قبل ؟) ومع ذلك فمن المحتمل أن يكون ذلك صحيحاً . ولعل الشباب من كتائب حراسة المدينة قد رفعوا عقيرتهم وهم يشربون النبيذ ويغنون .

« هؤلاء يجب أن يخافوا ضياع الروح المصونة مثلما يجب أن أخاف » .

ويمضون فى الغناء وأصواتهم مسموعة فى أنحاء المعسكر - من المحتمل أن يكون ذلك قد حدث فالذاكرة أمر خيال . لا بد أن التعب قد ساد كل أنحاء ذلك المعسكر . فرقد رجال كتائب حراسة المدينة الذين لم ينصبوا خياما على ظهورهم يمضغون العيش وينظرون إلى النجوم . وهكذا غشيهم النوم ، غشى النوم الرقيق جنود روما البالغ عددهم ثلاثة آلاف وعدة مئات الذين تقدموا جنوبا إلى جبل فيزوف ليعلموا العبيد أن العبيد يجب ألا يرفعوا أيديهم ضد ساداتهم .

كان جراكوس مقرر المجلس ومهمته أن يوجه الأسئلة ، وكان يرين على قاعة مجلس الشيوخ فى فترات الصمت التى تخللت إجابات الجندى ، صمت يكاد المرء أن يسمع لفرطه أجنحة الذبابة وهى تحتك بالهواء .

وسأله جراكوس :

— وهل نمت أنت ؟

فأجابه الجندى الوحيد المذعور الذى عاد ليدلى بشهادته :

ـ أنا نمت .

ـ وما الذى أيقظك ؟

وهنا جاهد الجندى من أجل الكلام وأضحى وجهه شديد البياض . وظن جراكوس أنه سيقع مغشياً عليه لكنه لم يغم عليه. وهنا أصبح تقريره دقيقاً واضحاً ولكنه خال من العاطفة . وهذا ما قال إنه حدث كما رآه .

ـ نمت . ثم استيقظت لأنه كان هناك إنسان يصرخ . ظننت أن رجلا واحداً على الأقل هو الذى كان يصرخ ، لكننى أدركت عندما استيقظت أن الهواء كان مليئاً بصراخ كثير من الرجال . وكان الهواء مليئا به . استيقظت واستدرت فى الحال لأنى أنام على بطنى ولهذا استدرت . وكان ينام إلى جانبى كاليوس الذى لا يحمل إلا اسما واحداً لأنه يتيم من أبناء الشوارع ، لكنه كان أقرب وأصدق صديق لى . وكان ذراعى الأيمن ولهذا كنا ننام جنبا إلى جنب . وعندما استدرت غاص رسغى الأيمن فى شىء مبلل ساخن وناعم الملمس وعندما نظرت تبين لى أنه عنق كاليوس ، لكن العنق كان مقطوعا قطعاً كاملا . وظلت تلك الصرخة تتردد طيلة الوقت . ثم وجدت نفسى أجلس فى بركة من الدماء . ولم أدر هل كانت تلك الدماء دمائى أم دماء غيرى ، لكن جثث الموتى كانت تحيط بى من كل جانب فى ضوء القمر حيث نام أصحابها . وكان

المعسكر بأسره مليئاً بعبيد مسلحين بمدى فى حدة الموسى، والمدى تعلو وتهبط مرسلة وميضها فى ضوء القمر. وبهذه الطريقة قتلونا، قتلوا نصفنا وهم نيام. وعندما كان رجل يقفز واقفا على قدميه كانوا يقتلونه هو الآخر. وتجمع قليل من الجنود هنا وهناك فى جماعات صغيرة لكنهم ما كانوا ليقاتلوا طويلا. كان ذلك أبشع شيء رأيته فى حياتى إلا أن العبيد لم يتوقفوا عن القتل لحظة واحدة. ثم فقدت صوابى وبدأت أصرخ أنا الآخر . ولا أجد خجلا فى التصريح بذلك. وجردت سيفى واندفعت داخل المعسكر وأهويت بسيفى على عبد وقتلته فيما أعتقد، لكنى عندما وصلت إلى طرف المرج واجهت صفا حديديا من الحراب كان يحيط بالمعسكر من كل جوانبه. وكانت غالبية حملة الحراب من النساء. لكنهن لم يكن نساء مثل من رأيت أو حلمت بهن، إنما كن أشياء رهيبة متوحشة تتطاير شعورهن فى ريح الليل وأفواههن مفتوحة تصدر صيحة كراهية رهيبة. كان هذا جزءاً من الصراخ. واندفع من جانبى جندى وألقى بنفسه على الحراب فانغرست فيه لأنه لم يكن يظن أن النساء سيطعنه بالحراب، لكنهن طعنه. ولم يهرب إنسان من ذلك المكان. وعندما كان الجرحى يزحفون قادمين كن يغرسن الحراب فيهم هم الآخرين. جريت حتى وصلت إلى الصف فغرسن حربة فى ذراعى فانتزعتها وعدت أجرى إلى المعسكر ثم سقطت فى الدماء ورقدت فيها. رقدت فيها وذلك الصراخ يملأ أذنى.

ولا أدرى كم من الوقت رقدت هناك . لكن ذلك لم يبد لى طويلا جدا . قلت لنفسى انهض وقاتل ومت ، لكنى انتظرت . ثم تناقص الصراخ وأمسكت بى أياد وأوقفتنى على قدمى ، وفكرت فى أن أضربهم بسيفى ، لكنهم أوقعوا به من يدى . ولم تكن يدى لتقوى على ذلك نتيجة للألم الذى سببه جرح الحربة . أمسك بى العبيد وارتفع سكين ليقطع عنقى فأدركت عند ذاك أن كل شىء قد انتهى وأنى سأموت أنا الآخر . لكن شخصاً صاح قائلا . انتظر . فانتظر السكين . انتظر على بعد بوصة من عنقى . ثم خطا عبد قادما وكان يحمل بدوره سكيناً تراقياً فى يده وقال لهم . انتظروا . أظنه الوحيد الباقى . فوقفوا هناك وانتظروا . وتعلقت حياتى منتظرة . ثم جاء عبد أحمر الشعر وراحا يتحدثان وهما يذرعان المكان جيئة وذهابا . كنت أنا الوحيد الباقى على قيد الحياة ولذلك لم يقتلونى . كنت أنا الوحيد الباقى على قيد الحياة أما الباقى فقد ماتوا كلهم ، وأخذونى عبر المعسكر وكانت الكتائب كلها قتلى . ماتت غالبيتهم حيث كانوا ينامون . لم يستيقظوا قط . أخذونى إلى فسطاط فارينيوس جلابروس سفير المجلس ، لكن السفير كان ميتا . كان يرقد على سريره ميتا . وكان فى الفسطاط بعض من ضباط الكتائب وفيها قتلوا . كلهم موتى . ثم ضمدوا لى جرح ذراعى وتركونى هناك فى حراسة بعض العبيد . فى ذلك الوقت استحالت السماء رمادية اللون وبدأ الفجر يقترب ، لكن الكتائب كانت كلها قتلى .

قال الجندى هذا دون انفعال وفى أسلوب روائى مباشر واقعى، لكن عينه ظلت تطرف طيلة الوقت ولم يتطلع قط إلى صفوف أعضاء مجلس الشيوخ الذين جلسوا وقد تحجرت منهم الوجوه.

— وسأله جراكوس قائلا :

— وكيف عرفت أن كلهم قد ماتوا ؟

حجزونى فى الفسطاط حتى طلع الفجر، وكانت جوانب الفسطاط مطوية مرفوعة فاستطعت أن أرى كافة أنحاء ساحة استراحة الجنود. كان الصراخ قد توقف عند ذاك لكنى كنت ما أزال أسمعه يتردد داخل رأسى . كان فى استطاعتى أن أتطلع فيما حولى وأينما نظرت كان الموتى يرقدون على الأرض . وكانت رائحة الدم والموت تملأ الجو . وكانت غالبية النساء اللاتى كن يكون دائرة الحراب قد اختفين عند ذاك . ذهبن إلى مكان ما . لا أدرى أين ذهبن لكنى استطعت أن أميز رائحة الشواء من خلال رائحة الدم . لعل النساء كن يطهين اللحم لطعام الإفطار . وجعلنى التفكير فى أن من الناس من يستطيع أن يأكل حينذاك أشعر بالغثيان فتقيأت . وجرنى العبيد إلى خارج الفسطاط حتى فرغت من القىء . كانت الدنيا تزداد نورا عند ذاك فشاهدت جماعات من العبيد تخترق المعسكر، كانوا ينزعون عن الموتى ما يحملون . ونشروا خيامنا على الأرض هنا وهناك . واستطعت أن أرى تلك المساحات البيضاء تنتشر

على الأرض فى كل أنحاء المكان . أخذوا كل ما كان الموتى يرتدون، الدروع والملابس والأحذية وكوموها فى الخيام المنشورة على الأرض . وغسلوا السيوف والحراب والدروع فى مياه الجدول ، وكان الجدول يجرى قريبا من الفسطاط فاستحالت مياهه إلى لون الصدأ من مجرد غسل الأسلحة الملوثة بالدماء والدروع فى مياهه . وأخذوا أوعية الشحم التى كنا نحملها معنا وراحوا يدهنونها بالشحم بعد أن جففوها . وكانت إحدى الخيام منشورة على بعد خطوات من الفسطاط ، على هذه الخيمة المنشورة رصوا السيوف ، آلاف من السيوف .

وسأله جراكوس :

— كم كان عدد العبيد ؟

— سبعمائة ، ثمانمائة - ربما ألف ، لست أدرى ، كانوا يعملون فى جماعات من عشرات . وكانوا يعملون بهمة كبيرة . وأسرج بعضهم عرباتنا التى كانت تحمل الأمتعة وحملوها بما انتزعوه عن جثث الموتى وساقوها أمامهم . وبينما هم يعملون عاد بعض النسوة يحملن سلالا من اللحم المشوى فكانت الجماعات تتوقف عن العمل واحدة فواحدة لتأكل . وأكلوا أنصبتنا من الخبز كذلك .

— وماذا فعلوا بالموتى ؟

— لا شىء ، تركوهم حيث كانوا يرقدون ، وكانوا يتجولون فى

أنحاء المكان كما لو كان الموتى غير موجودين هناك على الإطلاق بعد أن فرغوا من نزع كل شيء عنهم . وكان الموتى فى كل مكان. كانوا يغطون الأرض ، وكانت الأرض مشربة بالدماء . وكانت الشمس قد طلعت حينذاك فكان ذلك أسوأ ماشاهدت فى حياتى. استطعت عند ذاك أن أرى جماعة من العبيد تقف على أحد جوانب الحقل ترقب ما يدور ، كانت الجماعة مكونة من ستة أحدهم أسود ، إفريقى . كانو من المجالدين .

— وكيف عرفت ؟

— لأنى استطعت أن أتبين عندما جاءوا إلى الفسطاط ، حيث كنت ، إنهم مجالدون . فقد كانت رءوسهم محلوقة بالموسى وكانت آثار الجروح تنتشر فى كل مكان من أجسادهم . وليس من العسير أن تتعرف على المجالد ، وكانت أذن واحد منهم مقطوعة ولآخر شعر أحمر . لكن قائد الجماعة كان تراقيا له أنف مكسور وعينان سوداوان تنظران إليك دون أن تتحركا أو تطرفا .

عند ذاك طرأ تغيير على أعضاء مجلس الشيوخ ، تغيير يكاد يكون غير محسوس لكنه موجود مع ذلك . فقد أخذوا يصغون بطريقة جديدة ، كانوا يصغون فى كراهية وتوتر وعنف زائد . جراكوس يذكر تلك اللحظة جيدا فقد كانت هى اللحظة التى برز فيها سبارتاكوس إلى الوجود ، خرج إلى الوجود من لا مكان

ليهز العالم بأسره . لغيره من الرجال جذور وماض وبداية ومكان وأرض وبلد — أما سبارتاكوس فلم يكن له شيء من ذلك . فقد ولد على شفتي جندي عاش بعد المعركة ودبر سبارتاكوس بقاءه لهذا الغرض بالذات — أن يعود إلى مجلس الشيوخ ليصفه لهم ويعدد صفاته ، إنه ليس عملاقا وليس وحشا ، وليس رهيبا إنما مجرد عبد ، لكن الجنـــدي كان قد شاهد شيئا يحسن أن تذكره بالتفصيل .

— وذكرني وجهه بالأغنام . كان يرتدي مئزرا وحزاما ثقيلا من النحاس اللامع وحذاء طويل العنق . لكنه لم يكن يرتدي دروعا أو خوذة . وكان يحمل في حزامه سكينا كانت هي كل ما يحمل من سلاح . وكانت الدماء تتناثر فوق مئزره . كان وجهه من النوع الذي لا تنساه ، وحملني مظهره على الخوف منه بينما لم أشعر بالخوف من الآخرين ، لكني خفت منه .

وكان من المحتمل أن يحدثهم الجندي عن مشاهدته لذلك الوجه في أحلامه وقيامه من نومه مغطى بالعرق البارد ، لمشاهدته ذلك الوجه المسطح الملوح ذا الأنف المكسور والأعين السوداء ، لكن لم تكن هذه التفاصيل لمعلوماته بالتي تقدم لمجلس الشيوخ فلم يكن المجلس ليهتم بأحلامه .

— وكيف عرفت أنه تراقي ؟

ــ ميزته من لهجته . فقد كانت لغته اللاتينية رديئة ، وقد سمعت التراقيين يتكلمون . وكان واحد من الآخرين تراقيا ــ وربما كان الباقون من بلاد الغال . ونظروا إلى مجرد نظرة ، مجرد نظرة سريعة جعلتني أشعر أني ميت مع الآخرين . نظروا إلى نظرة سريعة ومروا من أمامي إلى الجزء الآخر من الفسطاط . كانت جثث الموتى قد أخرجت عند ذاك من الفسطاط وألقيت فى الخارج مع بقية جثث الجنود ، لكنهم كانوا قبل ذلك قد نزعوا كل شىء عن فارينيوس جلا بروس وعروه وكوموا كل دروعه وكل ما كان له على أريكته وكانت شارة سفارته على الأريكة كذلك . وعاد العبيد وتجمعوا حول الأريكة يتطلعون إلى الدروع ومقتنيات القائد . والتقطوا السيف وفحصوه ومرروه فيما بينهم . كان له مقبض من العاج تغطيه الصور المحفورة على العاج . تطلعوا إليه ثم ألقوا به على الأريكة مرة ثانية . ثم فحصوا شارة السفارة . ثم استدار لى الرجل ذو الأنف المكسور ــ واسمه سبارتا كوس ــ ورفع شارة السفارة فى يده وسألنى قائلا . « أيها الرومانى أتعرف ما هذه ؟ » فأجبتهم قائلا .

ــ إنها سلاح بمجلس الشيوخ الموقر .

لكنهم لم يدركوا ما أعنيه . فاضطررت إلى أن أفسر لهم . وجلس سبارتا كوس والغالى ذو الشعر الأحمر على الأريكة بينما ظل الباقون وقوفا . ووضع سبارتا كوس ذقنه بين يديه ومرفقيه

على ركبتيه وظل مثبتا عينيه على . أحسست ما يحسه المرء عندما ينظر إليه ثعبان . وعندما فرغت من كلامى لم يقولوا شيئا وظل سبارتاكوس على تحديقه ؟ . واستطعت أن أشعر بالعرق يتدفق فوق كل أنحاء جلدى . ظننت أنهم سيقتلوننى . ثم عرفنى باسمه . قال :

« اسمى سبارتاكوس . اذكر اسمى أيها الرومانى » .

ثم أخذوا يحدقون ؟ من جديد .

ثم قال سبارتاكوس .

« لماذا قتلتم العبيد الثلاثة بالأمس يارومانى ؟ لم يؤذكم العبيد . لقد هبطوا السفح ليشاهدوا الجنود وهى تمر . وهل كل نساء روما من العفة إلى حد أن يضطر فيلق كامل إلى اغتصاب أمة واحدة مسكينة . لماذا فعلتم ذلك يارومانى ؟ » .

حاولت أن أروى له ما حدث . قلت له إن الكتيبة الثانية هى التى اغتصبتها وقتلت العبيد . وقلت له إنى كنت فى الكتيبة الثالثة وإنه لم يكن لى يد فى الأمر وإنى لم أغتصب المرأة . ولا أدرى كيف عرفوا بذلك الأمر لأنه لم يبد أنه كان هناك إنسان غيرنا عندما قتلوا العبيد الثلاثة . لكنهم كانوا يعرفون كل شيء عملناه . عرفوا متى وصلنا إلى كاپوا وعرفوا متى بارحناها . كان كل ذلك واضحا فى عينيه السوداوين كعينى الثعبان اللتين لا تطرفان أبدا . كان كل ذلك واضحا فى صوته . ولم يكن يرفع صوته أبدا فقد

تحدث إلى كما يتحدث المرء إلى طفل لكنه لم يكن يخدعنى بالحديث إلى بتلك الطريقة . كان قاتلا . كانت عيناه تنطقان بذلك . كانت عيونهم كلهم تنطق بذلك ، إنهم كلهم قتلة . أنا أعرف مجالدين من هذا النوع . فالمجالدون يصبحون قتلة . ولا يستطيع أحد غير المجالدين أن يقتل بتلك الطريقة التى قتلوا بها فى تلك الليلة . أنا أعرف مجالدين هم . . .

فقاطعه جرا كوس . فقد كان الجندى واقعا تحت سحر حديثه الشخصى كرجل فى غيبوبة . قال له جرا كوس فى قليل من الحدة

— لا يهمنا ما تعرفه يا جندى . إنما يهمنا ما دار بينك وبين العبيد.

فبدأ الجندى يقول :

حدث هذا . . .

— ثم توقف وعاد إلى يقظته وراح يتطلع إلى وجوه أعضاء مجلس شيوخ روما العظيمة وجها بعد وجه . ثم ارتعد وقال :

— ثم انتظرت أن يعرفونى بما ينوونه بالنسبة لى . فقد جلس سبارتا كوس هناك وهو يمسك بشارة السفارة بين يديه وراح يمرر أصابعه عليها بطولها ثم دفعها إلى فجأة فلم أدرك أول الأمر ما يعنيه أو ما يريده . ثم قال :

« خذها يا جندى . خذها يا رومانى ، خذها »

فأخذتها . وقال :

« أنت الآن سفير مجلس الشيوخ الموقر »

ولم يكن يبدو عليه الغضب . ولم يرفع صوته قط . إنما كان يقرر مجرد حقيقة — أقصد أنها كانت حقيقة بالنسبة له . كان ذلك ما يبغيه ولم يكن فى استطاعتى أن أعمل شيئا وإلا لآثرت الموت على أن أمس القضيب المقدس . ما كنت لألمسه فأنا رومانى، أنا مواطن —

فقال جراكوس :

— لن تعاقب على ذلك . أكمل

— قال سبارتاكوس مرة ثانية :

« أنت الآن سفير مجلس الشيوخ الموقر . وللمجلس الموقر ذراع طويل وكل ما تبقى على طرفه الآن هو أنت »

فأخذت القضيب وأمسكت به وظل هو جالسا هناك وعيناه مثبتتان على ثم سألنى قائلا :

« هل أنت مواطن حر يارومانى ؟ »

فأجبته بأنى مواطن ، فهز رأسه وابتسم ابتسامة واهنة ثم قال : « أنت الآن سفير ، سأحملك رسالة . احملها إلى مجلس الشيوخ الموقر - احملها إليهم كما أمليها عليك كلمة كلمة » .

ثم توقف الجندى عن الكلام وانتظر مجلس الشيوخ وانتظر جراكوس كذلك . لم يرد أن يطلب منه رسالة عبد ، ومع ذلك فلابد للرسالة أن تقال . لقد خرج سبارتاكوس من لا مكان -

لكنه الآن يقف وسط قاعة مجلس الشيوخ . ورآه جراكوس عندذاك كما رآه مرات عديدة فيما بعد حتى وإن كان لم ير سبارتاكوس بلحمه ودمه حياً قط .

وفى النهاية أمر جراكوس الجندى أن يتكلم .

ــ لا أقدر

ــ مجلس الشيوخ يأمرك أن تتكلم

ــ كانت هذه كلمات عبد . ليجف لسانى قبل ـ

فقال جراكوس :

ــ كفاك . قل لنا ما قاله لك هذا العبد لتحمله إلينا

فنطق الجندى بكلمات سبارتاكوس . كان هذا ماقاله له سبارتاكوس بقدر مايستطيع جراكوس أن يتذكر بعد كل هذه السنين . وكون جراكوس لنفسه ، وهو يتذكر ، صورة لما كان لا بد أن يكون عليه الفسطاط ، الفسطاط الكبير لقائد رومانى بما فيه من شرائط زاهية زرقاء وصفراء وهو مقام وسط ذلك الحقل المغطى بجثث القتلى العارية ، والعبد سبارتاكوس يجلس على أريكة القائد وأركان حربه من المجالدين يتجمعون من حوله ويقف أمامه الجندى الرومانى الجريح المذعور ، الوحيد الباقى على قيد الحياة وقد أمسك به عبدان ، وهو يمسك بدوره القضيب الرقيق

الذى يمثل القوة ، شارة السفارة ، درع مجلس الشيوخ .

ـــ قال سبارتاكوس

« عد إلى مجلس الشيوخ واعطهم القضيب العاجى . لقد اخترتك سفيرا . عد وارو لهم ما شاهدته هنا . قل لهم إنهم أرسلوا كتائبهم ضدنا وإننا قد حطمنا كتائبهم . قل لهم إننا عبيد ـ ما يسمونهم الآلة الناطقة . الآلة ذات الصوت . ارو لهم ما تقوله أصواتنا ، نحن نقول إن العالم قد ضاق بوجودهم ، ضاق بمجلس شيوخكم العفن وبروماكم العفنة . العالم قد ضاق بالثروة والفخفخة اللتين اعتصرتموهما من دمائنا وعظامنا . العالم قد سئم أنشودة السوط فهى الأنشودة الوحيدة التى يعرفها الرومان النبلاء لكننا لا نرغب فى سماع تلك الأنشودة بعد الآن . كان الرجال سواء فى البداية وعاشوا فى سلام وتقاسموا فيما بينهم ما كانوا يملكون ، أما اليوم فيوجد نوعان من الرجال : السيد والعبد . لكن أعدادنا أكثر من أعدادكم ، أكثر بكثير . ونحن أقوى منكم وأفضل منكم . كل ما هو طيب وخير فى البشر موجود فينا . فنحن ندلل نساءنا ونقف إلى جانبهن ونحارب معهم جنبا إلى جنب . أما أنتم فتجعلون من نسائكم عاهرات ومن نسائنا ماشية . نحن نبكى عندما تنتزع أطفالنا من أحضاننا ونخفى أطفالنا بين الأغنام لنستطيع أن نحتفظ بهم وقتا أطول قليلا ـ لكنكم تربون أطفالكم كما لو كنتم تربون ماشية . أنتم تنجبون الأطفال من نسائنا وتبيعونهم فى سوق العبيد لمن يدفع أغلى ثمن : وتجعلون من

الرجال كلابا وتبعثون بهم إلى ساحات القتال ليمزقوا أنفسهم إربا كيما تبتهجون . وبينما ترقبنا نساؤكم الرومانيات النبيلات والواحد منا يقتل الآخر ، يدللن الكلاب فى حجورهن ويطعمنها اللقمة السائغة الغالية . أى جماعة فاسدة أنتم وإلى أى فوضى قذرة قد أحلتم الحياة . جعلتم من كل ما يحلم به البشر ومن كل ما تنتجه أيدى البشر ومن عرق جباه البشر مادة للسخرية . يعيش مواطنوكم على الصدقة ويمضون أيامهم فى ميادين السباق وساحات القتال . قلبتم الحياة الإنسانية سخرية وسلبتموها كل قيمتها . أنتم تقتلون حبا فى القتل ومتعتكم الرقيقة هى رؤية الدم يتدفق . تزجون بالأطفال الصغار فى مناجمكم وترهقونهم بالعمل حتى يموتوا فى أشهر قليلة . وشيدتم عظمتكم على سرقة العالم بأسره . حسن . لقد انتهى هذا . قل لمجلس شيوخكم إن كل هذا قد انتهى . هذا هو صوت الآلة . قل لمجلس شيوخكم أن يبعث بقواته لقتالنا وسندمر هذه الجيوش كما دمرنا هذا الجيش ، وسنسلح أنفسنا بأسلحة الجيوش التى ستبعثون بها إلينا . سيسمع العالم بأسره صوت الآلة ـ وسنصيح بعبيد العالم أن هبوا وانزعوا عنكم أغلالكم . سنتقدم فى كل إيطاليا . وأينما ذهبنا سينضم إلينا العبيد . وفى يوم من الأيام سنهاجم مدينتكم الخالدة ولن تبقى خالدة حينذاك . قل هذا لمجلس شيوخكم .

قل لهم إننا سنخطرهم بموعد قدومنا ، وعند ذاك سنحطم جدران روما . ثم سنذهب إلى البيت الذى يجتمع فيه مجلس شيوخكم

وسننزعهم من مقاعدهم العالية صاحبة السلطان .وسننزع عنهم ثيابهم كى يقفوا عراة وهم يحاكمون كما حوكمنا نحن على الدوام . لكننا سنتحرى العدالة فى محاكمتهم وسننفذ فيهم العدالة كاملة . سيحاكمون على كل جريمة ارتكبوها، وسيؤدون عنها الحساب كاملا . قل لهم هــــذا حتى يتاح لهم الوقت ليتأهبوا وليدرسوا أنفسهم ، فسندعوهم لأداء الشهادة . ونحن نستمتع بذاكرة ليست سريعة النسيان . وعندما تتحقق العدالة سنقيم مدنا أفضل ، مدنا نظيفة جميلة بلا جدران - يعيش فيها البشر معا فى سلام وسعادة . هذه كل رسالتى إلى مجلس الشيوخ . احملها إليهم وقل لهم إنها من عبد يدعى سبارتاكوس » .

هكذا نقل الجندى الرسالة ، أو هكذا كانت بالتقريب فقد حدث ذلك من زمن بعيد ، كما تذكر جراكوس ، وهكذا سمعها أعضاء مجلس الشيوخ ووجوههم كالحجر . لكن ذلك حدث منذ زمن بعيد ، حدث ذلك منذ زمن بعيد جدا . وقد نسى الجميع القصة بالفعل ولم تدون كلمات سبارتاكوس ولم يعد لها وجود إلا فى ذاكرة عدد قليل من الرجال . إذ استبعدت هذه الكلمات حتى من مضابط مجلس الشيوخ . وكان ذلك حقا . طبعا كان ذلك حقا - تماما كما كان حقا تحطيم تلك التماثيل التى أقامها العبيد وسحقها إلى أحجار صغيرة . كراسوس يفهم ذلك حتى على الرغم من أن كراسوس كان أميل إلى الحمق . فالمرء لابد أن يكون أحمق بعض

الشيء ليصبح قائدا كبيرا . اللهم إلا إذا كان هـــذا المرء هو سبارتاكوس لأن سبارتاكوس كان قائدا عظيما . فهل كان أحمق هو الآخر ؟ وهل هذه الكلمات كلمات شخص أحمق ؟ إذن كيف استطاع شخص أحمق أن يقف فى وجه قوة روما طيلة أربع سنوات طويلة ويحطم الجيوش الرومانية الواحد بعد الآخر ويجعل من إيطاليا مقبرة للفيالق ؟ كيف حدث ذلك إذن ؟ يقولون إنه مات ، لكن غيرهم يقول إن الموتى يحيون . أهذه صورة حية له - التى تتقدم نحو جراكوس - هائل الحجم ، عملاق ومع ذلك فهو كثير الشبه به ، الأنف المكسور ، والعينان السوداوان ، والجدائل المتماسكة فوق رأسه ؟ هل يمشى الموتى على أقدامهم ؟

— ٧ —

قال أنطيونيوس كايوس وهو يبتسم للطريقة التى انحدرت بها رأس السياسى الضخمة إلى الأمام - وظل مع ذلك ممسكا بقدح الماء المعطر متوازنا فلم ترق منه قطرة واحدة وقال :

— انظروا إلى جراكوس العجوز .

فقالت جوليا :

— لا تسخر منه .

فقال شيشرون :

— ومن يسخر من جراكوس ؟ لا أحد فى رأيى يا عزيزتى جوليا . سأكافح طيلة حياتى لأصبح على مثل هذا الوقار .

ففكرت هيلينا لنفسها قائلة :

— وستفشل على الدوام قبل الوصول إلى ذلك بمسافة كبيرة .

واستيقظ جراكوس وهو يطرف بعينيه وقال :

— أكنت نائما ؟

وكان من خصائصه أن يستدير إلى جوليا ويقول لها :

— معذرة يا عزيزتى ، كانت أحلام يقظة .

— بأشياء جميلة ؟

— بأشياء قديمة . لا أظن أن الذاكرة نعمة للبشر بل هى

على الأغلب لعنة عليه . وعندى كثير من الذكريات .

فقال كراسوس :

— لست فى هذا بأكثر منى . كانا لنا ذكريات وكلها تتساوى فى كآبتها .

فسألته كلوديا قائلة :

— وليس فيها ما هو بهيج قط ؟

فهمهم جراكوس يقول

— ستكون ذكراك يا عزيزتى كضوء الشمس بالنسبة لى حتى يوم مماتى . استحى لرجل عجوز يقول ذلك .

فضحك أنطونيوس كايوس وقال :

— وستسمح لشاب بذلك أيضا . كان كراسوس يحدثنا فى أثناء نومك .

فصاحت چوليا تقول

— أمن الضرورى ألا نتكلم عن شىء إلا سبارتاكوس ؟ ألا يوجد إلا السياسة والحرب ؟ أنا أمقت هذا الحديث .

فقاطعها أنطونيوس كايوس قائلا :

— چوليا .

فتوقفت عن الكلام وتراجعت فى عجلة ثم نظرت إليه . كان

يخاطبها كما يخاطب الإنسان طفلا مشاكسا . قال

— چوليا ، كراسوس ضيفنا ، ويسر المجموعة أن تستمع إليه وهو يحدثنا عن أشياء ليس فى الإمكان معرفتها إلا عن طريقه . وقد يكون فيها ما يسرك أنت كذلك ياچوليا لوأنك أصغيت .

فتصلبت شفتاها واحمرت عيناها وتندتا بالدموع وأحنت رأسها . لكن كراسوس كان كريما فى اعتذاره إذ قال :

— هو حديث يبعث فى نفسى الملل كما يفعل بك تماما ياچوليا يا عزيزتى . سامحينى .

فقال أنطونيوس كايوس :

— أظن أن چوليا ترحب بالإصغاء ، ألست كذلك ياچوليا ؟ ألا ترحبين بالإصغاء يا چوليا ؟

فهمست تقول :

— أجل ، أرجو أن تكمل يا كراسوس .

— لا - لا ، على الإطلاق .

فقالت چوليا كما لو كانت تستذكر درسا محفوظا .

— كنت حمقاء وأسأت التصرف . أرجو أن تكمل .

تدخل جراكوس فى الموقف الذى كان يتدهور ليصبح موقفا بالغ السوء . فحول الحديث بعيدا عن چوليا إلى كراسوس إذ قال

— أنا واثق من أنى أستطيع أن أخمن نظرية القائد . كان يقول لكم إن العبيد كسبوا المعارك التى خاضوها لأنهم كانوا لا يقيمون اعتبارا للحياة الإنسانية فتدفقت جحافلهم علينا وأربكتنا . هل أنا مصيب يا كراسوس ؟

فضحكت هيلينا وقالت :

— لا يمكن أن تكون أكثر خطأ .

وسمح جراكوس لنفسه أن يكون أضحوكة وتسامح حتى مع شيشرون عندما قال الشاب

— كنت دائم الشك ياجراكوس فى أن أى إنسان تصل دعايته فى جودتها إلى مستوى دعايتك ، من الضرورى أن يصدقها.

فأقره جراكوس على رأيه قائلا فى تسامح :

— بعض منها فقط . روما عظيمة لأن روما موجـــودة . سبارتاكوس محتقر لأن سبارتاكوس لم يعد أكثر من رموز العقاب هذه . هـذا هو العامل الذى يجب أن يعمل المرء حسابه . ألا توافقنى يا كراسوس ؟

فأحنى القائد رأسه موافقا . وقال شيشرون :

— ومع ذلك فقد كسب سبارتاكوس خمس معارك كبيرة . ولست أعنى تلك المعارك التى رد فيها الفيالق على أعقابها - ولا حتى تلك المعارك التى حملها فيها على الفرار . إنما أشير إلى المرات الخمس التى حطم فيها جيوش القناصل ومحاها من الوجود واستولى على

أسلحتها . كان كراسوس يريد أن يقول إن سبارتاكوس كان قائداً محظوظاً أو غير محظوظ - كما ترونه أنتم - لجماعة معينة من الناس ، أكثر منه أستاذاً ذكياً فى فن إدارة المعارك . كان من المستحيل هزيمة العبيد لأن الهزيمة بالنسبة لهم كانت ثراء لا يقدرون عليه .

أليس هذا ما أردت أن تقول يا كراسوس ؟

فأقره القائد قائلا :

— إلى حد ما .

وابتسم اجوليا وقال :

— سأوضح لكم رأيى بقصة ستسرك أنت ياجوليا أكثرمنا . فيها بعض من الحرب وبعض من السياسة وشىء عن ثارينيا التى كانت امرأة سبارتاكوس كما تعلمين .

فأجابته جوليا فى رقة قائلة

— أعرف ذلك .

ونظرت إلى جراكوس فى شعور باد وشكر .

وقال جراكوس لنفسه :

— أنا أعرف ، أنا أعرف ياعزيزتى جوليا أن كلينا مثير للعطف بعض الشىء ، ومضحك بعض الشىء كذلك . والفارق الأساسى بيننا هو أننى رجل وأنت امرأة . فأنت كامرأة لا تستطيعين ادعاء

العظمة . لكننا من ناحية الجوهر شيء واحد فى حياتينا نفس المأساة الفارغة . كلانا يحب الأشباح لأننا لم نتعلم يوما كيف نحب أو كيف نجعل المخلوقات الإنسانية تحبنا .

وقالت كاوديا ، ولم يكن أحد يتوقع قولها :

— كنت طول الوقت أظن أن قصتها من نسج خيال أحد الناس .

— لماذا يا عزيزتى ؟

فقالت كاوديا مباشرة :

— لأنه لا وجود لمثل هاته النساء .

— لا ؟ حسن . ربما . من العسير أن نقرر ما هو صدق وما هو ليس كذلك . فقد قرأت عن معركة اشتركت فيها أنا بنفسى ولم أجد فيما قرأت إلا قليل القليل من الحقيقة . هكذا تسير الأمور ، وأنا لا أقطع بصدق هذه القصة ، ولكن عندى كل الأسباب التى تدفعنى إلى تصديقها . أجل أعتقد أنى أصدقها .

وكانت فى صوته رنة غريبة . وأدركت هيلينا فجأة وهى تتطلع إليه فى حدة مدى وسامته . فقد كان فى وجهه القوى الوسيم وهو جالس هناك فى الشرفة فى نور شمس الصباح ما يذكرها بالماضى الأسطورى للجمهورية الفتية . لكن الفكرة لم ترقها لسبب من الأسباب . فنظرت جانبا إلى أخيها . كان كايوس قد ثبت عينيه على القائد فى نوع من التقديس المدله . ولم يلحظ الآخرون ذلك

فقد كان كراسوس يفرض على الحاضرين الانتباه إليه . وكان صوته المنخفض الصادق يمسك بهم ويقيدهم إليه ، حتى شيشرون فقد راح ينظر إليه فى وعى جديد . ولاحظ جراكوس من جديد ما كان قد لاحظه من قبل ، وهو الخاصية التى يستطيع بها كراسوس أن يثير العواطف فى الآخرين دون أن يحس هو أى انفعال عاطفى .

بدأ كراسوس يقول :

— مجرد كلمة عامة كمقدمة للقصة . عندما توليت القيادة كانت الحرب مشتعلة منذ سنوات كثيرة كما تعلمون . والاضطلاع بقضية خاسرة أمر حساس على الدوام . وعندما تكون الحرب ضد العبيد لا يعنى النصر فيها إلا مجدا ضئيلا لا يغنى وتعنى الهزيمة فيها عارا لا يوصف . وشيشرون محق كل الحق فقد حطم سبارتاكوس خمسة جيوش تحطيما كاملا .

ثم أحنى رأسه لجراكوس وقال :

— وجهة نظرك كثيرة الإغـــراء لكنك تقرنى على أنى كنت مضطرا إلى النظر إلى الموقف كما كان .

— طبعا .

— وجدت أنه لا توجد قبائل من العبيد . وإذا أردنا أن نتحرى الصدق كاملا فلم يحدث فى مرة واحدة أن لم نفقهم عددا . كان هذا صحيحا فى البداية وكان صحيحا فى النهاية . ولو أن الظروف

أتاحت لسبارتاكوس يوما أن يكون تحت قيادته الثلاثمائة ألف رجل الذين كان من المفروض أن يتولى قيادتهم. لما كنا نجلس هنا اليوم فى هذا الصباح البهيج فى أجمل قصر ريفى فى إيطاليا كلها، ولكان سبارتاكوس قد استولى على روما والعالم بأسره. قد يشك الآخرون فى صحة ذلك. لكنى حاربت سبارتاكوس عددا من المرات يكفى لئلا أشك فيها. أنا أعرف. الحقيقة الكاملة هى أن كتلة عبيد إيطاليا لم تنضم كاملة إلى سبارتاكوس قط. هل تظنون أنهم إذا كانوا كلهم من معدن سبارتاكوس، إننا كنا نجلس هنا على حالنا هذا فى مزرعة يفوقنا عدد العبيد فيها مائة مرة؟ انضم إليه الكثير منهم طبعا، لكنه لم يتول يوما قيادة أكثر من خمسة وأربعين ألف مقاتل - وكان هذا وهو فى ذروة قوته فقط. ولم تكن لديه خيالة قط، كما كان الحال مع هانيبال، ومع ذلك فقد كاد يرغم روما على أن تجثو على ركبتيها بصورة لم يحققها هانيبال - روما التى وصلت إلى قوة كانت تكفى لسحق هانيبال فى معركة واحدة. لا، لم ينضم إلى سبارتاكوس إلا أحسن العبيد وأكثرهم وحشية وأكثرهم بأسا.

كان ذلك شيئا اضطررت إلى أن أتبينه بنفسى. وكنت خجلا من روما لما تبينته من حالة الفزع والوهم التى خلقها هؤلاء العبيد فيها. كنت أبحث عن الحقيقة. أردت أن أعرف على وجه الدقة ما أحاربه، أى نوع من الرجال وأى نوع من الجيوش. أردت

أن أعرف السر فى أن أحسن القوات فى العالم التى حاربت كل شىء من الألمان إلى الأسبان إلى اليهود تلقى بسلاحها و تفر من مجرد مرأى هؤلاء العبيد . كنت قد أقمت معسكرى حينذاك فى بلاد الغال عبر الألب ، وكان معسكرا يفكر سبارتاكوس مرتين قبل أن يهاجمه ، ثم شرعت فى العمـــل . وفى قليل من الفضائل لكن إحداها هى الدقة . وأعتقد أنى قد تحادثت مع مائة شخص وقرأت ألف وثيقة . من بين هؤلاء كان باتياتيوس متعهد المجالدين وعدد كبير من الجنود والضباط الذين حاربوا ضد سبارتاكوس . وقد روى لى واحد منهم هذه القصة وأنا أصدقها .

وعلق أنطونيوس كايوس قائلا :

— إذا كانت القصة فى مثل طول المقدمة فسنتناول غداءنا هنا .

وكان العبيد قد شرعوا بالفعل فى إحضار البطيخ المصرى والعنب ونبيذ خفيف للصباح . وكانت الجلسة فى الشرفة رطبة بهيجة إلى درجة جعلت حتى من عقدوا العزم على مواصلة رحلتهم فى ذلك اليوم ليسوا فى عجلة من أمرهم .

— هى أطول . لكن الناس تصغى إلى الرجل الغنى .

فقال جراكوس فى خشونة :

— أكمل .

— أنا أنوى ذلك . فهذه القصة لجوليا . بعد إذنك يا جوليا .

فأحنت رأسها موافقة . وفكر جراكوس لنفسه قائلا :

- يشك المرء فى أنه نافذ البصيرة فإلام يهدف بالله ؟

وقال كراسوس وفى صوته رنة خبيثة .

ـــ حدث ذلك فى الوقت الذى حطم فيه سبارتاكوس جيشاً رومانيا للمرة الثانية . أما المرة الأولى ، وهى التى تحطمت فيها كتائب حراسة المدينة ، فأظن أن صديق جراكوس يذكرها جيداً كما نذكرها نحن بالطبع . بعد ذلك بعث مجلس الشيوخ بيليوس لمقاتلته على رأس فيلق كامل ، ومن أحسن الفيالق فيما أظن . كان هو الفيلق الثالث ، أليس كذلك يا جراكوس ؟

ـــ الدقة فضيلتك وليست فضيلتى .

فقال كراسوس :

ـــ أعتقد أنى مصيب ، وإذا لم أكن مخطئاً فقد صحب الفيلق بعض من خيالة المدينة - فأصبح مجموعهم حوالى سبعة آلاف رجل . وأرجو أن تؤمنى يا جوليا بأن حرفة الحرب ليس فيها شىء غامض بالذات . فكسب المال أو نسج قطعة من الكتان تحتاج إلى إعمال الذهن أكثر مما يحتاج إليه المرء ليصبح قائداً ممتازاً . ومعظم من صناعتهم الحرب ليسوا على قدر كبير من المهارة - لأسباب واضحة . أما سبارتاكوس فكان بارعا كل البراعة . كان يعرف بعض قواعد الحرب البسيطة ، وكان يعرف مواطن الضعف والقوة فى الأسلحة

الرومانية . وهذا أمر لم يعرفه إلا القليل غيره من بينهم هانيبال مع قليل غيره . بينما لا يعرفه فيما أخشى معاصرنا الموقر بومبي .

وسأله شيشرون :

— أمن الضرورى أن نسمع هذه الأسرار العليا ؟

— ليست أسراراً عليا أو سرية بالذات . إنما أكررها من أجل چوليا . لأن هذه القواعد تبدو شيئا من المستحيل على الرجل أن يتعلمه . القاعدة الأولى هى ألا تجزأ قواتك قط اللهم إلا إذا كان ذلك ضروريا للنجاة . والقاعدة الثانية هى أن تبدأ بالهجوم إذا كنت ستقاتل ، أما إذا كنت لن تبدأ بالهجوم ، فتجنب المعركة . والقاعدة الثالثة هى أن تختار زمان ومكان المعركة بنفسك ، وألا تترك هذا الاختيار للعدو أبدا . والقاعدة الرابعة هى أن تتجنب أن يحاط بك بأى ثمن . والقاعدة الأخيرة هى أن تهاجم العدو وتحطمه فى أضعف نقطة فيه .

فعلق شيشرون على ذلك بقوله :

— هذا النوع من المبادىء الأولية موجود فى أى كتاب أولى عن الحرب يا كراسوس ويعوزه العمق إذا جاز لى القول . فالأمر كله على قدر كبير من البساطة .

— ربما . لكن أى شىء على هذا القدر من البساطة يعوزه العمق - أؤكد لك .

وقال جراكوس :

ـ وكى ما نكمل ما بدأت ، ما هى هذه المواطن للضعف والقوة فى الأسلحة الرومانية ؟

ـ شىء فى نفس بساطة القواعد ، وأنا على ثقة من أن شيشرون سيخالفنى الرأى مرة ثانية .

فقال شيشرون فى خفة :

ـ أنا تلميذ راغب فى المعرفة عند قدمى قائد كبير .

فهز كراسوس رأسه وقال :

ـ حقا لا . شيئان يؤمن كل الرجال بأن عندهم موهبة القيام بهما دون إعداد أو دراسة ، هما تأليف كتاب وقيادة جيش . ولهم فى ذلك سند قوى ما دام مثل هذا العـــدد المذهل من الحمق يعمل الشيئين .

ثم أضاف فى أسلوب مفحم :

ـ وأنا أشير إلى نفسى طبعاً .

فقالت هيلينا :

ـ هذه مهارة كبيرة منك .

فأحنى كراسوس رأسه لها . على أية حال ، كان رأى هيلينا فيه أنه يحفل بالنساء لكنه لا يهتم بهن اهتماما حقيقياً . ومضى كراسوس يقول :

— يمكن تلخيص نواحى الضعف والقوة فى جيشنا نحن فى كلمة واحدة هى النظام . فجيشنا أكثر جيوش العالم نظاما ، وقد يكون هو الجيش الوحيد المنظم . فالفيلق الجيد يدرب قواته خمس ساعات كل يوم سبعة أيام فى الأسبوع . والتدريب يعد الجندى لمواجهة سلسلة من الأمور غير المنظورة فى المعركة ، لكنه لا يستطيع أن يعده لمواجهة كل شىء . وهذا النظام آلى إلى حد ما . وعندما تطرأ الطوارىء الجديدة يكون ذلك امتحاناً للنظام . ونحن نملك كذلك جيشاً ممتازاً فى الهجوم ، كل ميزته هى الهجوم ، وأسلحته أسلحة هجوم . وهذا هو السبب فى أن الفيلق يشيد معسكراً محصنا فى أى وقت يتوقف فيه لقضاء الليل . وكعب أخيل ، أو نقطة الضعف فى الفيلق هى الهجوم الليلى عليه . وأول قاعدة حربية للجيوش الرومانية هى اختيارنا بأنفسنا لأرض المعركة . لكن هذا ترف لم يسمح لنا به سبارتاكوس إلا فيما ندر . وقد خرق بيليوس كل هذه الآراء البالغة البساطة عندما قاد الفيلق الثالث جنوبا . وهذا مفهوم لأنه لم يكن لسبارتاكوس سوى الاحتقار .

وانضمت ابنتا أنطونيوس كايوس إلى المجموعة فى الشرفة حينذاك . جاءتا تعدوان وقد توردتا من الضحك واللعب والانفعال واحتمتا بين ذراعى چوليا فى الوقت الذى كان كراسوس ينهى فيه كلامه فسمعتا كلماته الأخيرة .

فسألته الابنة الكبيرة قائلة :

— هل كنت تعرف سبارتاكوس ؟ هل رأيته ؟

فابتسم كراسوس وقال :

— لم أره قط ، لكنى كنت أحترمه يا عزيزتى .

وراح جراكوس يقشر تفاحة فى رصانة وهو يتأمل كراسوس وقد ضيق عينيه . لم يكن يحب كراسوس وتذكر أنه لم يقابل رجلا عسكريا قط أحس نحوه بأية حرارة أو حب . وأمسك بقشرة التفاحة سليمة فى شريحة واحدة طويلة فصفقت الفتاتان الصغيرتان بأيديهما حبوراً وحاولتا أخذها ، لكن جراكوس أصر على أن تتمنى كل منهما شيئاً أولا . ثم قال :

— ثم اطويا القشرة حول الأمنية فالتفاحة تحوى كل المعرفة .

فعلقت جوليا قائلة :

— ودودة فى بعض الأحيان . كانت هذه القصة عن ڤارينيا يا كراسوس .

— سنقابلها وشيكا . إنما أصور ظروف القصة ليس إلا . كان سبارتاكوس ما زال معسكراً فى منطقة جبل ڤيزوف فى ذلك الوقت . وقسم بيليوس ، بحماقته ، قواته إلى ثلاثة أقسام ، ضم كل قسم منها أكثر من ألفى رجل ، وبدءوا يضربون فى تلك المنطقة الوعرة بحثاً عن سبارتاكوس . فمحا سبارتاكوس جيش بيليوس من الوجود فى ثلاثة التحامات منفصلة . وكان يعمل نفس الشىء

فى كل مرة يحصرهم فى مضيق ، ضيق بين جبلين حيث لا تستطيع الفصائل أن تنتشر ويحطمها . على كل حال حدث فى إحدى هذه المرات أن تمكنت كتيبة كاملة من الخيالة وجزء كبير من كتيبة مشاة من أن يشقا طريقهما خارجين من الحصار ، والمشاة تتعلق بأذيال الجياد والجياد تجرى هاربة من الجحيم . وأنت إذا عرفت كيف كان العبيد يقاتلون ، لعرفت أنهم ما كانوا ليسمحوا لمثل هذا الشىء بصرفهم عن المعركة . فقد كانوا يركزون اهتمامهم على ما بين أيديهم وهذا ما فعلوه . فتقهقرت المئات الثمانية أو التسعة من المشاة والخيالة إلى الغابات وضلت طريقها حتى وصلت إلى معسكر العبيد حيث النساء والأطفال . أقول معسكراً ، لكنه كان أقرب إلى القرية الصغيرة . إذ كان يحيط به خندق وحائط من القذارة فوق قمته سياج من الخشب . ولا بد أن عدداً كبيراً من الجنود الفارين من الفيالق كان قد انضم إلى سبارتاكوس لأن ذلك المعسكر كان مشيداً بنفس الطريقة التى نقيم بها معسكراتنا إذ كانت الأكواخ فى الداخل مقامة على شوارع مستقيمة منتظمة. حسن . كانت أبواب المعسكر مفتوحة وعدد من الأطفال يلعبون خارجها وبعض النساء يرقبنهن . ويجب أن تدركوا أن الجنود عندما تحل بهم الهزيمة ويفرون يفقدون معظم الاعتبارات الخلقية . وأنا لا أصدر أحكاما على من يقتلون العبيد سواء كانوا أطفالا أو نساء أو رجالا . فلدينا من الأسباب ما يكفينا لكراهية القذارة . وكان

أولئك الجنود يطفحون بالكراهية ، فانقضوا على المكان ، وطعن الفرسان الخيالة الأطفال بالحراب كما نفعل بالأرانب ، وقتلوا كذلك فى هجمتهم الأولى عدداً من النساء . لكن غيرهن من النساء هجمن على الجنود ثم تدفقت النسوة اللائى كن فى القرية خارجات من باب المعسكر مسلحات بالمدى والسيوف والحراب . لست أدرى ماذا كان يدور بخلد الجنود ، أكثر من الكراهية والرغبة فى الانتقام . كان من الممكن ، فيما أعتقد ، أن يقتلوا بعض النسوة ويغتصبوا الأخريات . وتذكرون أن شعوراً سيئا للغاية نحو العبيد كان يسود البلد كلها فى ذلك الوقت . أما قبل عهد سبارتاكوس ، فلو أن رجلا قتل إحدى إمائه ، ما كان ليستطيع أن يخرج إلى الطريق مرفوع الرأس . فقد كان ذلك يعتبر عملا يحط من الكرامة مهما كانت الأحوال . وكانت غرامة كبيرة تفرض على سيد الأمة المقتولة لو أمكن إثبات أن القتل كان بلا سبب . لقد غيروا هذا القانون منذ ثلاث سنوات ، أليس كذلك يا جراكوس ؟

فقال جراكوس دون بهجة :

— كذلك . لكن استكمل قصتك . كانت عن فارينيا .

— صحيح ؟

وبدا على كراسوس لحظة أنه قد نسى ذلك . وكانت چوليا تنظر من فوق أكتافه إلى المروج . ثم قالت لطفلتها :

— هيا اجريا الآن . . اجريا والعبا .

وأرادت كاوديا أن تعرف بقية القصة فسألته :

— أتعنى أن النسوة قاتلن الجنود .

فأحنى كراسوس رأسه موافقا .

— هذا هو بيت القصيد . إذ دارت معركة رهيبة هناك أمام باب المعسكر . نعم ، لقد قاتلت النسوة الجنود . فجن الجنود ونسوا أنهم إنما يقاتلون نساء . وأظن أن المعركة دامت حوالى ساعة . وكانت تقود النسوة ، كما جاء فى القصة ، تلك المتوحشة ذات الشعر الأصفر التى كان المفروض أن تكون فارينيا . كنت تجدها فى كل مكان ، وتمزقت ثيابها وقاتلت بالحربة وهى عارية . كانت كاسرة كإحدى آلهات الانتقام .

فقاطعه جراكوس قائلا :

— أنا لا أصدق شيئاً من هذا .

فأحنى كراسوس رأسه وهو يدرك أن قصته قد فشلت فشلا مؤسفا وقال :

— لا حاجة بك إلى تصديقها إذا لم ترد ، فأنا لم أروها إلا لجوليا .

فسألته جوليا قائلة .

— ولماذا لى أنا ؟

وقالت هيليسا وهى تحدق إليه بإمعان :

— أرجو أن تكمل القصة سواء كانت صادقة أو غير صادقة . إن لها نهاية . أليست كذلك ؟

— نهاية عادية . فلكل المعارك نفس النهاية أساسا . فأنت إما أن تكسبها وإما أن تخسرها . وقد خسرنا هذه المعركة . إذ عاد بعض العبيد ولم يفر من براثنهم وبراثن النساء إلا حفنة من الخيالة عادت لتقدم تقريرها عما حدث .

— لكن ڤارينيا لم تقتل ؟

— لو كانت تلك المرأة هى ڤارينيا فهى لم تقتل بكل تأكيد لأنها ظهرت بعد ذلك مرات ومرات .

وسألته كاوديا .

— وهل ما زالت على قيد الحياة حتى الآن ؟

فأعاد كراسوس قولها :

— هل ما زالت على قيد الحياة حتى الآن ؟ لا أهمية لذلك . أليس كذلك ؟

عند ذاك نهض جراكوس وألقى بعباءته إلى الخلف فى إيماءة

مميزة ومشى فى تثاقل مبتعداً . وساد الصمت لحظات . ثم قال شيشرون يسأل :

ـ ما الذى يضايق الرجل العجوز ؟

ـ الله وحده يعلم .

وأرادت هيلينا أن تعرف فقالت :

ـ لماذا تقول إنه ليس من المهم هل ڤارينيا على قيد الحياة حتى الآن ؟

فقال كراسوس مباشرة :

ـ لأن الأمر كله قد انتهى . أليس كذلك ؟ سبارتاكوس قد مات ، وڤارينيا أمة ، والسوق فى روما متخم بهن . ڤارينيا وعشرة آلاف من مثيلاتها .

وامتلأ صوته بالغضب فجأة .

واعتذر أنطونيوس كايوس وقام يلحق بجراكوس فقد أزعجه أن يتخاصم رجلان مثل جراكوس وكراسوس وهما من تربط بينهما السياسة على لا شىء على الإطلاق . وهو لم يعرف عن جراكوس قط مثل هذا السلوك من قبل . وتساءل ، أيمكن أن يكون الخصام حول چوليا ؟ لا . ليس بالنسبة لجراكوس ، ليس بالنسبة لجراكوس العجوز السمين .

ووجد جراكوس يجلس مكتئبا فى بيت النباتات الزجاجى ، فمشى إلى صديقه القديم ولـكزه فى رقة وهو يقول .

— لا عليك - أيها العجوز - لا عليك .

فقال جراكوس :

— فى يوم من الأيام سيثبت أن العالم أصغر من أن يضم كراسوس وجراكوس .

الجزء السادس

ويتضمن قصة الرحلة التى قام بها فريق من المجتمعين في فيلا سالاريا إلى زمورا ، وبعض التفاصيل عن تلك المدينة الجميلة، وكيف شهد المسافرين صاب آخر المجالدين .

فى ذلك اليوم نفسه ودع شيشرون وجراكوس الموجودين وسافرا إلى روما . أما كراسوس وجماعة كايوس من الشباب فقد أمضوا يوما آخر فى فيلا سالاريا بناء على نصح أنطونيوس . واتفقوا على أن يرحلوا فى صباح اليوم التالى مبكرين ، ويقطعوا بذلك فى يومهم شقة طيبة من الطريق . وكان كراسوس قد اقترح بالفعل على كايوس أن يسافروا جماعة ، فابتهجت هيلينا وكاوديا لفكرة السفر فى رفقة القائد الشهير .

تركوا الضيعة بعد شروق الشمس بقليل ، فكونت المحفات الأربع ، ومختلف الأتباع ، وحملة الأمتعة موكبا ضخما على الطريق وعندما وصلوا إلى الطريق الأبيوسى ، صحب كراسوس حرس شرف مكون من عشرة من جنود الفيالق . فقد كان كراسوس مدعوا إلى كابوا لحضور الاحتفالات التى تقام احتفالا بإخماد ثورة العبيد نهائيا فى المكان الذى نشبت فيه الثورة نفسها . وكانوا قد انتخبوا مائة من المجالدين من بين من أسروهم بعد هزيمة سبارتاكوس وموته ، ومنذ أسابيع والاحتفال بقتال المجالدين فيما بينهم قائم . وكان قتال المجالدين فيما بينهم يجرى على أساس التصفية التى لا يبقى بعدها إلا مجالد واحد . فكلما تقاتل اثنان جمعوا بين الواحد الباقى ومجالد آخر ، فكانت رقصة للموت لا تكاد تعرف النهاية .

وقال كايوس :

ـــ أعتقد أنكم كنتم ترغبون فى مشاهدتها .

وكانت المحفات الأربع تسير جنبا إلى جنب ليتمكنوا من تبادل الحديث فى أثناء تقدمهم على الطريق . وكان جنود الفيالق يبعدون حركة المرور القادمة من الاتجاه المضاد إلى حافة الطريق .

وكان الناسُ عندما يرون حجم وثراء الموكب يسلمون بأفضليته فى حق المرور .

كان كايوس وكراسوس يجلسان جنبا إلى جنب ، وكلوديا إلى جانب كراسوس ، أما هيلينا فقد جلست إلى جوار أخيها . وكان كراسوس قد اعتبر نفسه مضيفاً لهم نظرا لسنه ولمشاعر معينة كان يحسها نحوهم . وكان عبيده مدربين خير تدريب ، وكان قد أعد العدة لتلبية احتياجات ورغبات رفاقه ، حتى والمحفات تتقدم على الطريق الرائع ، سواء كانت نبيذا جديدا مثلجا رائعا من نبيذ اليهودية ، أو عنبا مصرياً ريان ، أو ريشة من العطر لتنقية الجو لهم . وكان ، شأنه شأن كثير من كبار الأغنياء ، يكثر من التفكير تفكيرا مادياً تجاه أبناء طبقته الاجتماعية . ومن هنا قام بدور الضيف والرفيق والدليل لهم .

وقال رداً على سؤال كايوس :

— لا . وقد يدهشك هذا يا كايوس ، لكنى أكاد أكون قد فقدت لذة مشاهدة قتال الجالدين الآن . أجل ، فى بعض الأحيان إذا كان الجالدون المتقاتلون بارعين ومن نوع خاص .

لكنى أخشى ألا تفلح هذه التصفيات بين المجالدين إلا فى بعث الملل الى نفسى .

لكنى لو علمت أنك راغب فى مشاهدتها .

— ليست بذات بال .

فقالت كلوديا :

— لكن التصفية تسفر عن واحد فى النهاية .

— ليس ضروريا . فمن الممكن أن يصاب آخر اثنين بجراح عميقة .

لكن من المحتمل إلى حد كبير ، إذا تبقى واحد من المجالدين أن يصاب ، من باب الرمز ، أمام أبواب المدينة . وللمدينة سبعة أبواب كما تعلمون . وعندما نصبوا رموز العقاب ، بدأوا بسبعة صلبان : واحد أمام كل باب . وسيحل من تبقى محل الجثة المصلوبة أمام الباب الأيوسى .

ثم سأل كلوديا قائلا .

— هل سافرت إلى كابوا من قبل ؟

— لا . لم أذهب .

— إذن ففى انتظارك مجال كبير للمشاهدة . فهى مدينة كثيرة الجمال ، بل إنى لأظن فى بعض الأحيان أنها أجمل مدينة فى العالم بأسره . فعندما يكون اليوم مشرقا ، ترين من فوق الأسوار الخليج

الرائع وقمة جبل فيزوف البيضاء على بعد . أنا لا أعرف لها مثيلا . وأنا أملك بيتا ريفيا صغيرا هناك ، ويسعدنى أيما سعادة أن تنزلوا كلكم ضيوفا على .

فشرح له كايوس أن خاله الكبير فلاقيان يتوقع مجيئهم وأنهم لا يستطيعون تغيير مشاريعهم الآن .

فقال لهم فى كرم :

— على أية حال ، نستطيع أن نتقابل . ستكون الأيام القليلة الأولى مملة . لكننا نستطيع ، بعد أن تنتهى احتفالات الترحيب الرسمية ، وإلقاء الكلمات ، وبقية الأشياء ، أن نمضى تسع ساعات فى الخليج فى قارب شراعى - فهذا سيد أنواع الرياضة كما تعلمون . وقد نقوم برحلة . وسنمضى بعد ظهر أحد الأيام بين مصانع العطور قطعا . إذ لا يمكن الفصل بين كابوا وعطورها . وأنا أملك نصيبا فى مصنع هناك ، وعندى فكرة عن فن العطور .

ثم قال فى كرم أصيل :

— وسيكون من دواعى بهجتى أن أقدم لكم أى عطر ترغبون فيه .

فقالت هيلينا :

— أنت كثير الطيبة .

— فلنقل إن الطيبة لا تكلفنى إلا القليل جدا ، وتعود على

بأحسن الجزاء ، على أية حال ، أنا أحب كابوا وكنت دائم الفخر بها ، فهى مدينة قديمة ممعنة فى القدم . قد لا تعرفون أن هناك أسطورة تقـــول إن الاتراسكانيين أقاموا اثنتى عشرة مدينة فى هذا الجزء من إيطاليا ـ وأسموها الجواهر الاثنتى عشرة فى العقد الذهبى . وكان اسم واحدة منها فولتورنوم . ومن المفروض أنها هى التى أصبحت اليوم كابوا الحديثة . هذه مجرد أسطورة طبعا . وأعاد السمنيون الذين استولوا عليها من الاتراسكانيين منذ حوالى ثلاثمائة وخمسين سنة مضت بناء غالبيتها ـ وعندما استولينا عليها منهم ، أقمنا أسوارا جديدة ، وشققنا الشوارع الجديدة فى كل مكان . إنها مدينة تفوق روما جمالا إلى حد كبير .

ومضوا فى سفرهم على الطريق الأبيوسى . وكانوا حينذاك لا يبدون إلا اهتماماً قليلا ، أولا يبدون اهتماما قليلا ، أولا يبدون اهتماما على الإطلاق برموز العقاب . وعند ما كانت الريح تهب حاملة إليهم رائحة اللحم المتعفن ، كانت ريشة من العطر تعطر الهواء ، إلا أنهم كانوا فى معظم الوقت لا يتطلعون إلى الصلبان إلا لماما . ولم يقع من الحوادث ماله أهمية عدا حركة المرور العادية على الطريق . وأمضوا ليلتين فى فنادق الريف . وليلة فى إحدى المحطات المقامة عند نهاية كل ميل ، وكانت بالغة الفخامة . ووصلوا فى النهاية إلى كابوا بعد مراحل من السفر مريحة .

- ٢ -

كانت كابوا فى حالة فرح واحتفال، مدينة فى قمة شهرتها ومجدها وثرائها - بعد أن محت عن جبينها لطخة حرب العبيد نهائيا . وكان اثنا عشر ألف علم يتطاير فوق أسوار المدينة البيضاء . وكانت الأبواب السبعة الشهيرة مفتوحة على مصراعيها ، فقد عم السلام ولم يعد للخوف وجود . وكانت أنباء قدومهم قد سبقتهم ، فاجتمع عشرات من أعيان المدينة للترحيب بهم ، وعزفت فرق موسيقى المدينة المكونة من مائة وعشر آلات موسيقية من الآلات النحاسية والصفارات والطبول ، عزفت التحية لهم ، ورافقتهم كتيبة حراسة المدينة الغارقة فى الدروع المطلية بالفضة وهم يدخلون من الباب الأبيوسى . كان ذلك الحدث عظيم الإثارة بالنسبة للفتاتين ، وحتى كايوس ، رغم تظاهره بعدم المبالاة ، أثاره الترحيب غير العادى الحافل بالمباهج الذى تقاسموه مع رفيقهم الشهيد . وما إن دخلوا إلى المدينة ، حتى افترقوا عن كراسوس وذهبوا إلى بيت أقربائهم ، إلا أن دعوة من القائد وصلت إليهم بعد ساعات قليلة يدعو فيها كايوس وأخته وصديقتها وأسرته كذلك ليكونوا ضيوف كراسوس فى المأدبة الرسمية التى ستقام مساء اليوم نفسه . وتاه كايوس كبرياء وفخرا إذ أصبح محط عناية ورعاية القائد ، وظل كراسوس طيلة المأدبة الطويلة الباعثة على الملل يبدى لهم ألوانا من الرعاية والحفاوة . ولم يذق كايوس وكلوديا وهيلينا إلا القليل من ألوان الطعام الخمسة

والخمسين التى قدمت تقديرا لمكانة القائد المرموقة ومجده . وكانت كاپوا ما زالت تتمسك بالتقاليد الاتراسكانية القـــديمة فى طهى الحشرات طهيا بارعا لذيذا . لكن كايوس لم يستطع أن يقنع نفسه بالاستمتاع بالحشرات حتى وهى مغرية فى العسل أو بعد حشوها فى فطائر رقيقة مع لحم الكركند المغرى . وكان من بين مظاهر الاحتفال فى ذلك المساء رقصة جديدة وضعت خصيصا احتفالا بكراسوس .

وكانت الفوحات تؤدى بإخلاص كبير فى الرقصة البالغة الروعة التى دامت ساعـــة . وعندما انتهت الرقصة بذبح العبيد فى النهاية ، تناثرت الزهور البيضاء هابطة كالثلج من سقف القاعة الكبيرة .

ولاحظت هيلينا أن كراسوس أخذ يقلل من الشراب مع تقدم المساء مع أن المئات العديدة من الأضياف فى المأدبة كانوا قد بلغوا حالة بينة من السكر . فكان يكتفى بتذوق النبيذ ولم يذق الشراب القوى المصنوع من البرقوق الذى اشتهرت كاپوا بصنعه والذى كانوا يقطرونه كما يقطرون عطورهم ذات الشهرة العالمية . وكان القائد مزيجا غريبا من خشونة الطبع والرغبات الحسية . وكانا يكثران عند ذاك من تبادل النظرات ، وكانت الصفتان واضحتين فى عينيه . أما كايوس وكلوديا ، من الناحية الأخرى ، فكانا فى قمة السكر .

وانتهت المأدبة فى وقت متأخر جدا ، لكن هيلينا كانت تحس ميلا غريبا عنيدا إلى مشاهدة مدرسة لنتولوس باتيانوس ، المكان الذى شهد البدايات الأولى لثورة العبيد . وسألت كراسوس هل يوافق على أن يأخذهم إليها ويكون دليلهم ومرشدهم . وكانت الليلة رائعة رطبة عطرة مليئة برائحة زهور الربيع التى كانت قد أينعت فى كل أنحاء المدينة . وكان قمر أصفر كبير قد أخذ لتوه فى الطلوع فى السماء ، فلن يجدوا مشقة فى تبين طريقهم فى الظلام .

كانوا يقفون فى الساحة العامة ، يحيط بالقائد جمهرة من الناس وكان عليهم كذلك أن يحلوا مسألة انتزاع الفتاتين من أسرة هيلينا فى دبلوماسية . لكن هيلينا حثت كايوس على أن يقوم بدور الرفيق الحارس . وكان كايوس فى حالة من السكر شديدة إلى حد أنه وافق بكل استعداد . ووقف يترنح قليلا ويتطلع إلى كراسوس بعينين كلهما تقديس . وتمكن القائد من التخلص من الرسميات . وبعد فترة قصيرة كانوا فى محفاتهم فى طريقهم إلى الباب الأبيوسى وحيا الحراس الواقفون بالباب القائد ، ومازحهم هو بعض الشىء ووزع عليهم حفنة من النقود الفضية وسألهم كذلك عن الطريق .

فسألته هيلينا قائلة :

ـ إذن فأنت لم تذهب إلى هناك من قبل ؟

ـ لا . . لم أر المكان قط .

فعلقت هيلينا قائلة :

ـ يا للغرابة . أظن أنى لو كنت فى مكانك لرغبت فى مشاهدة الطريقة التى تتداخل بها حياتك وحياة سبارتا كوس فى هذه النقطة.

فقال كراسوس فى هدوء .

— حياتى وموت سبارتاكوس .

وقال لهم قائد الحرس على باب المدينة :

— لم يتبق من المدرسة الكثير . كانت عملية استغلال ضخمة قام بها المتعهد القديم . وكان من الواضح أنه فى طريقه إلى أن يصبح مليونيراً . لكن سوء الحظ اختفى أثره بعد الثورة . وعندما قتله واحد من عبيده ، وقعت المدرسة فى منازعات قضائية لم تنته حتى اليوم ، وانتقلت غيرها من المدارس الكبيرة إلى المدينة ، واستأجرت اثنتان منها منازل سكنية .

وتثاءبت كلوديا ونام كايوس فى محفته . وتابع قائد الحرس حديثه مبتهجا .

— جاء فى تاريخ الثورة الذى كتبه فلاكيوس مونايا وصف لمدرسة باتياتوس على أنها فى قلب المدينة . ونحن الآن نقود السياح إليها . وصدقونى ، إن كلامى لا قيمة له إلى جانب كلمات مؤرخ . ولكن العثور على مدرسة باتياتوس أمر يسير جدا . اتبعوا هذا الممر الصغير على طول الجدول ، وهذا القمر الذى يضىء الدنيا ويجعلها نهاراً ، فلن تخطئوا المجتاز ، والمنصة الخشبية الكبيرة

عالية واضحة .

ومر من باب المدينة فى أثناء حديثهم جماعة من العبيد يحملون أرفاشا ومعاول ، ويحملون كذلك سلما وسلة من القش المجدول . وذهب العبيد إلى حيث يقوم الصليب الكبير أول رموز العقاب وأكثرها رمزية ، أول الصلبان التى بلغ عددها ستة آلاف ، والتى قامت على الطريق إلى روما . وعندما أسندوا السلم إلى الصليب تطاير سرب من الغربان غاضباً مبتعداً .

وسألت كلوديا فجأة

— ماذا يفعلون ؟

فأجابها قائد حرس الباب فى لهجة عرضية .

ينزلون كلبا كى نرفع كلبا آخر فى مكانه . ففى الصباح سينال العبد الباقى من ، القتال بلا نهاية ، نصيبه من التشريف تبعاً لحقوقه . فوق هذا الصليب سيموت آخر عبد كان مع سبارتاكوس .

فارتعدت كلوديا وقالت لكراسوس .

— لا أظن أنى راغبة فى الذهاب معكم .

— لك أن تعودى إلى البيت إذا أردت .

ثم سأل قائد الحرس قائلا .

— هلا بعثت معنا باثنين من رجالك ؟

لكن كايوس ذهب معهما وهو نائم مستريح يشخر . وأرادت هيلينا أن تسير على قدميها ، فأحنى كراسوس رأسه موافقاً وترك محفته ليسير إلى جوارها . وسبقتهما المحفات وتبعها الرجل المالى الكبير القائد والمرأة الشابة يسيران معاً فى ضوء القمر . وعندما مرا بالصليب ، كان العبيد ينزلون البقايا العفنة التى لوحتها الشمس ونهشتها الطيور للرجل الذى مات على الصليب ، وكانت جماعة أخرى من العبيد تحفر حول قاعدة الصليب وتدق أوتاراً لتساعد على استقامة الصليب وتقويته .

وسأل كراسوس هيلينا قائلا :

ـ ألا شىء يزعجك حقا ؟ أليس كذلك ؟

ـ ولماذا يزعجنى شىء مثل هذا ؟

فهز كراسوس كتفيه وقال .

ـ لم أقصد بقولى هذا أن أنتقدك كما تعلمين . إنما أظن أنه أمر مثير للإعجاب إلى حد كبير .

ـ ألا تكون المرأة امرأة ؟

فأجابها كراسوس وهو لا يريد أن يلتزم برأى .

ـ أنا أقبل العالم الذى نعيش فيه ، فأنا لا أعرف عالما غيره أتعرفين أنت ؟

نهزت هيلينا رأسها دون أن تجيب وواصلا السير معاً . لم تكن

المسافة إلى المدرسة كبيرة ، وكانت المنطقة ، الجميلة فى ضوء النهار ، قد استحالت تحت ضوء القمر إلى منطقة شاعرية كأرض الأساطير الخرافية ، واستطاعا فى تلك اللحظة أن يشاهدا على مبعدة أمامهما جدار المجتلد . فأمر كراسوس حملة المحفات بجمع المحفات معا ، والبقاء إلى جانبها حتى يعود . وسار هو وهيلينا .

كان المكان صغيرا حقيراً فى خوائه . وكان الكثير من حديد السور المحيط بأرض التمرين قد سرق . وكان البلى قد دب بالفعل فى الألواح الخشبية ، وانهار نصف حائط المجتلد . وقاد كراسوس هيلينا فوق الرمال ، ووقفا هناك يتطلعان إلى المنصة الكبيرة . وبدا المجتلد صغيراً رثا للغاية ، لكن الرمال كانت كاللجين فى ضوء القمر .

وقالت هيلينا :

— سمعت أخى يتكلم عن هذا المكان . لكنه أطنب فى امتداحه بينما يبدو الآن على هذا القدر من الضآلة .

وحاول كراسوس أن يربط فى ذهنه بين ميادين الموت ، والمعارك الدموية ، والحملات الساحقة التى لا نهاية لها ، وبين هذه المدرسة الصغيرة الرثة ، لكنه لم يستطع . إذ لم يعن ذلك شيئاً بالنسبة له ولم يحس هو رغبة فى ذلك .

وقالت هيلينا :

ـ أريد أن أصعد إلى المنصة .

ـ كما تشائين . لكن بحذر . فقد يكون الخشب متآكلا .

وشقا طريقهما صاعدين إلى المقصورة التى كانت فخر باتيانوس ومبعث بهجته فى يوم من الأيام ، وكانت المظلة المخططة تتدلى فى أسمال خلقة ، وانطلقت الجرذان هاربة من بقايا الحشيات القديمة. وجلست هيلينا فوق إحدى الأرائك ، وجلس كراسوس إلى جوارها ثم قالت هيلينا :

ـ ألا تشعر بأى شىء نحوى ؟

فأجابها كراسوس قائلا :

ـ أشعر بأنك سيدة شابة كثيرة الجمال والذكاء .

فقالت هى فى هدوء :

ـ أما أنا فأشعر أيها القائد الكبير بأنك خنزير .

فانثنى نحوها ، فبصقت فى جمع وجهه واستطاعت أن ترى رغم ضعف الضوء ، كيف أضاء الغضب عينيه . هذا هو القائد ، وهذا هو الانفعال الذى لا يظهر أبدا فى حديثه . وأهوى عليها بيده ، وقذفت بها الضربة من فوق الأريكة ، فاصطدمت بالسور البالى الذى انشق تحت ثقل جسمها . ورقدت هناك ونصفها مدلى فوق حافة الشرفة

على ارتفاع عشرين قدما عن أرض المجتلد لكنها تماسكت وشدت نفسها إلى الأمام.

وظل القائد ساكنا فى مكانه. ثم انقضت عليه كقطة متوحشة، تخدش وتخمش، لكنه أمسك برسغيها وأبعدها عنه وهو يبتسم لها فى هدوء ويقول:

— الشىء الحقيق يختلف عن هذا يا عزيزتى، أنا أعرف.
وانتهت ثورة الغضب والعنف وطفقت تبكى. راحت تبكى كفتاة صغيرة أفسدها التدليل.

وأزالت الكحل الأسود الذى سال نازلا على خدودها أثناء البكاء. ثم عادت إلى المحفات، وزحفت إلى محفتها فى صمت. وسار كراسوس على قدميه.

وانطلق حملة المحفات عائدين على الطريق الصغير المؤدى إلى كابوا. وكان كايوس مازال نائما. كان الليل قد تجاوب نهايته وبدأ القمر يفقد تألقه اللامع. وبدأ نور جديد يغمر الأرض. وعما قليل يمزج السحاب الرمادى الشامل ضوء القمر بضوء النهار.

وشعر كراسوس، لسبب ما، بهزة متجددة من الحياة والقوة.

وغمره شعور لم يجربه إلا نادراً ، شعور بالحياة والحيوية قوى إلى حد كاد يدفعه إلى تصديق الأساطير القديمة التى تزعم أن هناك صفوة مختارة من البشر تضع الآلهة بذورها فى نساء البشر . وفكر لنفسه قائلا .. أليس من الممكن أن يكون هو واحداً من هؤلاء ! لنضع فى اعتبارنا فقط كيف حابته الحياة . لماذا لا يمكن إذن أن يكون هو واحداً من هؤلاء ؟

وقادته خطواته الواسعة إلى جوار محفة هيلينا ، فنظرت إليه فى استغراب وقالت :

ـــ ماذا كنت تعنى منذ فترة عندما قلت لى إن الشىء الحقيق يختلف ؟ ألست إنسانة حقيقية ؟ لماذا قلت مثل هذا الشىء الرهيب ؟

ـــ أكان رهيباً إلى هذا الحد ؟

ـــ أنت تعلم كم كان رهيباً . ما هو الشىء الحقيقى ؟

ـــ المرأة

ـــ أية امرأة ؟

فتغضن جبينه وهز رأسه . وجاهد فى بسالة ليحتفظ بشعوره بالعظمة ، فاستطاع الاحتفاظ بقدر كبير منه وترك محفتها تئد

الباب الأبيوسى ، وذهب إلى قائد حرس الباب وقال له فى شبه جفاء :

— ابعث معها فصيلة من الجنود لتوصيلها حتى بيتها فى سلام .

فأطاع القائد ، ورحلت هيلينا فى رعايتهم ، دون حتى تحية المساء . ووقف كراسوس يفكر ، فى الظل القاتم للباب . وراح قائد حرس الباب والقوات المنوط بها حراسته يرقبونه فى حب استطلاع ، ثم سأل كراسوس .

— ما الوقت الآن ؟

— الساعة الأخيرة على وشك النهاية . ألست متعباً ياسيدى ؟ فقال كراسوس .

— لا لست متعبا ، لست متعبا على الإطلاق أيها القائد .

ورق صوته بعض الشىء ثم قال :

— لقد مضى وقت طويل منذ أن وقفت مثل وقفة الحراسة هـــذه .

فأقرّه قائد الحرس قائلا :

— الليالى طويلة جدا . بعد نصف ساعة من الآن ، سيصبح

هذا المكان مختلفا تمام الاختلاف. سيدخل تجار الخضروات، وباعة اللبن يجرون أبقارهم، والحمالون وصيادو السمك، ومن على شاكلتهم بلا انقطاع. هذا باب كثير الزحام. وفي هذا الصباح يصعد المجالد هناك.

وأشار برأسه إلى الصليب الذى كان قد أصبح عند ذاك لا يكاد يبين، رمادى اللون، ونصف ظاهر فى عتمة الصباح. وسأله كراسوس.

— هل يزدحم خلق كثير؟

— حسن، ياسيدى - لن يشتد الزحام فى البداية، ولكنه سيزداد مع تقدم النهار. ويجب أن أعترف أن لمشاهدة رجل مصلوب سحرا خاصاً. وعندما يحل ظهر اليوم، سيزدحم الباب والأسوار المحيطة بنا هنا ازدحاماً شديداً. قد تظن أن فى مشاهدة الصلب مرة واحدة الكفاية، لكن ما يحدث غير هذا.

— ومن الرجل؟

— هذا مالا أعرفه. مجرد مجالد بقدر ما أعرف. مجالد قوى جداً فيما أعتقد. وأكاد أشعر بالأسف على الشيطان التعس.

فقال له كراسوس.

— وفر أسفك أيها القائد.

— لم أقصد ذلك ياسيدى . إنما قصدت فقط أن المرء يحس شيئاً على الدوام نحو المتبقى من التصفية .

— لو أنك تتذوق الاحتمالات الحسابية ، لعرفت أن عملية تصفيتهم بدأت منذ زمن بعيد ، ومن الضرورى أن يكون لها رجل آخر .

— أظن ذلك .

وانتهت الساعة الأخيرة . وبدأت الساعة الأولى مع نور الصباح وكان ضوء القمر قد حال ، وأصبحت السماء كاللبن العكر ، وهبط ضباب الصباح كالأرض البور فى كل مكان ، فيما عدا حيث امتد الخط الداكن للطريق العظيم بلا نهاية نحو الشمال . وينصب الصليب عاريا كئيباً تجاه السماء التى بدأ النور يغمرها . وفى الشرق ، بعيداً ، كان وهج قرمزى شاحب يبشر بالشمس المشرقة . وسر كراسوس أنه قرر ألا ينام ، ورحبت حالته النفسية بما فى بداية الشروق من حلاوة مرة معذبة بالآمال الكاذبة ، فالفجر على الدوام مزيج من الأسف والمجد .

وجاء حينذاك صبى صغير فى حوالى الحادية عشرة من عمره يسير وهو يحمل إبريقاً فى يده . وحياه قائد حرس الباب وأخذ الإبريق منه .

وقال يشرح لكراسوس:

— هذا ابنى . إنه يحضر لى النبيذ الساخن كل صباح . هلا حييته ياسيدى ؟ سيعنى ذلك شيئاً كبيراً بالنسبة له . وسيذكره فيما بعد . كنيته لكتوس أما اسمه الحقيقى فهو ماريوس . أنا أعرف أن من الجرأة أن أطلب ذلك منك ياسيدى ، لكن ذلك سيعنى شيئاً كبيراً له ولى .

فقال كراسوس .

— مرحى ماريوس لكتوس .

فقال له الصبى الصغير ،

— أنا أعرفك . أنت القائد . رأيتك بالأمس . أين درع صدرك الذهبى ؟

— إنه من النحاس وليس من الذهب ، وخلعته لأنه كان يضايقنى

— عندما يصبح لى درع فلن أخلعه أبداً .

ففكر كراسوس لنفسه قائلا .

— هكذا تعيش روما ، ويعيش مجد روما وتقاليد روما أبدا.

وكان المشهد قد مسه مساً قويا — بطريقة ما . وقدم له قائد الحرس الإبريق .

— أتشرب ياسيدى ؟

فهز كراسوس رأسه ، وعند ذاك دوى قرع الطبول على

مبعدة ، فأعطى قائد الحرس الإبريق للصبي ليحمله ، وصاح يصدر أوامره إلى فصيلة الجنود المنوطة بالباب . واصطف الجنود على طول كل من المصراعين للباب المفتوح ، ودروعهم ترتكز على الأرض إلى جانبهم ، وحرابهم الثقيلة مشرعة عالية فى الهواء . كان من العسير على الجنود أن يتحركوا ، فأزعج ذلك كراسوس ، لأنه شك فى أنه لو لم يكن موجودا هناك ، لما أغرقوا فى الاستعراضات العسكرية : وزاد قرع الطبول ، وما لبثت الصفوف الأمامية من فرقة موسيقية عسكرية ، أن ظهرت فى الطريق العريض الذى يصل بين الباب والساحة العامة . وكانت الشمس الطالعة ، قد لامست حينذاك قمم المبانى العالية . وبدأ فى نفس الوقت تقريباً قليل من الناس يظهرون فى الشوارع متجهين إلى الباب وإلى صوت الموسيقى العسكرية .

تقدمت ستة طبول ، وأربع صفارات ، ثم ستة من الجنود ، ثم المجالد عاريا وذراعاه مقيدتان بدقة خلف ظهره . ثم اثنا عشر جنديا آخرون . كانت فصيلة كبيرة بالنسبة لرجل واحد ، ولا يبدو على هذا الرجل أنه شديد الخطر أو شديد القوة . وعندما ازداد اقترابا ، استرجع كراسوس رأيه ، خطر بلاشك — مثل هؤلاء الرجال خطرون . وأنت ترى ذلك فى وجهه ، إذ لا تجد فى وجهه شيئاً من حرارة العاطفة أو الصراحة التى يراها المرء فى وجه الرومانى . فوجهه كالصقر ، أنف معقوف بارز ، والجلد مشدود

بقوة على عظام خد عالية ، شفاه رقيقة ، وعينان خضراوان فيهما كراهية كعين القط . ووجهه ملىء بالكراهية . لكنها ليست كراهية معبرة ، ككراهية الحيوان ، وكان الوجه كالتفاح . من ناحية الحجم ، لم يكن ضخما ، لكن عضلات جسده كالجلد والسوط المجدول . ولم يكن بجسده إلا جرحان حديثان : واحد مستعرض فى أعلى صدره ، والثانى فى خاصرته ، لكنهما ليسا عميقين ، والدم قد تجمد فوقهما . إلا أن تحت الجرحين وفوق كل جسده كانت آثار الجروح تبدو كالقماش المزركش حقيقة . وكان ينقص إحدى يديه أصبع ، بينما قطعت إحدى أذنيه كلها حتى الجمجمة .

وعندما شاهد الضابط قائد الفصيلة كراسوس ، رفع ذراعه يأمر رجاله بالوقوف . ثم خطا مقتربا وحيا القائد . وكان من الواضح أن الضابط ملىء بمعنى تلك اللحظة . وقال :

— لم أحلم قط ، بأنى سأنال الشرف والحظوة برؤيتك هنا ياسيدى .

فأحنى كراسوس رأسه وقال :

— إنه حادث سعيد .

ولم يكن هو الآخر بمستطيع أن يهرب من الشعور بالاتصال المطابق للموقف بينه وبين ذلك الرجل ، آخر من تبقى من حرب العبيد .

— أتضعه على الصليب الآن ؟

— هذه هي التعليمات التي صدرت إلى .

من هو ؟ أعنى المجالد. من الواضح أنه مجالد قديم العهد بالمجتلد . فأثر السيف في كل مكان على جسده ، لكن ، أتعرف من هو ؟

— معلوماتنا عنه قليلة . فقد كان ضابطاً ، ويقود كتيبة أو أكثر من ذلك ربما. ويبدو أنه يهودى كذلك . فقد كان لدى باتياتوس عدد من اليهود ، وهم يفوقون التراقيين فى القتال بالسكين المقوس فى كثير من الأحيان. بل إن باتياتوس ، فى حقيقة الأمر ، قدم شهادة بخصوص يهودى يدعى داود ، كان واحداً من القادة الأصليين للفتنة مع سبارتاكوس . قد يكون هذا هو اليهودى داود ، وقد لا يكون. فهو لم ينطق بحرف واحد منذ أن أحضروه إلى هنا ليشترك فى التصفية . وقد قاتل ببراعة فائقة — يا إلهى ، لم أر فى حياتى مثل هذا القتال بالسكين : اشترك فى قتال مزدوج خمس مرات ، وهذا هو سليما غير مصاب إلا بجرحين فى جسده . شاهدت جلاده ثلاث مرات بنفسى ، ولم أر فى حياتى أى قتال بالسكين أفضل من ذلك . وعرف فى النهاية أنه سيصلب ، ومع ذلك فقد قاتل كما لو كان نصره سيختم بالحرية . أنا لا أستطيع أن أفهم هذا .

— لا — حسن ، الحياة عملية غريبة أيها الشاب .

— أجل ياسيدى ، أنا أوافقك على ذلك .

وقال كراسوس فى تفكير :

— لو كان هذا هو اليهودى داود ، فهناك عدالة ساخرة فى نهاية الأمر . أأستطيع أن أتحدث إليه ؟

— طبعا ، طبعا . ومع ذلك ، فلا أظن أنك ستحصل منه على ما يرضيك . فهو وحش ، عنيد ، صامت .

— لأجرب .

وذهب إلى حيث يقف المجالد ، وقد أحاط به عند ذاك جمهور متزايد من الناس ، اضطر الجنود إلى ردهم إلى الوراء ، وأعلن الضابط فى زهو وخيلاء .

- أيها المجالد ، لقد نالك شرف لم ينله سواك . هذا هو القائد ماركوس ليكينيوس كراسوس يتنازل بالحديث إليك .

وعندما أعلن اسم القائد ، تعالت هتافات الجماهير ، ولكن لا بد أن العبد كان أصم ، إذ لم يبد للاسم أو الهتافات أى رد فعل من جانبه . وظل يحدق إلى الأمام دون أن يتحرك والتمعت عيناه كقطعتين من الحجر الأخضر ، ولكن لم يبد على وجهه أى دليل آخر أو حركة .

وقال كراسوس

— أنت تعرفنى أيها المجالد . تطلع إلى .

ومع ذلك لم يتحرك المجالد العارى ، وهنا تقدم الضابط قائد الفصيلة وصفعه على وجهه بيده المفتوحة . وصاح :

ـ من يخاطبك أيها الخنزير ؟

وصفعه مرة ثانية ، ولم يبد المقاتل أى محاولة لتفادى اللطمة ، فأدرك كراسوس أن ذلك إذا استمر ، فلن ينتزع منه شيئا له قيمة . فقال كراسوس

ـ فى هذا الكفاية أيها الضابط . دعه وشأنه ، وانهض بما كلفت بعمله .

ـ أنا شديد الأسف . لكنه لم يتكلم . لعله لا يستطيع الكلام . فلم يره أحد يتكلم حتى مع رفاقه .

فقال كراسوس

ـ لا أهمية لذلك .

وراح يراقبهم وهم يتقدمون خارجين من الباب إلى الصليب . وكان تيار مستمر من الناس قد أخذ يتدفق عند ذلك خارجا من الباب ، وما يلبث أن ينتشر على الطريق حيث تتاح لهم رؤية سير العملية من عل دون أن يعترضهم شىء . واخترق كراسوس الجماهير حتى قاعدة الصليب ، يدفعه حب الاستطلاع على الرغم منه ، لمعرفة رد الفعل بالنسبة للعبد . فقد أصبحت مقدرة الرجل

الحجرية على حبس الكلام لونا من التحدى ، وبدأ كراسوس ، الذى لم ير من قبل رجلا - مهما كانت صلابته - يصلب فى صمت ، يفكر فى أى نوع من رد الفعل سيثيره هذا الصلب فى الرجل .

وكان الجنود مجربين قدامى فى عملية الصلب على صليب قائم . فمضوا فى عملهم فى سرعة وخبرة : مرروا حبلا تحت ذراعى العبد الذى كان مازال مكتوفا ومقيدا . وظلوا يمررون الحبل تحت ذراعيه حتى تساوى الطولان . وكان السلم الذى تركه العبيد هناك فى الليلة السابقة مسنودا إلى الصليب . وألقوا بطرفى الحبل فوق ذراعى الصليب ، وأمسك اثنان من الجنود بنهاية الطرفين . وعند ذاك ، وفى مهارة وسرعة ، شد المجالد إلى أعلى حتى وصل إلى العمود المستعرض من الصليب تقريبا . ثم صعد جندى آخر على السلم ، وسهل رفع المجالد إلى أعلى ، بينما ظل الآخران تحته يشدان الحبال . أصبح المجالد عند ذلك معلقا وكتفاه تحت النقطة التى تلتقى فيها الشريحتان الخشبيتان بقليل . وقفز الجندى الواقف على السلم إلى العامود المستعرض من الصليب ، وصعد جندى آخر على السلم يحمل مطرقة وعددا من المسامير الحديدية الطويلة ، وامتطى الذراع الآخر من العامود المستعرض .

وخلال ذلك راح كراسوس يرقب المجالد فى اهتمام . وعلى الرغم من أن جسده العارى تقلص عندما رفعوه إلى أعلى

فاحتك بخشب الصليب الخشن ، فقد ظل وجهه بلا تأثر ، مثلما ظل بلا تأثر مع ضغط الحبل المؤلم على لحمه ، وظل معلقا جامدا ، بلا حراك ، بينما لف الجندى الأول الحبل حول صدره وتحت ذراعيه ، وعقد الحبل حول العامود المستعرض . ثم سحبوا الحبل الأول من حول جسده وألقوا به إلى الأرض . وقطعوا الحبل الذى كان يقيد يديه ، وسحب كل جندى ذراعا من ذراعيه وعقد الحبل حول العامود المستعرض . ثم سحبوا الحبل الأول من حول جسده وألقوا به إلى الأرض : وقطعوا الحبل الذى كان يقيد به ، وسحب كل جندى ذراعا من ذراعيه وقيدها بلفة من الحبل حول الرسغ إلى العامود المستعرض . ولم يبد الألم على المجالد فعلا ، إلا بعد أن أرغمه الجندى الثانى على فتح راحته ، ووضع طرف المسمار الحار عليها ، وغرس المسمار فى الخشب بطرقة واحدة قوية . حتى حينذاك لم يتكلم ولم يصرخ ، لكن وجهه التوى وراح جسده ينثنى فى تشنجات عصبية . وغرست ثلاث طرقات أخرى المسمار خمس بوصات من الخشب ، وثنت طرقة أخيرة رأس المسمار كى لا تنزلق اليد منه . ثم تكررت نفس العملية مع اليد الأخرى ، وتلوى جسد المجالد فى ألم رهيب المرة الثانية ، والتوى وجهه مرة ثانية عندما اخترق المسمار عضلات وأعصاب يده . ومع ذلك لم يصرخ ، حتى على الرغم من الدموع

التى تساقطت من عينيه ، واللعاب الذى تقاطر من فمه المفتوح .

عند ذاك قطعوا الحبل الدائر حول صدره كى يتعلق جسده كله من يديه اللهم إلا من حبل يدور حول كل من رسغيه ليقلل الثقل على المسمارين . وهبط الجنود السلم ، وأخذوه بعيداً ، وهللت الجماهير — التى زادت عن المئات من الناس عند ذاك — للبراعة التى صلبت رجلا فى دقائق قليلة ليس إلا .

ثم أغمى على المجالد .

وقال الضابط يشرح لكراسوس .

— كلهم يغمى عليهم عادة . الصدمة التى يحدثها دخول المسامير هى السبب فى ذلك . لكنهم يسترجعون وعيهم دائماً ، وقد تمر أحيانا عشرون أو ثلاثون ساعة قبل أن يغمى عليهم من جديد . صلبنا يوماً عبداً غالياً ظل على وعيه أربعة أيام . بح صوته فلم يعد يستطيع الصراخ بعد ذلك ، لكنه ظل واعياً .

ومع ذلك فقد فقد وعيه عندما دقوا المسامير فى يديه . يا إلهى ! أنا عطشان .

ونزع الغطاء عن قارورة الماء وشرب طويلا ثم قدمها لكراسوس قائلا :

— ماء الورد ؟

فقال كراسوس :

— شكراً لك .

فقد أحس فجأة أن حلقه جاف وأنه متعب ، فشرب كل ما تبقى فى القارورة . وكانت الجماهير ما زالت فى ازدياد . وسأل كراسوس وهو يشير إليها برأسه .

— هل يظلون هنا طيلة اليوم ؟

— تبقى غالبيتهم حتى يستعيد وعيه فقط . لأنهم يرغبون فى مشاهدة ما يفعله عند ذاك . فهم يفعلون أشياء مضحكة . كثير منهم يصيح منادياً أمه . أنت لا تفكر فى العبيد بهذه الصورة أبدا أليس كذلك ؟

فهز كراسوس كتفيه ومضى الضابط يقول :

— سأضطر إلى أن أخلى ذلك الطريق ، فهم يعوقون المرور . قد تظن أن عندهم من الإدراك ما يجعلهم يتركون جانباً من الطريق مفتوحا . لكن لا . أبدا . كلهم سواء . الجمهور لا إدراك عنده على الإطلاق .

وأمر اثنين من الجنود بأن يفسحا من الطريق ما يكفى لحركة المرور .

وقال لكراسوس :

— أنا أتساءل . أتساءل هل أستطيع إزعاجك بشأن أمر ما ياسيدى . قد لا يكون ذلك من شئونى ، لكن حب استطلاعى شديد لمعرفة السبب فى قولك منذ قليل إنه إذ كان هذا هو اليهودى داود ، ففى ذلك عدالة ساخرة أو شيئاً من هذا القبيل .

فسأله كراسوس قائلا :

— هل قلت ذلك ؟ لا أدرى ماذا قصدت ، أو ما كنت أنوى قوله .

لقد انتهى الأمر . ويجب أن يبقى كثير من الماضى مطويا فى هدوء ، وليس فى حرب العبيد إلا مجد ضئيل : أما الانتصارات ، والتقديرات العظيمة فهى للآخرين ، أما بالنسبة له ، فليس له إلا المرضاة الصادرة عن المذبح الحقير المتمثل فى عملية الصلب . كم هو متعب من القتل والموت والتعذيب . لكن أين يذهب المرء ليهرب من ذلك ؟ إنهم يخلقون يوما بعد يوم مجتمعا تنهض الحياة فيه على الموت . لم يحدث من قبل فى كل تاريخ العالم أن سموا بالذبح إلى مثل هذا المستوى من الدقة والكمية — وأن ينتهى ؟ ومتى ينتهى ؟ وتذكر فى تلك اللحظة حادثا وقع بعد أن تولى قيادة قوات روما المهزومة المحطمة معنويا الفترة قصيرة . كان قد أعطى قيادة ثلاثة فيالق لصديقه ورفيق طفولته بيليكو ماميوس ، وهو رجل اشترك بالفعل فى حملتين هامتين ، ووجه ماميوس إلى أن يناوش سبارتاكوس

ويعرف هل كان فى وسعه أن يقتطع جزءاً من قواته . لكن ماميوس ، بدلا من ذلك ، وقع فى كمين ، وعندما وجدت الفيالق الثلاثة نفسها فى مواجهة العبيد فجأة ، فرت فى ذعر مخجل أعمى ، لم يصب مثله جيشاً رومانيا من قبل . وتذكر الصفات التى نعته بها ، والاتهامات بالجبن التى قذفه بها . لكن المرء لا يستطيع الذهاب إلى أبعد من ذلك مع رجل مثل ماميوس . أما بالنسبة للفيالق فقد اختلف الأمر ، فقد صف خمسة آلاف رجل من جنود الفيلق السابع ، وانتزع رجلا من كل عشرة رجال من الصفوف وأعدمهم بتهمة الجبن . وقال له ماميوس فيما بعد :

— كان من الواجب أن تقتلنى .

فكر عندئذ فى ذلك بكل وضوح وبكل دقة — فقد كان ماميوس والقنصل السابق ماركوس سرفيوس هما اللذان يرمزان بالنسبة له لكراهيته العميقة للعبيد ، لا يستطيع المرء أن يفصل الصدق فيها عن الكذب . فقد كان ماركوس سرفيوس مسئولا إلى حد ما عن موت رفيق سبارتاكوس الحبيب ، وهو غالى يدعى كريكسوس ، الذى عزلت قواته وحوصر وفنى هو وجيشه . لذلك قيل ، عندما وقع سرفيوس وماميوس فى أسر سبارتاكوس بعد ذلك بفترة طويلة وحوكما أمام محكمة العبيد ، قيل إن يهوديا يدعى داود جادل حول طريقة إعدامهما أو لعل اليهودى المدعو داود قد جادل ضد طريقة إعدامهما . كراسوس ليس متأكداً . فقد ماتا كاثنين من المجالدين : نزعوا عنهما ثيابهما ، هذين القائدين

للجيوش الرومانية المتوسطى العمر ، وأعطوا كلا منهما سكينا ودفعوا بهما إلى مجتلد أعد خصيصاً ليقاتل كل منهما الآخر حتى الموت . وكانت تلك هى المرة الوحيدة التى أقدم فيها سبارتاكوس على مثل هذا العمل ، لكن كراسوس لم ينس ولم يغفر له ذلك قط .

لكن هذه القصة لم تكن بالشىء الذى يستطيع أن يرويه للضابط ، وهو واقف هناك فى ظل الصليب .

وقال كراسوس .

ـــ لا أدرى ماذا كنت أقصد . لم يكن ذلك بالأمر الهام :

وكان متعبا فقرر أن يعود إلى بيته الريفى وينام .

- ٣ -

كان لب الموضوع ، هو أن كراسوس لم يكن ليعبأ كثيرا بمسألة هل صلب آخر المجالدين يمثل العدالة فى ضوء هذه الحقائق المعينة بالذات أم لا . فقد ضعف إحساسه بالعدالة ، وتضاءل إحساسه بالانتقام ، ولم يعد فى الموت جديد من أى نوع . فقد ملأته إبان طفولته ، شأن أطفال كثير من الأسرات الممتازة فى الجمهورية ، أساطير البطولة فى الماضى . وآمن إيمانا كاملا لا شاءلا بأن روما فوق البشر وفوق الأحداث . وأن الدولة والقانون يخدمان كل الناس وأن القانون عادل . وهو لا يستطيع أن يحدد بالضبط عند أية نقطة فقد إيمانه بذلك — ومع هذا فهو لم يفقد إيمانه كله قط . فهو مازال يحتفظ فى جهة ما داخل نفسه بقليل من الوهم ، ومع ذلك فهو الذى استطاع يوما أن يحدد ما هى العدالة بمثل هذا الوضوح ، لم يعد يقوى على ذلك اليوم . وهو قد شاهد منذ عشرة أعوام مضت أباه وأخاه يعدمان على أيدى زعماء الحزب المعارض ، ولم تنتقم لهما العدالة قط . ومن هنا زادت الحدة فى نفسه حول ما هو عدل وما هو ليس عدلا بدلا من أن تقل ، ولم يستطع أن يصل إلى تفسير للأمر يقبلـــه العقل ، إلا على أساس القوة والثروة فقط . فقد أصبحت العدالة تعنى فى كل منطق عدم المساس بالثروة والسلطان واختفت تدريجيا أهمية القواعد الأخلاقية التى تتناول ذلك . لذلك

لم يشعر ؛ وهو يرى بنفسه المجالد الأخير يصلب ، بإحساس العظمة لتحقيق رغبات الآلهة . والواقع أنه لم يحس شيئا على الإطلاق . والحقيقة البسيطة أنه لم يتأثر .

ومع ذلك فقد كانت الأسئلة التى تتناول العدالة والظلم تدور فى ذهن المجالد — وكانت الأسئلة مختلطة متداخلة فى الغيبوبة التى نتجت عن الألم والصدمة والإرهاق . كانت متداخلة فى خيوط ذاكرته التى لا حصر لها . وكان من الممكن ألا يستطيع فك هذه الخيوط . وكان من الممكن أن يستخلصها من موجات العذاب النافذة المعمية . وفى جهة ما من ذهنه ، كانت ذكرى الحادث الذى أشار إليه كراسوس محفوظة فى وضوح ودقة .

كانت المسألة مسألة عدالة بالنسبة للمجالدين كما كانت بالنسبة لكراسوس . فقد قيل فيما بعد ، عندما دون تاريخ ما فعله العبيد ، أولئك الذين كرهوا العبيد فى مرارة كبيرة ، وأولئك الذين لم يعرفوا مما فعله العبيد إلا أقل القليل ، قيل إنهم كانوا يأخذون الأسرى الرومانيين الذين فى حوزتهم ويجعلون الواحد منهم يقتل الآخر .

وعلى هذا أصبح من المسلم به — كما اعتاد السادة أن يعتبروا كل شىء أمرا مسلما به — أن السلطان عندما ينتقل إلى المضطهدين ، فإن هؤلاء يستعملون السلطان بنفس الطريقة التى كان مضطهدوهم يستعملونه بها .

وكان ذلك محفوظاً فى ذاكرة الرجل المدلى من الصليب .

لم يحدث قط أن أقيم احتفال للذبح على طريقة المجالدين ، عدا هذه المرة الواحدة، عندما أشار سبارتاكوس إلى النبيلين الرومانيين فى عاطفة مكبوتة من الغضب والكراهية وقال :

— كما فعلنا ، ستفعلان . اذهبا إلى الرمال عاريين ومعكما سكينان ، كى تتعلما كيف كنا نموت لتثقيف روما ولبهجة مواطنيها .

وكان اليهودى جالساً هناك فى تلك اللحظة ، يصغى فى صمت ، وعندما أخذوا الرومانيين ، استدار له سبارتاكوس ومع ذلك لم يقل اليهودى شيئاً . كانت رابطة كبيرة ، صلة عميقة قد نمت فيما بينهما ، فقد تضاءل مع مر السنين وخلال المعارك الكثيرة ، عدد الجماعة القليلة من المجالدين الذين فروا من كابوا . فقد دفعت الجماعة ضريبة خاصة من أرواح بنيها ، ومن هنا ازدادت الحفنة التى بقيت كقادة لجيش العبيد الضخم التحاماً والتصاقاً .

تطلع سبارتاكوس عند ذلك إلى اليهودى وسأله .

— هل أنا على صواب ؟ أم أنا على خطأ ؟

— ماهو صواب بالنسبة لهم ، ليس صوابا بالنسبة لنا أبداً .

— ليتقاتلا .

— ليتقاتلا إذا أردت أنت ذلك . وليقتل كل منهما الآخر . لكن ذلك سيؤذينا بنسبة أكبر . سيصبح ذلك دودة تأكل حشايانا . فأنت وأنا مجالدان . منذ زمن بعيد قلت إننا سنمحو حتى ذكرى

قتال الأرواح إلى على وجه الأرض .

— ... . لكن هذين الاثنين يجب أن يتقاتلا .

هذا الـ... هناك ، جزء صغير من ذاكرة رجل ... المسامير فى ... كراسوس قد تطلع إلى عينيه ، وكراسوس قد راقبه وهو ... . دائرة كبيرة قد اكتملت . وعاد كراسوس إلى بيته لينام ، لأنه لم ينم طيلة الليل ، وأصابه التعب كما هو متوقع بينما ظل الخالد يتدلى فاقد الوعى من المسامير .

من قرابة الساعة قبل أن تعود اليقظة إلى المجالد . فالألم كالطريق ، واليقظة تسافر على طريق الألم . ولو أن كل حواسه ومشاعره شدت كجلد الطبل ، فهناك من يقرع الطبل فى تلك اللحظة ، والموسيقى لاتحتمل ، وهو لم يستيقظ إلا على معرفة الألم . ولم يكن يعرف أى شىء آخر فى عالم الألم . فقد كان الألم هو العالم بأسره . وهو الأخير من ستة آلاف من رفاقه كانت آلامهم كآلامه ، لكن ألمه هو كان من الضخامة إلى حد لا يمكن تقسيمه أو المشاركة فيه . وفتح عينيه ، ولكن الألم كان كغشاوة حمراء تفصل بينه وبين العالم . كان كدودة صغيرة ، كدودة تتطور إلى فراشة ، فتصبح يرقة فى شرنقة ، والشرنقة منسوجة من الألم .

لم يعد إليه وعيه دفعة واحدة بل فى موجات . . كانت المركبة التى يعرفها خير معرفة هى العربة الحربية ، وكان هو يركب فى مركبة حربية تصدم بالأرض فتتقافز وتترنح فى طريق عودته إلى الوعى . كان صبياً صغيراً فى بلد جبلى ، وكان القوم الكبار ، السادة القادمون من بعيد ، المتحضرون النظفاء يركبون فى مركبات حربية . وكان هو يجرى على طول الممر الجبلى الصخرى يضرع من أجل أن يركبوه . وكان يصيح قائلا .

— ياسيدى — سيدى دعنى أركب .

ولم يكن واحد منهم يتكلم لغته . لكنهم كانوا يسمحون له ولأصدقائه فى بعض الأحيان بالجلوس فوق ذيل المركبة . وكان القوم الكبار كرماء . إذ كانوا يعطونه وأصدقاءه الحلوى فى بعض الأحيان . وكانوا يضحكون من الطريقة التى يتعلق بها الصغار ذوو الشعور السوداء الذين لوحتهم الشمس فى ذيل المركبة . لكنهم غالبا ما كانوا يهوون بسياطهم على الجياد لتسير، فيتطاير الصغار نتيجة للقفزة والحركة المفاجئة . حسن . لم يكن من المستطاع التكهن بهوية القوم الكبار القادمين من العالم الغربى ، فتقبل الطيب منهم مع الخبيث . لكنك عندما تقع من المركبة الحربية ،فالوقوع مؤلم .

ثم يدرك أنه لم يعد طفلا فى تلال الجليل ، بل رجلا مدلى من صليب . ويدرك ذلك فى مناطق ، لأنه لم يكن فى هذه اللحظة ، يملك كيانه كاملا فيدرك ذلك فى ذراعيه ، حيث استحالت الأعصاب إلى أسلاك ابيضت لفرط حرارتها ، والدم الساخن يتدفق على طول ذراعيه هابطا إلى السنام الملتوى لكتفيه ، ويدركه فى بطنه حيث استحالت معدته وأحشاؤه إلى عقد غاضبة من الألم والتوتر .

وكانت جماهير الناس التى ترقبه أمواجا متماوجة حقيقية وغير حقيقية . فبصره ليس على طبيعته عند هذه النقطة . نهو لا يستطيع أن يحقق البصر كما يجب ، ويرى الناس يطوون وينشرون كما يحدث للصورة تحت زجاج محدب . ورأى الناس بدورهم أن المجالد يعود إلى وعيه ، فراحوا يرقبونه فى شوق : لو أن ذلك كان مجرد صلب

آخر ، لما كان فى المناسبة أى جديد . فالصلب كان شائعا جدا فى روما . فعندما غزت روما قرطاجنة قبل ذلك الوقت بأربعة أجيال أخذت عنها أحسن ما استولت عليه : نظام المزارع ، والصلب ، الذى كان غنيمة لها قيمتها بين الغنائم . فقد استهوى روما شكل الصليب والرجل يتدلى منه . واليوم نسى العـالم أن الصلب كان قرطاجنيا فى الأصل ، لأنه أصبح رمزا للحضارة فى كل أنحاء العالم ، وحيثما تمتد الطرق الرومانية يذهب الصليب ونظام المزارع ، وقتال الأزواج ، والاحتقار الهائل للحياة الإنسانية المستعبدة ، والاندفاع الكبير إلى اعتصار الذهب من دم وعرق البشر .

ولكن ، حتى أحسن الأشياء يفقد رونقه مع الزمن ، ويصبح أطيب الأنبذة مملا عندما ينهل منه المرء الكثير . وتضيع عاطفة الرجل الواحـد فى عواطف الآلاف . ولم يكن أى صلب آخر ليخرج الجماهير من بيوتها . لكن ذلك كان موت بطل مجالد عظيم ، ضابط من ضباط سبارتاكوس ، مجالد خالد ، مجالد رائع فاز وعاش بعد القتال بلا نهاية . وفى الدور الذى يقوم به المجالد تناقض مثير لحب الاستطلاع على الدوام ، فهو العبد الذى يعدونه للموت ، أو هو الدمية المقاتلة . أكثر العبيد حقارة بين المحتقرين . ومع ذلك فهو ، فى وقت واحد ، الباقى الوحيد فى الميدان الدموى للمعركة .

لهذا خرجت الجماهير لترى المجالد وهو يموت . ولترى كيف سيحيى السر الكبير الذى يشترك فيـه كل البشر . ولترى كيف

سيسلك بعد أن دقت المسامير فى يديه . وكان هو شخصا غريبا انطوى على نفسه فى صمت . فجاءوا ليروا هل الصمت سيتحطم . وعندما لم يفلح دق المسامير فى تحطيم ذلك الصمت . فقد تلكئوا ليروا هل يتحطم الصمت عندما يفتح عينيه على العالم من جديد .

وقد تحطم الصمت . فعندما رأى الجماهير فى النهاية ، وعندما كفت الصور المرتبية عن التراقص أمام عينيه . صرخ صرخة ألم وعذاب رهيب .

والظاهر أن أحدا لم يفهم كلماته . ودارت المحاولات حول ما قاله فى الانفجارة الصوتية المعذبة . إذ كان البعض قد راهن على مسألته هل يتكلم أم يظل صامتا . ودفع البعض قيمة الرهانات ، ورفض البعض الآخر أن يدفع وسط مشاجرات غاضبة حول مسألته،هل نطق بكلمات ، أوكانت الصرخة مجردصرخة ألم ، أوهل تكلم بلغة أجنبية . وقال البعض إنه كان يستجير بالآلهة . وقال آخرون إنه كان ينشج مناديا أمه .

والحقيقة أن صرخته لم تكن شيئا من الاثنين لأنه فى الحقيقة صرخ يقول :

— سبارتا كوس ، سبارتا كوس ، لماذا فشلنا ؟

لو كان من المستطاع ، بطريقة معجزة ، فتح عقول وأذهان الآلاف الستة من الرجال الذين أسروا بعد فشل قضية سبارتاكوس وسقوطها إلى تراب التاريخ ، وتعريتها ورسم خريطة لها ليستطيع المرء أن يتتبع ، عائداً من لحظة الصلب ، خيوط الماضى المتشابكة المطوية التى انتهت بهم إلى الصليب — لو كان فى الإمكان رسم ستة آلاف خريطة لستة آلاف حياة بشرية ، ربما أمكن أن نرى أن ماضى الكثيرين منهم لا يختلف فى كثير . ومن هنا فمن المحتمل ألا تختلف آلامهم فى النهاية فى كثير لأنها آلام مشتركة ممتزجة . ولو أن فى السماوات آلهة أوربا وكانت دموعهم أمطاراً ، إذن لأمطرت الدنيا أياماً وأياماً ، لكن الشمس ، بدلاً من ذلك ، قضت على بؤسهم ، ونهشت الطيور لحمهم الدامى ، ومات الرجال .

وكان ذلك الرجل آخر واحد يموت ، وكان خلاصة الآخرين . كان ذهنه يمتلىء بمجمل الحياة الإنسانية ، إلا أن الإنسان فى مثل هذا الألم لا يفكر ، وتغدو الذكريات كالأحلام المفزعة . ولا يمكن ترتيب ذكرياته كما تعود إليه لأنها تصبح عديمة المعنى إذا فصلناها عن انعكاسات الألم . ولكن فى الإمكان تصنيف قصة من ذكرياته ، ومن الممكن إعادة ترتيب الذكريات لتأخذ شكلاً . وفى هذه الحالة ، لن يختلف الشكل كثيراً عن أشكال حياة الآخرين .

فى حياته أربع فترات . الأولى فترة عدم المعرفة ، والثانية هى فترة المعرفة ، وهذه امتلأت بالكراهية ، وأصبح خلالها مخلوقا كله كراهية . أما الثالثة فكانت فترة الأمل وزالت خلالها كراهيته وعرف فيها الحب العظيم والشعور بالزمالة لإخوانه من البشر . أما الفترة الرابعة فكانت فترة اليأس .

كان فى فترة عدم المعرفة صبيا صغيرا . وفى تلك الفترة كانت السعادة ، وتألق ضوء الشمس السائد يحيط به من كل جانب . وعندما بحث ذهنه المعذب وهو معلق على الصليب ، عن الرطوبة والمهرب من الألم ، وجد تلك الرطوبة المباركة فى تذكر طفولته . فقد كانت الجبال الخضراء إبان طفولته رطبة جميلة . وكانت مياه القنوات الجبلية تنحدر متألقة ، وقطعان الماعز السوداء ترعى على سفوح التلال . والتلال قد سويت إلى مدرجات عنيت بها أيد محبة . فكان الشعير ينمو كاللآلى ، والأعناب تنمو كالياقوت والزبرجد . وكان يلعب على سفوح التلال ، ويخوض فى الجداول ، ويعوم فى بحيرة الجليل الجميلة الواسعة . وكان يجرى كأنه حيوان صغير ، حرا ، بريا ، صحيحا ، وكأن إخوته وأخواته وأصدقاؤه يكونون مجتمعا هو فيه حر مطمئن سعيد .

كان يعرف الله حتى فى تلك الفترة ، وكانت لله عنده صورة واضحة أكيدة مفصلة بالنسبة لتصوره كطفل . فهو ينحدر من قوم سكنوا الجبال ، لهذا وضعوا الله فوق قمة لا يستطيع أن يحيا فيها .

فوق أعلى الجبال ، حيث لم يصعد إنسان من قبل ، كان الله . كان الله موجودا هناك وحده ، فالله واحد لا شريك له . [وكانت صورة الله فى مخيلتهم رجلا عجوزا لا يكبر ولا يتقدم فى السن ، تكسو لحيته صدره وتموج أرديته البيضاء التى تملأ السماء فجأة] . وكان إلها عادلا ، وإلها رحيما عادة ، لكنه كان على الدوام إلها منتقما . وكان الصبى الصغير يعرف ذلك . ولم يكن الصبى الصغير ليغيب ليلا أو نهارا عن عينى الله ، فالله يرى كل ما يعمل ، والله يعرف كل ما يدور بخلده .

وكان ينحدر من قوم أتقياء ، قوم شديدى الورع . وكانت خشية الله ممتزجة بحياتهم ، داخلة فى سداها ولحمتها ، كما ينسج الخيط داخلا خارجا فى العباءة . فكانوا عندما يرعون قطعانهم يرتدون عباءات طويلة مخططة ، ترمز كل رساعة (شرّابة) فى هذه العباءات إلى جزء ما من خشيتهم من ربهم . وكانوا يصلون لله صباح مساء . فكانوا يصلون عندما يجلسون لتناول خبزهم ، وكانوا عندما يتناولون قدحا من النبيذ يحمدون الله ويشكرون فضله ، حتى عندما كانت تحل بهم المصيبة ، كانوا يحمدون الله كيلا يظن أنهم مستاءون لما أصابهم وأن الكبر قد نالهم .

لذلك لم يكن من المستغرب أن يمتلىء الصبى ، الطفل الذى أصبح اليوم رجلا يتدلى من الصليب ، بمعرفة ووجود الله . كان الطفل يخاف الله ، وكان ربه ربا يخافه الإنسان ، لكن الخوف

كان نغما خفيضا بالنسبة لضوء الشمس السائد ، ولرطوبة الجبال والقنوات الجبلية . فكان الطفل يجرى ويضحك وينشد الأغانى، ويرعى الماعز والأغنام ، ويرقب الصبيان ممن يكبرونه وهم يتبارون فى رمى السكين الجليلى الحاد كالموسى . السكين الذى كانوا يحملونه فى أحزمتهم فى كبرياء . وكان له سكينه الخاص الذى نحته من الخشب ، والذى كان كثيرا ما يشترك به فى مبارزات تقليدية ساخرة مع إخوته وأصدقائه .

وكان إذا ما أجاد المبارزة ، أشار الصبية الكبار برءوسهم إليه فى حسد ، وقالوا .

— كالتراقى ، أيها الصغير ، أيها القرد ، أيها المسخ .

وكان التراقى بالنسبة لهم هو كل ما هو شر ، وهو كل من هو بارع فى القتال كذلك . فمنذ زمن بعيد ، بعيد جدا ، جاء الجنود المرتزقة إلى البلاد . ومرت سنوات عديدة من القتال قبل أن يطردوا الجنود المرتزقة ويقتلوهم . وكان اسم أولئك الجنود، المرتزقة التراقيين ، لكن الصبي الصغير لم ير واحدا منهم قط .

وكان يتطلع إلى اليوم الذى يستطيع فيه أن يثبت سكينا فى حزامه إلى جانبه ، وعندذاك يرون هل كان فى مثل وحشية التراقى. ومع ذلك فلم يكن كثير الوحشية ، إنما كان صبيا صغيرا رقيقا وسعيدا إلى حد كبير .

كانت تلك هى فترة عدم المعرفة .

أما فى الفترة الثانية من حياته ، فى فترة المعرفة ، لم يعد طفلا ، وغام ضوء الشمس السائد وأفسح مكانه لريح تبعث الرعدة فى البدن . فقد سحب حول نفسه ، مع الزمن ، عباءة من الكراهية ليحتمى بها ولتحميه . تلك هى الفترة التى كانت تمتد خلال ذهنه فى ومضات حادة من العذاب الأحمر وهو مدلى فوق الصليب . وكانت أفكاره عن تلك الفترة وحشية معوجة رهيبـــة ، وكانت الذكريات مبعثرة متداخلة كأجزاء اللغز التى تطالب بجمعها معا . شاهد تلك الفترة الثانية من حياته فى كتل الجماهير المتماوجة التى كانت ترقبه . شاهدها فى وجوههم ، وسمعها فى الأصوات الصادرة عنهم . وبينما ظل غضبه ثائراً لا يهدأ ، رجع بذاكرته ، المرة بعد المرة ، إلى تلك الفترة الثانية من حياته ، فترة المعرفة .

أصبح فى تلك الفترة يعى الأشياء ، وامحت طفولته نتيجة لذلك الوعى . أصبح يعرف أباه ، رجلا أسمر الوجه ، قسّاه العمل ، يعمل من مطلع الصباح حتى مهبط الليل — ومع ذلك فلم يدنه ذلك الكدح قط . وعرف الأسى . وماتت أمه وبكوها جميعاً . وعرف الضرائب ، ذلك لأنه على الرغم من كثرة ما كدّ أبوه ، لم يجد يوما ما يكفى لملء بطونهم . مع أن الأرض كانت تعطى كأحسن ما تعطى أى أرض أخرى . وعـــرف الهوة الشاسعة التى تفصل بين الأغنياء والفقراء .

وظلت الأصوات على ما هى عليه ، كما كانت من قبل ، إلا أن الفارق ، أنه عند ذاك كان يسمع الأصوات ويفهمها ، بينما كان يسمعها من قبل ولا يفهم معانيها . فعندما كان الرجال يتكلمون فى ذلك الحين ، كانوا يسمحون له بأن يقف على مقربة . وأن يصغى ، وكانوا من قبل يحثونه على الخروج من المنزل لينصرف إلى لعبه .

كما أنهم أعطوه سكينا ، لكن السكين لم يجلب معه السرور . فقد ذهب فى أحد الأيام مع أبيه عبر التلال مسافة خمسة أميال كاملة ، إلى حيث كان رجل يشتغل فى الحديد ، ومكثا هناك ثلاث ساعات طويلة إلى جانب الكور ، بينما كان الحداد يطرق سكينا له . وظل أبوه والحداد يتحدثان طول الوقت عن المصائب التى حاقت بالأرض ، وكيف يعتصرون الرجل الصغير . وبدا كأن أباه وصانع الحديد يتباريان ، كل يظهر للآخر أنهم يعتصرونه أكثر منه .

قال الحداد :

ــ خذ هذا السكين مثلا ، سأبيعه لك بأربعة دنانير . من هذا الثمن سيأخذ جابى المعبد الربع عندما يأتى لتحصيل واجباته . وسيأخذ محصل الضرائب الربع . يبقى لى بعد هذا ديناران . ولو أردت أن أصنع سكينا آخر لوجب أن أدفع دينارين ثمنا للحديد . إذن أين ثمن عملى ؟ وأين ثمن القرن الذى يجب أن أشتريه للقبض ؟

وأين ثمن الطعام الذى أطعم به أسرتى ؟ أما إذا تقاضيت خمسة دنانير ثمنا للسكين ، فسترتفع أثمان كل شىء تبعا لذلك ، ومن الذى سيقدم على الشراء منى إذا كان فى استطاعته أن يشترى سكينا من حداد آخر وبثمن أقل ؟ الله أرحم بك فأنت على الأقل تأخذ طعامك من الأرض وتستطيع أن تملأ معدتك على الدوام .

ومع ذلك فقد كان لوالد الصبى رأى آخر . إذ قال :

— أنت تملك على الأقل قليلا من النقود فى يديك فى بعض الأحيـــان أما حالتى أنا فهى كما يلى : أنا أحصد الشعير وأدرسه وأملأ السلال ويلتمع الشعير كاللآلىء . ونشكر الإله الكبير : رب الأرباب ، لأن شعيرنا بمثل هـذا الجمال وملىء بكل هذا الغذاء . ومنذا الذى يتعرض للمتاعب ومخزن غلاله يفيض بسلال الشعير المتلألىء ؟ ولكن فى تلك اللحظة يصل جابى المعبد ويأخذ ربع الشعير للمعبد . ثم يأتى محصل الضرائب ويأخذ ربما آخر للضرائب . وأضرع إليه وأوضح له أن ما تبقى من الشعير لا يكفى إلا لتغذية بهائمى خلال الشتاء . فيقول لى . كل بهائمك إذن . وهذا هو الشىء الرهيب الذى نضطر إلى عمله . وبذلك عندما يحين الوقت ، لا نجد لحما أو حبا ، ويبكى الأطفال طلبا للطعام ، فنشد أقواسنا ونفكر فى الأرانب والغزلان القليلة الباقية على سفح الجبل . لكن لحمها نجس بالنسبة

لليهودى إلا إذا بوركت ، وإلا إذا أحلت شرعا . على هذا بعثنا بحاخامنا فى الشتاء الماضى إلى أورشليم ليستعطف رجال المعبد . وحاخامنا رجل طيب ، يجوع كما نجوع . لكن أياما خمسة مرت وهو ينتظر فى فناء المعبد ، قبل أن يرضى الكهنة بمقابلته . ثم أصغوا إلى ضراعته فى احتقار . ولم يعطوه حتى كسرة خبز ليسد جوعه الشديد . وقالوا أما لعواء أهل الجليل هذا من نهاية ؟ فلاحوكم كسالى ، يريدون الرقاد فى الشمس ويأكلون المن . ليعملوا بجد أكثر وليزرعوا مزيدا من الشعير . كان ذلك مانصحوا به . لكن أين يجد الفلاح مزيدا من الأرض ليزرع فيها مزيدا من الشعير ؟ وحتى إذا وجدنا المزيد من الأرض وزرعنا المزيد من الشعير ، أتدرى ما سيحدث ؟

فقال الحداد :

أعرف ما سيحدث . لن تحصلوا على أى زيادة فى النهاية ، فالأمور تسير بهذه الطريقة . يزداد الفقير فقرا ، ويزداد الغنى ثراء .

حدث ذلك عندما ذهب الصبي ليحصل على سكينه ، وما كان الأمر ليختلف عن ذلك فى قريته . فى القرية ، يحضر الجيران عندما ينزل الليل إلى بيت أبيه الصغير ، البيت الذى كانوا يعيشون فيه كلهم مزدحمين فى غرفة واحدة . وهناك يجلسون ويتحدثون حديثا لا نهاية له عن مدى صعوبة الحياة بالنسبه للفرد ، وكيف أنهم يعتصرونهم ويعتصرونهم — وإلى متى سيدوم ذلك الحال ؟ وهل تستطيع أن تعتصر الدم من حجر .

كانت تلك أفكار الرجل المعلق على الصليب . وكانت تلك أجزاء مؤلمة من الذكرى مرتبطة بآلامه . لكنه كان يرغب فى الحياة حتى وهو يتألم ، وحتى والألم يرتفع فى موجات فوق الاحتمال ثم يهبط إلى موجات من الألم محتملة . هو مع ذلك يرغب فى الحياة ، حتى بعد أن كتب عليه الموت وعلقوه فوق الصليب . أية قوة هى الحياة ، وأى دافع هى الحياة ، وأية أشياء يقدم عليها الناس عندما تصبح هذه الأشياء ضرورية لحقيقة البقاء البسيطة .

ولكن لماذا يحدث ذلك ؟ لم يكن يدرى . فهو لم يضرع إلى الله وهو فى آلامه ، لأن الله لا يمثل الرد على أسئلته أو التفسير لها . وهو لم يعد يؤمن بإله واحد أو بآلهة كثيرة ، فقد يئس من الله فى تلك الفترة الثانية من حياته ، لأن الله فيما يرى لم يكن يجيب إلا دعوات الأغنياء .

لذلك لم يضرع إلى الله . فالأغنياء لا يعلقون فوق الصلبان ، وهو قد أمضى حياته كلها فوق صليب ، زمناً لا نهائيا والمسامير تخترق يديه . أم لعل ذلك كان إنسانا آخر ؟ أم لعل ذلك الشخص كان أباه ؟ كان ذهنه لا يعمل جيدا عند ذاك ، فقد اختلطت الدوافع الجميلة الدقيقة المنظمة فى ذهنه ، وعندما تذكر كيف صلبوا أباه ، خلط بين نفسه وبين أبيه . وراح يفتش فى حنايا ذهنه الكليل المعذب ، ليتذكر كيف حدث ذلك . وتذكر وقت أن جاء الكهنة من المعبد ، فطردوهم هم الآخرين بأيد خاوية .

وسادت لحظة قصيرة من المجد بعد ذاك . وأضاء ذهنه بذكرى بطلهم العظيم يهوذا المكابى ، وعندما بعث الكهنة بأول جيش لمقاتلتهم ، انتضى فلاحوا التلال أقواسهم ومديهم وحطموا الجيش . واشترك هو فى المعركة ، مراهق فى الرابعة عشرة من عمره ليس إلا ، ومع ذلك فقد استعمل سكينه وقاتل مع أبيه جنبا إلى جنب وذاق طعم النصر .

لكن طعم النصر لم يدم طويلا . فقد جاءت طوابير ضخمة من الجنود المرتزقة المسلحين ضد ثوار الجليل ، وكانت خزانة المعبد بئرا من الذهب لا قاع له ، قادرا على شراء المزيد والمزيد من الجنود المرتزقة . ولم يستطع الفلاحون بمديهم وأجسادهم العارية مقاومة جيش كبير ، فتحطم الفلاحون وأسر منهم ألفان . واختاروا من بين الأسرى تسعمائة رجل ليصلبوهم . كان ذلك هو الأسلوب المتحضر ، أسلوب الغرب . وعندما انتظمت الصلبان كالخرز على سفوح التلال ، جاء كهنة المعبد ليرقبوها . وجاء معهم مستشاروهم من الرومان . . ووقف الصبى داود وشاهدهم يعلقون أباه بالمسامير فى صليب ، ويتركونه معلقا من يديه هناك حتى نهشت الطيور لحمه .

وها هو نفسه اليوم معلق على الصليب . كما بدأت القصة تنتهى ، ولشد ما هو متعب ، ولكم هو ملىء بالأسى والألم . ومع

مرور الوقت وهو معلق على الصليب — الوقت الذى لا صلة له بالوقت كما يعرفه البشر ، لأن الرجل وهو على الصليب لا يصبح رجلا — سأل نفسه أسئلة لا نهاية لها عن معنى الحياة التى تبدأ من العدم وتنتهى إلى العدم ، وبدأ يفقد تشبثه غير المعقول بالحياة ، وهو التشبث الذى كان يمده بالقوة منذ زمن بعيد . وللمرة الأولى فى حياته ، أحس بالرغبة فى الموت .

(ماذا كان سبارتاكوس قد قال له ؟ أيها المجالد أحب الحياة ، فى الحياة الإجابة عن كل سؤال . لكن سبارتاكوس قد مات ، وهو حى)

أحس بالتعب عند ذاك ، فقد تصارع التعب مع الألم ، ومن هنا أصبحت ذكرياته الممزقة تدور حول التعب . بعد أن فشلت الثورة ، غلوه هو وسبعمائة صبى غيره من أعناقهم فى السلاسل ، وساقوهم شمالا . ويا لطول ما مشوا . عبر السهل والصحراء والجبل حتى غدت تلال الجليل حلما من أحلام الجنة . وتغير سادتهم ، لكن السوط ظل هو هو على الدوام . ووصلوا فى النهاية إلى أرض ترتفع فيها الجبال أعلى من أية جبال فى الجليل وتتغطى قممها بغلالة من الثلج صيفا وشتاء .

وهناك أدخلوه إلى باطن الأرض لينقب عن النحاس . وظل يكدح طيلة عامين كاملين فى مناجم النحاس . ومات أخواه اللذان

كانا فى صحبته ، أما هو فقد ظل على قيد الحياة . فقد كان جسده من الصلب والعضلات المجدولة . ومرض الآخرون وتساقطت أسنانهم، أو مرضوا وأخذوا ينقيئون حتى ماتوا . أما هو فقد عاش ، وظل يكدح طيلة عامين كاملين فى المناجم .

ثم هرب . هرب إلى الجبال الموحشة والطوق الحديدى الذى يرتديه العبيد ما زال حول عنقه . وهناك التقطه رجال القبائل الجبلية البدائيون البسطاء ، وآووه ، وأزالوا الطوق الحديدى من حول عنقه ، وسمحوا له بالحياة معهم . وعاش معهم طيلة الشتاء . كانوا قوما طيبي القلوب ، فقراء ، يعيشون على الصيد والقنص ، ولا يكادوا يزرعون شيئا . وتعلم لغتهم ، ورغبوا فى أن يبقى معهم ويتزوج من واحدة من نسائهم ، لكن قلبه كان يحن للجليل ، وعندما جاء الربيع ، بدأ الرحلة جنوبا ، لكنه وقع فى أسر عصابة من التجار الفرس ، باعوه بدورهم إلى قافلة من العبيد متجهة غربا فباعوه فى المزاد فى مدينة صور على بعد مرمى البصر من وطنه تقريبا . لكم أطل الحزن قلبه حينذاك ! ولكم بكى بدموع مريرة لأن يكون على مثل هذا القرب من بلده وأقربائه وأهله الذين سيحبونه ويدللونه — وأن يكون رغم ذلك بعيدا كل هذا البعد عن الحرية . اشتراه تاجر فينيقى ، وقيده بالسلاسل إلى مجداف فى سفينة تنقل التجارة إلى موانى صقلية ، وأمضى عاما كاملا يجلس فى الظلام والقذارة ، يجر مجدافه فى الماء .

ثم استولى قراصنة يونانيون على السفينة ، وجروه من أعماقها وهو يطرف بعينيه كغراب قذر إلى سطح السفينة ، وفحصه البحارة اليونانيون المتوحشون وسألوه : ولم يستغرق التخلص من التاجر الفينيقى والبحارة طويلا ، فقد ألقوا بهم من فوق ظهر السفينة إلى الماء كحزم القش . أما هو وغيره من العبيد ، فقد فحصوهم وسألوا كل واحد منهم بدوره بلغة البحر الأبيض الآرامية — هل تستطيع أن تقاتل ؟ أم تستطيع أن تجدف فقط ؟

وكان هو خائفا من العقد الخشبى والظلمة والمياه فى قاع المركب كما قد يخاف الشيطان نفسه ، فكان رده :

— أستطيع أن أقاتل ، أعطونى الفرصة فقط .

وكان على استعداد لأن يقاتل جيشا بأسره لو استطاع حينذاك على ألا يرسل إلى قاع السفينة تحت أسطحها ليحنى ظهره فوق مجداف . على هذا أتاحوا له فرصة البقاء فوق السطح وعلموه — وذاق فى هذا السبيل كثيرا من اللطمات واللعنات — مهنة البحر ، كيف يطوى الشراع ، وكيف يصعد على حبال شراع السفينة ، وكيف يوجه السفينة بمجداف القيادة الذى يبلغ طوله ثلاثين قدما وكيف يجدل الحبل ، وكيف يوجه السفينة مهتديا بالنجوم ليلا . وأبدى فى أول قتال لهم مع سفينة رومانية ضخمة سرعة حركة وبراعة فى استخدام السكين الطويل ، مما أكسبه مكانا مأمونا فى

عصابتهم الوحشية الخارجة على القانون ، لكن قلبه كان خلوا من السعادة . وانتهى به الأمر إلى كراهية هؤلاء الرجال الذين لا يعرفون إلا الذبح والقسوة والموت . فقد كانوا يختلفون أشد الاختلاف عن الفلاحين البسطاء الذين أمضى طفولته بينهم كاختلاف الليل والنهار . وما كانوا يؤمنون بأى إله من الآلهة ، ولا حتى بيوسيدن إله البحر . وعلى الرغم من أن إيمانه الشخصى كان قد اهتز . فهو قد أمضى خيرة أعوام حياته بين المؤمنين . وكانوا عندما ينقضون على أى شاطىء من الشواطىء فإنما ليقتلوا ويحرقوا ويغتصبوا النساء .

كانت تلك الفترة من حياته هى الفترة التى أقام فيها حول نفسه جدارا صلبا غلف به نفسه . وعاش داخل هذا الجدار . واختفت دلائل الشباب من وجهه ذى العينين الخضراوين الباردتين . وأنفه المعقوف كالصقر . لم يكن قد أكمل الثامنة عشرة من عمره عندما انضم إليهم . لكن مظهره أصبح لا يشى بعمر . ودبت بوادر المشيب فعلا فى الشعر الأسود الذى كان يغطى رأسه . وانفرد بنفسه . فكان فى بعض الأحيان لا ينطق خلال أسبوع كامل بكلمة واحدة على الإطلاق . فيتركونه وشأنه . فهم يعرفون مقدرته على القتال فخافوه .

كان يحيا على حلم . وكان الحلم كالغذاء والشراب بالنسبة له .

ذلك الحلم هو أنهم فى يوم أو آخر . آجلا أو عاجلا سيهاجمون شاطىء فلسطين . وعند ذاك سينزلق نازلا على جانب السفينة ويسبح حتى الشاطىء . ويشق طريقه سيرا على الأقدام إلى تلال الجليل الحبيبة . لكن أعواما ثلاثة مرت . وهذا اليوم لم يأت قط فقد هاجموا الشاطىء الإفريقى أول الأمر . ثم عبروا البحر ليعملوا على طول الشاطىء الإيطالى . وقاتلوا على شواطىء أسبانيا . وأحرقوا البيوت الريفية الرومانية . واستولوا على الثروات والنساء التى وجدوها فيها . ثم عبروا البحر مرة ثانية . وأمضوا شتاء كاملا فى مدينة مسورة خارجة على القانون على مقربة من أعمدة هرقل ثم أبحروا خارجين من مضيق جبل طارق . وذهبوا إلى بريطانيا حيث أرسوا سفينتهم ونظفوها وأصلحوها . ثم أبحروا إلى أيرلندا حيث استبدلوا بقطع الأقمشة والحلى الرخيصة أدوات الزينة الذهبية التى تصنعها القبائل الأيرلندية . ثم إلى بلاد الغال ، صاعدين نازلين على الشاطىء الفرنسى . ثم عادوا إلى إفريقيا . وهكذا انقضت ثلاث سنوات — لم يسطوا فيها قط على شاطىء لكن الحلم والأمل ظلا فى نفسه — خلال تلك الفترة التى ازداد فيها قساوة عما يحق للرجل أن يكون .

لكنه تعلم الكثير فى تلك الفترة . تعلم أن البحر طريق تتدفق فوقه الحياة ، كما يتدفق الدم خلال جسم الإنسان . وتعلم أن العالم كبير ولا حدود له ، وتعلم أنه أينما يذهب المرء ، فهناك قوم بسطاء

فقراء، قوم كقومه هو، قوم ينبشون الأرض سعيا وراء قوتهم وقوت أولادهم — كى يدفعوا معظم ما يخرجونه من الأرض إلى زعيم أو ملك أو قرصان. وتعلم أن هناك رئيسا وملكا وقرصانا فوق كل من عداه من الرؤساء والملوك والقراصنة — واسم هذا هو روما.

وغرقت سفينتهم فى النهاية على يد سفينة حربية رومانية. وأخذوه هو والأربعة عشر الناجين من البحارة إلى أوستيا ليشنقوا. وبدا أن رمال كأسه الصغيرة من الحياة قد انتهت. لكن وكيلا للنتولوس باتيا توس اشتراه فى اللحظة الأخيرة لمدرسته فى كابوا.

هكذا كان شكل الفترة الثانية من حياة المجالد، فترة المعرفة والكراهية وقد استكمل ذلك الجزء فى كابوا. ففيها تعلم أقصى ما تصل إليه الحضارة من نقاوة.: تدريب الرجال على قتل بعضهم البعض لتسلية كسالى الرومان، ولإثراء رجل شرير قذر سمين يدعى متعهد المجالدين. وأصبح مجالداً. قصوا شعره قصيراً حتى قارب جمجمته. وزجوا به إلى المجتلد يحمل سكيناً فى يده، لا ليقتل من كان يكرهم، إنما ليقتل من كانوا مثله، عبيداً أو محكوما عليهم بالإعدام.

كان ذلك المكان هو الذى اجتمعت فيه المعرفة والكراهية.

إذ أصبح مستودعاً للكراهية، وكان المستودع يمتلىء يوماً بعد يوم، وعاش وحيداً فى زنزانته الجرداء القبيحة وقتلها للآمال منطوياً على نفسه . ولم يعد يؤمن بالله بعد ذلك . وعندما كان يفكر فى رب آبائه ، فإنما فى كراهية . وقال لنفسه يوماً :

— أريد أن أدخل إلى المجتلد مع ذلك الرجل العجوز الملعون الذى كان يقطن الجبال ، وسأتقاضاه ثمن كل الدموع والوعود التى لم تتحقق التى يبتلى بها البشر . وسأرد له رعده وبرقه . كل ما أريده هو سكين فى يدى ، وسأضحى له كما يجب وأعلمه شيئاً عن الغضب والسخط .

وشاهد فى أثناء نومه ذات يوم حلماً ، ورأى نفسه فى الحلم يقف عند عرش الله ، لكنه لم يكن خائفاً . وصاح يقول ساخراً ماذا ستفعل بى ؟ لقد عشت واحداً وعشرين عاماً ، فماذا تستطيع أن تصيبنى به أكثر مما أصابتنى به الدنيا . لقد رأيت أبى وهو يصلب ، وكدحت كالحشرة الدءوبة فى المناجم . فقد اشتغلت عامين فى المناجم وعشت عاما فى القذارة والمياه فى قاع السفينة ، والفئران تجرى فوق قدمى ، وكنت طيلة أعوام ثلاثة لصاً يحلم بوطنه ، وأنا الآن أقتل الرجال بالأجر . فلتحل عليك لعنة الجحيم ماذا ستفعل بى ؟ .

ذلك ما أصبحه فى الفترة الثانية من حياته . وخلال

تلك الفترة ، جلبوا إلى المدرسة فى كابوا عبداً تراقياً ، رجلاً غريباً ، رقيق الصوت ، له أنف مكسور وعينان سوداوان عميقتان .

وهكذا عرف هذا المجالد سبارتاكوس .

حدث ، بعد تلك الفترة بوقت طويل ، أن صلبوا عبداً رومانيا ، وبعد أن علقوه على الصليب أربعة وعشرون ساعة ، عفا عنه الإمبراطور نفسه ، وعاش العبد بطريقة ما . وكتب يروى ما أحسه وهو معلق على الصليب ، وكان أكثر ما يلفت النظر فيما كتبه ما قاله عن مسألة الزمن ، إذ قال . . لا يوجد بالنسبة المصلوب إلا شيئان ، الألم واللانهاية . قالوا لى إنى لم أمكث على الصليب إلا أربعة وعشرين ساعة ، لكنى مكثت على الصليب زمنا أطول من عمر هذا العالم . ولو أن الزمن لا وجود له ، لكانت كل لحظة على الصليب هى الأبد .

وفى هذا ، الأبد ، الغريب الذى يعذبه الألم ، انقسم ذهن المقاتل وبطلت تدريجاً قوة العقل المنظم ، واستحالت الذكرى إلى هلوسة . وعاش مرة ثانية فترات طويلة من حياته ، وتذكر كيف تحدث إلى سبارتاكوس لأول مرة وعاشها مرة ثانية . كان يدور حول أكثر ما يرغب فى إنقاذه من الحطام الذى لا معنى له والذى كان حياته ، الحياة العديمة القيمة لعبد لا اسم له فى تيار الزمن المكتسح .

(إنه ينظر إلى سبارتاكوس . ويراقب . وهو كالقط ، هذا الرجل ، وتزيد عيناه الخضراوان من الشبه بينه وبين القط . وأنت تعرف الطريقة التى يمشى بها القط ، فى توتر دائم . هذه هى الطريقة التى يمشى بها هذا المجالد ، فتحس أنك إذا قذفت به فى الهواء ، فإنه سيهبط على الأرض فى سهولة واقفاً على قدميه . وهو لا يكاد ينظر إلى أى شخص مباشرة ، إنما يرقبه ، بدلا من ذلك من جانبى عينيه . وهو يراقب سبارتاكوس بهذه الطريقة ، يوماً بعد يوم . ولا يستطيع أن يفسر ، حتى لنفسه ، الصفة التى تستدعى انتباهه إلى هذا الحد فى سبارتاكوس ، لكن ذلك ليس بالسر الكبير ، فهو كله توتر ، وسبارتاكوس كله استرخاء . وهو لا يكلم أحداً ، لكن سبارتاكوس يتحدث إلى الجميع . وكلهم يذهبون إلى سبارتاكوس ويحملون إليه همومهم . سبارتاكوس يدخل شيئاً إلى مدرسة المقاتلين هذه . إن سبارتاكوس يدمرها .

(كلهم ، عدا هذا اليهودى يأتون إلى سبارتاكوس ، وسبارتاكوس يعجب لذلك . لذلك ذهب فى يوم من الأيام فى فترة الراحة بين التدريبات إلى اليهودى وتحدث إليه . سأله .

(ـ أتتكلم اليونانية يارجل ؟

(فتحدق فيه العينان الخضراوان دون أن تطرفا ، ويدرك سبارتاكوس فجأة أنه أمام شاب صغير جداً ، لا يكاد يزيد على

كونه صبياً ، لكن ذلك يختفى وراء قناع . فهو لا ينظر إلى الرجل نفسه بل إلى القناع .

(ويقول اليهودى لنفسه . اليونانية — هل أتكلم اليونانية؟ أظن أنى أتكلم كل اللغات : العبرية والآرامية واليونانية واللاتينية وكثيراً غيرها من لغات أجزاء كثيرة من العالم . لكن لماذا أتكلم أى لغة ؟ لماذا ؟

(ويحثه سبارتاكوس فى رقة كبيرة قائلا .

— كلمة منى ، ثم كلمة منك . نحن بشر ولسنا وحيدين . يحل بك الهم الكبير عندما تحس أنك وحيد ، إنه لشىء رهيب حقا ، أن تحس أنك وحيد . لكنا هنا لا نشعر بالوحدة . لماذا نخجل عما صرنا إليه ؟ هل اقترفنا الآثام الرهيبة لنحضر أنفسنا إلى هنا ؟ لا أظن أننا فعلنا مثل هذه الآثام الرهيبة ، فأولئك الذين يضعون المدى فى أيدينا ويدفعوننا إلى القتل لبعث البهجة فى نفوس الرومانيين ، يقترحون أشياء أكثر فظاعة ، لذلك يجب ألا نخجل ويكره الواحد منا الآخر . فالرجل لا يملك إلا قليلا من القوة ، وقليلا من الأمل ، وقليلا من الحب . وهذه الأشياء كالبذور المزروعة فى كل البشر . لكن الإنسان إذا احتفظ بهذه الأشياء لنفسه ، فستذبل وتموت بسرعة كبيرة . وعند ذاك فليساعد الله ذلك الإنسان المسكين ، لأنه لن يملك شيئاً ، ولن تصبح الحياة

بالنسبة له جديرة بالحياة . هذا بينما إذا هو أعطى قوته وأمله وحبه إلى الآخرين ، فسيجد رصيدا لا ينتهى من مثل هذه الأشياء ، ولن تنضب هذه الأشياء فيه أبداً . وتصبح الحياة عند ذاك جديرة بالحياة . وصدقنى ، يا مجالد : إن الحياة هى أحسن شىء فى العالم. ونحن نعرف ذلك . فنحن عبيد كل ما نملكه هو الحياة . لذلك نعرف قيمتها ، والرومان يملكون كثيراً من الأشياء غيرها إلى حد أن الحياة أصبحت لا تعنى لهم الكثير . فهم يلهون بها . أما نحن فنأخذ الحياة مأخذ الجد ، وهـــذا هو السبب الذى يحتم علينا ألا نترك أنفسنا للوحدة وأنت كثير الوحدة يا مجالد . حدثنى قليلا .

(لكن اليهودى لا يقول شيئاً ، ويظل وجهه ، وتظل عيناه كما هما لا يتغيران على الإطلاق . ومع ذلك فهو يصغى . يصغى فى صمت وبقصد ، ثم يستدير ويبتعد . لكنه يتوقف بعد أن يمشى خطوات قليلة ، ويدير رأسه نصف استدارة ، ويراقب سبارتاكوس من جوانب عينه . ويبدو لسبارتاكوس أن فيه شيئاً لم يكن فيه من قبل ، شرارة ، حيرة ، بارقة أمل ربما .)

كانت تلك بداية الفترة الثالثة من الفترات الأربع التى يمكن تقسيم حياة المجالد إليها ، ومن الممكن تسمية هذه الفترة « فترة الأمل » فهذه الفترة هى التى زالت فيها الكراهية ، وعرف المجالد الحب

العظيم والشعور بالرفق تجاه الآخرين من بني جنسه . ولم يحدث ذلك دفعة واحدة ، ولم يحدث سريعا . إذ بدأ يتعلم الثقة بالإنسان جزءاً فجزءاً . وعن طريق ذلك الرجل ، تعلم حب الحياة . وكان ذلك هو الشيء الذى أسره فى سبارتا كوس منذ البداية الأولى ، الحب العظيم للحياة الذى يفيض به التراقى . فقد كان سبارتا كوس كالوصى على الحياة . ولم يكن الأمر مجرد تذوقه أو استمتاعه بحب الحياة ، إنما كانت الحياة تستوعبه ، كانت شيئاً لم يناقشه هو قط ولم يتعرض لفقده قط . وكان يبدو ، إلى حد ما ، أن هناك حلفا سريا بين سبارتا كوس وبين قوى الحياة .

تعلم المجالد داود من مراقبة سبارتا كوس أن يتبعه . وهو لم يكن يفعل ذلك تباهيا ، إنما كان يفعله فى الخفاء تقريباً . ففى أى وقت تتاح الفرصة ، ولم تكن ملحوظة مفتوحة ، وكان يقف على مقربة من سبارتا كوس . وكان سمعه حاداً كسمع الذئب ، فكان يصغى إلى كلمات سبارتا كوس ، ويأخذ هذه الكلمات معه ويكررها لنفسه ويحاول أن يتعلم ما تنطوى عليه هذه الكلمات . وخلال كل ذلك الوقت ، كان شيء يحدث فى داخله . كان يتغير ، كان ينمو . وكان قليل من التغيير ، وقليل من النمو ، يحدثان بنفس الطريقة تقريباً ، فى داخل كل مجالد فى المعهد . لكن الأمر كان مفرداً بالنسبة لداود . إذ كان ينحدر من قوم ، كانت حياتهم

مليئة بالإيمان بالله . وعند مافقد هو إيمانه بالله ، حدثت ثغرة فى حياته . وهو اليوم يملأ هذه الثغرة بالإيمان بالإنسان . كان يتعلم حب الإنسان ، وكان يتعلم عظمة الإنسان ، ولم يكن يفكر فيه من تلك الناحية ، إلا أن ذلك كان ماحدث له — ولبقية المجالدين إلى حد ما .

لم يكن ذلك بالشىء الذى يستطيع باتياتوس أو يستطيع أعضاء مجلس الشيوخ فى روما الإحاطة به . إذ كانت الثورة بالنسبة لهم قد نشبت كالانفجار الشامل ودون تدبير سابق ، ولم يسبقها ، بالنسبة لمعلوماتهم ، إعداد أومقدمة ، وهكذا دونوها إذ لم تكن أمامهم طريقة أخرى لتدوينها .

لكن المقدمة كانت موجودة : عميقة ، غريبة ، وتنمو نموا مطردا . ولم ينس داود يوما أول مرة سمع فيها سبارتاكوس يتلو أسفارا من الأوديسة . إذ سمع موسيقى جديدة ساحرة ، قصة رجل شجاع تحمل وقاسى الكثير ، لكنه لم يهزم قط ، وكان الكثير من أشعار مفهوما له . فهو قد عرف عذاب خيبة الأمل الذى يقاسيه المرء إذا اضطر إلى البعد عن وطنه . وهو قد عرف حيل القدر ذى النزوات . فقد أحب فتاة على تلال الجليل ، كانت شفتاها فى حمرة الخشخاش ، وخداها فى نعومة الزغب ، وتألم قلبه من أجلها لأنها ضاعت منه . لكن أى

موسيقى كانت تلك ! وأى روعة فى أن يستطيع عبد . عبد هو ابن عبد ولم يكن حرا ولو مرة واحدة ، تلاوة أشعار لا نهاية لها عن ظهر قلب من هذه القصة الرائعة ! هل عرف العالم من قبل رجلا مثل سبارتاكوس ؟ هل عرف العالم رجلا بمثل هذه الرقة وهذا الصبر ، وهذا التباطؤ عن الغضب ؟

وكان يتمثل أوديسيوس الحكيم الصابر ، فى ذهنه فى سبارتاكوس ، وظل الاثنان منذ ذلك الوقت بالنسبة له هما نفس الشخص . ووجد ، وهو الصبى عند ذاك الذى تختفى حداثة سنة تحت كل الأقنعة ، وجد بطله ونموذجه فى الحياة وللحياة ممثلا فى سبارتاكوس . وكان لا يثق أول الأمر فى هذا الميل من نفسه . فهو الذى طالما قال لنفسه . . لا تثق فى إنسان فلا يخيب أملك إنسان ، فانتظر وراقب وترقب لسبارتاكوس حتى لا يخيب ظنه حتى اكتمل إدراكه تدريجا أن سبارتاكوس لن يقل يوماً عن سبارتاكوس — وكان الإدراك أكثر من مجرد ذلك ، إذ انتهى إلى أن يفهم أن الرجل لا يقل عن نفسه . ولم يكن فهمه ذلك كاملا ، إنما كان بريقا من المعرفة لما فى الروعة والبهاء اللذين يكمنان فى مخلوق بشرى واحد من ثراء .

لذلك عندما اختير كواحد من أربعة مجالدين يتقاتلون زوجين زوجين حتى الموت إرضاء لنزوة شابين شاذين معطرين من روما ، عانى صراعا نفسيا وتناقضا وضيعا لم يجربه من قبل . كان صراعا

نفسياً من نوع جديد ، وعندما انتصر فى هذا الصراع ، نفذ لأول مرة نفاذا حقيقياً من الغطاء الواقى الذى كان قد غلف نفسه به . كان يعيش فى تلك اللحظة عندذاك وهو مصلوب. إذ كان الصواب قد عاد إليه من جـــديد وكان يصارع نفسه ، وانثالت من بين شفتيه الجافتين وهو معلق على الصليب الكلمات المعذبة التى قالها لنفسه من أربع سنوات مضت .

(إذ يقول لنفسه . . أنا أكثر الناس لعنة فى كل العالم لأن الاختيار قد وقع على كما ترى لأقتل الرجل الذى أحبه أكثر من أى رجل حى آخر . أى قدر قاس هذا . لكن هذا هو كل ما يتوقعه المرء من الرب أو الأرباب ، أو كائناً من كانوا ، الذين لا هم لهم إلا تعذيب الإنسان . فهذه هى كل رسالتهم . لكننى لن أحقق لهم ما يصبون إليه . ولن أعمل لحسابهم . فهم مثل هذين الخنزيرين الرومانيين المعطرين الذين يجلسان إلى جانب المجتلد فى انتظار تدحرج أحشاء رجل على الرمال. حسن . لن أحقق لهم ما يصبون إليه هذه المرة . وسأحرمهم متعة مشاهدة الاثنين وهما يتقاتلان ، هؤلاء القوم التعسون الفاسدون الذين لا يجدون متعة غير هذه . سيروننى وأنا أموت . لكن مشاهدة رجل يموت لن ترضيهم فى استطاعتهم رؤية ذلك فى أى وقت آخر . لكننى لن أقاتل سبارتاكوس فأنا أفضل أن أقتل أخى أولا . لن أفعل ذلك أبدا .

(لكن ماذا بعد ذلك ؟ لم يكن فى حياتى كلها أول الأمر

إلا الجنون ، ثم شفت الحياة هنا هـــذا الجنون . ماذا أعطانى سبارتاكوس ؟ يجب أن أوجه لنفسى هذا السؤال ، ويجب أن أجيب عنه . يجب أن أجيب عنه ، لأنه أعطانى شيئاً كبير الأهمية لقد أعطانى سر الحياة . الحياة نفسها هى سر الحياة . وكل إنسان يتحيز لجانب . فأنت فى جانب الحياة ، وأنت فى جانب الموت . وسبارتاكوس فى جانب الحياة ، ولذلك سيقاتلنى إذا اضطر لذلك لأنه يرفض أن يسلم بالموت ، ولن يسمح لهم بأن يقدموه الموت دون أن يتفوه بكلمة وأن يرد اللطمة لهم . إذ ذلك ما يجب أن أعمل . يجب أن أقاتل سبارتاكوس ، وستقرر الحياة أينا يبقى . يالله من قرار رهيب يتخذه المرء . أبلغت اللعنة بإنسان ذلك الحد من قبل ؟ لكن ذلك هو ما يجب أن يكون . ذلك هو ما يمكن أن يكون ولا شىء غيره .

وعاش فى الأفكار والقرار الذى اتخذه من جديد ، ولم يعد يدرى أنه كان يموت مصلوبا ، وأن القدر كان رحيما به إذ لم يكن من نصيبه أن يقاتل سبارتاكوس . والتقط ذهنه الذى حطمه الألم الماضى جزءاً فجزءاً ، وعاشه من جديد مرة ثانية ، هؤلاء هم المجالدون يقتلون مدربيهم فى قاعة الطعام . مرة ثانية ، هاهم يقاتلون قوات الحراسة بالمدى وبأيدهم العارية . مرة ثانية هاهم يتقدمون عبر الريف ، والعبيد يهرعون تاركين المزارع لينضموا إليهم . ومرة ثانية ، هاهم يطبقون على كتائب حراسة المدن ليلا ويبيدونهم على

بكرة أبيهم ويغنمون سلاحهم ودروعهم . كل ذلك ، عاش فيه مرة ثانية ، عاشه ، لاتبعا للمنطق أو لتاريخ الحوادث أو فى يسر ، إنما ككرة من اللهب الساخن تقذف إلى الوراء خلال الزمن .

(ويقول . . سبارتا كوس ، سبارتا كوس ؟ كانوا قد خاضوا معركتهم الثانية الكبيرة عند ذاك . وأصبح العبيد جيشاً . كانوا يبدون كالجيش فعندهم أسلحة ودروع عشرة آلاف جندى رومانى . وأصبحوا يصطفون بالمئات ، وبمئاتهم الخمس . وأصبح معسكرهم الليلى حصناً يحيط به جدار من الخشب وخندق كالحصن الذى تقيمه الفيالق وهى تتقدم . وكانوا يتدربون أربع ساعات يوميا على قذف الحربة الرومانية ، وطبقت شهرتهم ، والخوف المفزع مما أقدموا عليه معروف فى كل أنحاء العالم . وأصبح فى كوخ كل عبد ، وفى كل ثكنات للعبيد همس يدور حول شخص يدعى سبارتا كوس أشعل النار فى العالم . أجل لقد فعل ذلك . وأصبح له جيش عظيم . وعن قريب سيهاجم روما نفسها ، وسيمزق جدران روما فى غضبته . وهو يحرر العبيد حيثما يذهب ، وكل ما يحصل عليه من مغانم وأسلاب يدخل إلى بيت المال ملك للمجتمع — كما كان الحال فى الأيام الخالية عندما كانت القبيلة تملك كل شىء ، ولم يكن الفرد يملك ثروة . وجنوده لا يملكون شيئا سوى أسلحتهم والملابس التى

يرتدونها فوق ظهورهم والأحذية التى ينتعلونها فى أقدامهم. هذا هو سبارتا كوس اليوم.

(ويقول . . سبارتا كوس:

(وعادت القدرة على الكلام إلى هذا اليهودى داود شيئاً فشيئاً : إذ أصبح يتكلم فى بطء وتردد، لكنه يتكلم. وهاهوذا يتحدث إلى قائد العبيد.

(— سبارتا كوس، أنا مقاتل بارع. ألست كذلك؟

(— بارع، بارع جداً. أبرع مقاتل. أنت تقاتل ببراعة.

(— ولست جبانا، هل تعرف ذلك؟

(فيقول سبارتا كوس

(— عرفت ذلك منذ زمن بعيد، فأين المجالد الجبان؟

(— ولم أجبن يوما عن القتال؟

(— أبداً.

(— وعندما انقطعت أذنى عن رأسى، ضغطت على أسنانى ولم أصرخ من الألم قط.

(فيقول سبارتا كوس

(— ليس من العار أن تصرخ من الألم. لقد عرفت رجالا

أقوياء يصرخون من الألم . وعرفت رجالا أقوياء يبكون عندما تمتلىء نفسهم بالمرارة . ليس فى ذلك مايخجل .

(— لكننا ، أنت وأنا لانبكى . وسأصبح فى يوم من الأيام مثلك ياسبارتاكوس .

(— بل ستصبح خيرا منى . فأنت مقاتل تفوقنى براعة .

(— لا . لن أصبح أبداً نصف ما أنت عليه ، لكننى أظن أنى أقاتل جيدا . فأنا سريع جداً . كالقط . فالقط يستطيع أن يرى الضربة وهى قادمة . والقط يرى من خلال جلده . وأنا أشعر بمثل ذلك أحيانا ، بل أرى على الدوام تقريباً ، الضربة وهى قادمة . وهذا ما يدفعنى إلى أن أطلب منك شيئا . أريد أن أطلب منك هذا ، أريد أن تبقينى إلى جانبك . فى أى وقت تقاتل ، أريد أن أكون إلى جانبك . فسأحميك . لأننا إذا فقدناك ، فقدنا كل شىء . فنحن لانقاتل من أجل أنفسنا إنما نقاتل من أجل العالم بأسره . ولهذا أريد منك أن تبقينى إلى جانبك دائماً عندما تقاتل .

(— لكن هناك أشياء تستطيع القيام بها أكثر أهمية من الوقوف إلى جانبى . أنا فى احتياج إلى رجال يقودون جيشاً .

(— والرجال فى حاجة إليك . هل طلبت الكثير ؟

(— بل أنت تطلب القليل جدا ياداود . وأنت تطلبه لأجلى لا لنفسك .

(— إذن قل لى إن ذلك هو ماتريد .

(ويحنى سبارتاكوس رأسه موافقاً .

(— ولن يصيبك ضرر فى يوم من الأيام . سأحرسك ليلا ونهارا . سأحرسك .

وهكذا أصبح الساعد الأيمن لقائد العبيد . هو ، الذى لم يعرف طيلة حياته الشابة إلا إراقة الدماء والكدح والعنف ، أصبح يرى يومذاك آفاقا مشرقة ذهبية . وبدأت نتيجة ثورتهم تزداد وضوحا ووضوحا فى ذهنه . مادامت غالبية سكان العالم من العبيد، فسيصبحون عما قريب قوة لا يطاولها شىء . وعندذاك ستختفى الفواصل بين الشعوب والمدن ، ويعود العصر الذهبى مرة ثانية . إذ تقول أقاصيص وأساطير كل شعب إنه كان فى يوم من الأيام عصر ذهبى عاش فيه البشر بلا خطيئة ولا ضغينة ، وعاش فيه البشر معا فى حب وسلام ، لذلك فعندما ينتصر سبارتاكوس والعبيد على العالم بأسره ، سيعود ذلك كله مرة ثانية . وسيكون إعلان ذلك بالموسيقى العظيمة بطرق الصنوج ، والنفخ فى الأبواق وإنشاد كل البشر معا وهم يقدمون الحمد والشكر .

وسمع فى تلك اللحظة فى ذهنه المحموم ذلك الإنشاد الجماعى ، وسمع النغم المزدهى لصوت البشر ، إنشادا جماعيا تتعالى أصداؤه من سفوح الجبال .

وهو وحده مع ڤارينيا . وهو عندما ينظر إلى ڤارينيا ، يختفى العالم الحقيقى ويذوب ولا يبقى إلا هذه المرأة التى هى زوجة سبارتاكوس . وهى بالنسبة لداود أجمل امرأة فى العالم وأكثرهن فتنة ، وحبه لها كدودة تنهش أحشاءه . كم من مرة قال فيها لنفسه :

(- أى مخلوق حقير أنت لتحب زوجة سبارتاكوس ؟ فأنت مدين لسبارتاكوس بكل ما تملك فى هذه الدنيا . أهكذا تؤدى له دينه ؟ تؤديه له بأن تحب زوجته ؟ ياله من عمل قبيح حتى وإن كنت لا تجهر به ، حتى وإن كنت لا تظهره ، وزيادة على ذلك ، فهو شىء لاجدوى منه . انظر إلى نفسك . أمسك بمرآة أمام وجهك ، أشهد العالم يوما مثل هذا الوجه الصارم الوحشى ، كوجه الصقر ، وتنقصه اذن ، وتشوهه القطوع وآثار الجروح .

وهذه ڤارينيا تقول له :

- يالك من صبى غريب ياداود ؟ من أى بلد أنت ؟ هل كل قومك على شاكلتك ؟ ما أنت إلا صبى لكنك لاتبتسم أبدا ولا تضحك على الإطلاق . أى تكوين غريب هذا ؟

- لاتقولى صبيا ياڤارينيا . لقد أثبت أنى أصبح فى بعض الأحيان أكثر من صبى .

- هل فعلت ذلك حقا ؟ حسن : لن تخدعنى . ما أنت إلا صبى

يجب أن تكون لك فتاة تصاحبها وتمشيان معا عندما يكون المساء رائعا .

ألا يوجد الكفاية من الفتيات ؟

- عندى عمل أؤديه ، لاوقت عندى لذلك .

-- لا وقت للحب ؟ أوه ، ياداود . داود أى كلام تقول !

ياله من قول غريب !

فيجيبها فى دهشة قائلا :

- وأين نصبح ، إذا لم يعن كل واحد بعمله ؟ أتظنين أن قيادة الجيش ، وإيجاد الطعام لكل هذه الآلاف الكثيرة كل يوم، وتدريب الرجال ، عبث أطفال ؟ علينا أن نقوم بأهم شىء فى العالم ، وتريدين منى أن أغازل الفتيات ! لاوقت عندى لذلك .

- لا أريد منك أن تغازلهم ياداود ، إنما أريدك أن تصاحبهم .

- لا وقت عندك ؟ حسن . كيف يكون حالى ، إذا قال سبارتاكوس إنه لا وقت عنده لى ؟ كنت أرغب فى الموت فيما أظن . ليس هناك ما هو أهم من أن تكون رجلا ، مجرد رجل ، بسيط ، عادى ، إنسانى . أنا أعرف أنك تظن سبارتاكوس شيئا

أكثر من رجل . هو ليس كذلك، ولو أنه كان لما أصبحت له قيمة على الإطلاق . ليس سبارتا كوس سراً كبيراً . أنا أعرف ذلك . فالمرأة عندما تحب الرجل، تعرف عنه الكثير .

ويستجمع كل شجاعته ويقول

أنت تحبينه ، أليس كذلك ؟

ـ ماذا تقول ياصبى ؟ أنا أحبه أكثر مما أحب الحياة . أنا أموت من أجله إذا أراد منى ذلك .

(ويقول داود :

ـ أنا أموت من أجله .

ـ ذلك شىء آخر . فأنا أراقبك فى بعض الأحيان عندما تنظر إليه . ذلك شىء آخر . فأنا أحبه لأنه رجل . وهو رجل بسيط . لا تعقيد فيه . هو بسيط ورقيق ، لم يرفع صوته على قط، ولم يرفع على يدا . بعض الرجال يمتلئون بالأسف على نفوسهم ، لكن سبارتاكوس لا يشعر بالأسف على نفسه أو بالرثاء . لا . فهو لا يأسف على ولا يرثى إلا للآخرين . كيف تسأل عما إذا كنت أحبه ؟ ألا يعرف كل إنسان هنا مقدار حبى له ؟

وهكذا كان ذلك المجالد الأخير يتذكر ، فى فترات من آلامه، بوضوح وبدقة كبيرين ، أما فى الفترات الأخرى فكانت الذكرى وحشية مخيفة ، وأصبحت إحدى المعارك كابوسا من الأصوات

المفزعة ، ومن الدماء والعذاب ، ومن كتل الرجال الهائجة فى حركة متوحشة لاسلطان عليها . فقد أدرك العبيد عند نقطة أو أخرى خلال العامين الأولين من ثورتهم ، أن كتل العبيد التى تعمر العالم الرومانى لن تهب أو لن تستطيع أن تهب وتنضم إليهم . كانوا عند ذاك قد بلغوا منتهى قوتهم . أما قوة روما فتبدو كما لو كانت لانهائية . ونذكر من تلك الفترة ، معركة خاضوها ، معركة رهيبة شديدة الضخامة فى حجمها ، شاسعة فى أعداد الرجال الذين خاضوها لدرجة أن سبارتاكوس والرجال المحيطين به لم يستطيعوا خلال معظم اليوم وطول الليل إلا تخمين سير المعركة . ورأى سكان كابوا الذين كانو يرقبون المجالد المصلوب ، كيف أخـــذ جسده ينتهى ويتلوى خلال تلك الذكرى ، وكيف ســال اللعاب الأبيض من بين شفتيه ، وكيف أخذت أطرافه تنتفض كل على حدة فى ألم متشنج . وسمعوا أصوات تخرج من فمه ، وقال كثير من بينهم .

— لم يبق عليه إلا القليل . لقد انتهى تماماً .

(كانوا قد اتخذوا مواقعهم على قمة تل ، تل طويل ، له حافة طويلة منحدرة على كل من جانبيه . وكانت مشاتهم العديدة تنتشر على قمة التل مسافة نصف ميل فى كلا الاتجاهين . وكان أمامهم واد جميل يجرى فى وسطه نهر صغير ضحل ، نهر صغير متعرج ينحنى

أماما وخلفا ، والحشائش الخضراء تكسو قاع الوادى ، والأبقار ثقيلة الأثداء تمضغ الحشائش . وكان فى الجانب الآخر من الوادى حافة من الأرض أخذت عندها الفيالق الرومانية مواقعها . وكان سبارتا كوس قد أقام مقر قيادته فى وسط جيشه ، فسطاط أبيض أقيم على راية تطـــل على المنطقة بأسرها . وكان يدور فى ذلك الفسطاط ما كان قد أصبح عند ذاك من الضروريات الدائمة لمقر قيادة معركة ، إذ كان يجلس سكرتير وأمامه أدوات الكتابة والورق . ويقف خمسون عداء على استعداد للاندفاع فى الحال إلى أى جزء من ميدان المعركة . وأقيم صارلجندى الإشارة الذى يقف على صارية يحمل أعلامه المختلفة ذات الألوان البراقة . وكانت تعد خريطة كبيرة لمنطقة القتال على منضدة طويلة فى وسط الخيمة الكبيرة .

(تلك كانت أساليب العبيد ، وهى التى استنبطوها خلال عامين من الحملات المريرة ، تماما كما استنبطوا لأنفسهم خطط القتال فى المعركة . هاهم قادة الجيش يقفون حول المنضدة ، يتطلعون إلى الخريطة ، ويتحققون من صحة المعلومات التى تتناول حجم ونوع القوات التى تواجههم . ثمانية رجال حول المنضدة . فى أحد أطرافها يقف سبارتا كوس ، وداود إلى جواره . ولو أن غريبا تطلع إليه لأول وهلة ، لقال إن ذلك الرجل ، سبارتا كوس ، فى الأربعين على الأقل . فقد وخط الشيب شعره الجعد وأضحى

أنحف من قبل ، ونشأت هالات سوداء تحت عينيه لحاجته إلى النوم .

(وسيقول من يراه ، إنه فى سباق مع الزمن . وإنه يحمل الزمن على كتفيه ، وإن الزمن يركبه ، وستكون تلك ملاحظة حاذقة لأن الرجل الذى يهيب بالعالم كله ويناديه ، لا يوجد إلا مرة واحدة فى كل فترة ، ومرة فى كل عدد من السنين ومر القرون . وتمر القرون ويغير العالم وجهته ، لكن ذكرى هذا الرجل تخلد على الدوام . ولم يكن ذلك الرجل منذ زمن قصير إلا مجرد عبد ، أما اليوم فمن هذا الذى لم يسمع باسم سبارتا كوس ؟ لكنه لم يجد من الوقت المتسع للتوقف وإمعان الفكر فيما أصابه . وكان هو أقل الناس قدرة على إيجاد الوقت للتفكير فيما حدث داخل نفسه ، خلال عامين ، الأمر الذى أحاله من الرجل الذى كانه إلى الرجل الذى أصبحه اليوم . فهو اليوم قائد الجيش من حوالى خمسين ألف رجل ، وهو من بعض النواحى أحسن جيش عرفه العالم على الإطلاق .

(فهو جيش يحارب من أجل الحرية فى أبسط صورها وأبعدها عن الزخرف . والعالم قد شهد فى الماضى جيوشا لانهاية لها ، جيوشا حاربت من أجل الاستيلاء على شعوب أو مدن أو ثروة أو مغانم أو قوة أو سيطرة على هذه المنطقة أو تلك ، لكن هذا يحارب من أجل الحرية والكرامة الإنسانية ، جيش لا يدعى ملكية

أرض أو مدينة لأن أفراده تجمعوا من كل البلاد والمدن والقبائل، جيش يشترك كل جندي فيه في ميراث عام من العبودية والكراهية الشاملة لمن جعلوا من غيرهم من الرجال عبيدا. هذا هو جيش أخذ على نفسه أن ينتصر، فهو لا يملك الجسور التي يتراجع عليها، ولا الأرض التي يحتمي بها أو يستريح عليها، وهذه لحظة تتغير فيها حركة التاريخ، فهي بداية، وهي انتفاضة، وهي همة بلا كلام وهي نذير، وهي وميض من النور ينذر برعد يهز الأرض وبرق يعمى الأبصار. هو جيش تفتحت بصيرته فجأة على أن النصر الذي أخذ على نفسه أن يحرزه، يجب أن يغير العالم، وهو لهذا يجب أن يغير العالم أو لن ينتصر.

(ولعل سؤالا يقوم في ذهن سبارتاكوس، وهو يقف أمام الخريطة متأملا: عن كيف خرج هذا الجيش إلى الوجود. ويفكر في حفنة المجالدين الذين شقوا طريقهم خارجين من مدرسة متعهد المجالدين البدين، ويعتبرهم حربة مندفعة تبعث الحركة في بحر من الحياة، كي ينفجر فجأة سكون عالم العبيد الصابر واستقراره. ويفكر في الصراع الذي لا نهاية له لتحويل هؤلاء العبيد إلى جنود، وفي حملهم على العمل معا والتفكير معا، ثم يحاول أن يفهم لماذا توقفت الحركة.

(لكن الوقت الآن لا يسمح بالكثير من مثل هذا التفكير. لأنهم ذاهبون الآن إلى القتال، ويثقل قلبه الخوف. فهذه عادته

قبل المعركة، وعندما تبدأ المعركة يتبدد كثير من هذا الخوف ، لكنه يشعر بالخوف فى تلك اللحظة : فينظر إلى رفاقه حول المنضدة ، لماذا تبدو وجوههم بمثل هذا الهدوء ؟ ألا يشاركونه خوفه ؟ ويرى كريكسوس ، الغالى ذا الشعر الأحمر ، وعينيه الصغيرتين الزرقاوين غائرتين وهادئتين فى وجهه الأحمر النمش ، وشاربه الأصفر الطويل ينزل ملتفا حول ذقنه . وهذا جانيكوس ، صديقه وأخوه فى العبودية وفى القبيلة . وهذا كاستوس ، وفراكسوس ، ونوردو ، الإفريقى الأسود ذو الأكتاف القوية ، وموسار ، المصرى النحيل ، الرقيق ، الحاضر البديهة ، واليهودى داود — لا يبدو على واحد منهم الخوف . لماذا هو خائف إذن ؟

ويقول لهم عند ذاك فى حدة .

(— حسن يا أصدقائى — ماذا سنفعل ؟ أنقف هنا اليوم كله ، نخمن نحو ذلك الجيش المرابط فى الجانب الآخر من الوادى ؟

(فيقول جانيكوس .

(— إنه جيش كبير جداً . إنه أكبر من أى جيش رأيناه أو قاتلناه ، أنت لا تستطيع عدهم ، لكنى أستطيع أن أخبرك أننا قد ميزنا أعلام عشرة فيالق . لقد استدعوا الفيلقين السابع والثامن من بلاد الغال ، واستدعوا أكثر من ثلاثة فيالق من إفريقيا واثنين من أسبانيا . لم أر من قبل جيشاً مثل هذا ، لم أره طيلة أيام

حياتى ، يجب أن يكون عدد الرجال المرابطين فى الجانب الآخر من الوادى سبعين ألفاً .

وكريكسوس هو من يتطلع دواما إلى الخوف أو التردد . ولوأن الأمر كان بيد كريكسوس ، لكانوا قد استولوا على العالم كله بالفعل . فليس له إلا شعار واحد ـ غزو روما ـ كفوا عن قتل الفئران وأحرقوا عشهم . ويقول عند ذاك .

ــ أنت تتعبنى ياجانيكوس . لأن جيش الأعداء بالنسبة لك هو دائماً أكبر جيش ؛ والوقت على الدوام هو أسوأ وقت المعركة . سأقول لك شيئاً ، أنا لا أهتم مثقال ذرة بجيشهم . ولو أن الأمر بيدى ، لهاجمتهم الآن ، فى هذه اللحظة ، وليس بعد ساعة أو يوم أو أسبوع من الآن .

ويريد جانيكوس أن يدفع عن نفسه اللوم ، فيقول إن من المحتمل أن يقسم الرومانيون قواتهم . فقد فعلوا ذلك من قبل وقد يفعلونه مرة ثانية .

فيقول سبارتاكوس :

ــ لن يفعلوا . ولك أن تثق برأيى هذا . إذ ما الذى يدفعهم إلى ذلك ؟ نحن كلنا هنا أمامهم . وهم يعلمون أننا كلنا هنا . ما الذى يدفعهم إلى ذلك إذن ؟

— عدد كبير — سبعون ألفاً على الأقل .)

فيهز سبارتاكوس رأسه مكتئبا ويقول :

— أوه .. هذا عدد كبير ، عدد كبير جداً . لكنى أظنك على حق ، نحن مضطرون إلى قتالهم هنا .

ويحاول أن يظهر بمظهر المستخف ، لكن قلبه لا يحسن الاستخفاف على الإطلاق .

(ويقررون أن يبدءوا هجومهم على جناح الجيش الرومانى بعد ثلاث ساعات ، لكن المعركة تبدأ قبل ذلك . إذ ما يكاد يختلف القادة يعودون إلى كتائبهم ، حتى يشن الرومانيون هجومهم على وسط جيش العبيد . وليس فى المعركة من تكتيك عسكرى معقد ،

(ويقول موسار المصرى .

(— أنا أتفق لأول مرة مع كريكسوس ، وذلك شىء نادراً ما يحدث ، لكنه على صواب هذه المرة . ذلك جيش كبير هناك عبر الوادى ، وستضطر إلى قتاله إن آجلا أو عاجلا . ولعل من الأفضل أن يحدث ذلك عاجلا . فهم قادرون على البقاء أكثر منا لأنهم سيأكلون ولن نجد نحن ما نأكله بعد فترة من الزمان . وإذا تحركنا ، وجدوا الفرصة التى يبغونها .

(فيسأله سبارتاكوس قائلا .

(— كم عدد رجالهم فيما تظن؟)

وليس فيها مناورات بارعة . إذ يقوم فيلق بالهجوم كرأس الحربة على قلب جيش العبيد ، كحربة يلقونها على مقر القيادة ،ويتدفق الجيش الروماني الضخم بأسره مهاجما خلف الفيلق . ويظل داود إلى جانب سبارتاكوس ، ويستطيعان من مقر القيادة أن يوجها دفاعا متناسقا لمدة تقل عن الساعة . ثم يحيط بهما القتال ويبدأ الكابوس . ويتحطم الفسطاط وتجرفهما المعركة كالطوفان ، ويزأر إعصار حول سبارتاكوس .

(هذا هو القتال . الآن يستطيع داود أن يدرك أنه فى معمعة القتال ، وأن كل شىء آخر الى جانب هذا ، هو مجرد مناوشة. فى هذه اللحظة لا يصبح سبارتاكوس قائدا لجيش كبير، إنما يصبح مجرد رجل يحمل سيفا. والدرع المربع الذى يحمله الجندى ويقاتل كالجحيم نفسها . تتمخض المعركة من حولهما . وتقودهما المعركة بعيدا ، منفردين ، فيقاتلان من أجل حياتهما . ثم يهرع مئات الرجال لمساعدتهما ، ويتطلع داود إلى سبارتاكوس فيرى التراقى يضحك من خلف الدم والعرق .

ويصيح قائلا :

(— ياله من قتال . ما هذا القتال يا داود ؟ هل ستقدر لنا الحياة فى قتال مثل هذا لنرى الشمس وهى تشرق ؟ من يدرى ؟

ويفكر داود قائلا . . إنه يحب القتال . أى رجل غريب هذا ، انظر كيف يحب المعركة . انظر كيف يقاتل . إنه يقاتل مثل

بطل من أبطال أساطير الشمال القدامى ، إنه يقاتل كواحد من أبطال تلك الأغنية التى يغنيها وهو لا يدرى أنه يقاتل بنفس الطريقة هو الآخر ، وأنه يجب أن يقتل قبل أن تمس حرية سبارتاكوس . فهو كالقط الذى لا يتعب أبداً ، قط كبير ، قط الغاب ، وسيفه كالمخلب . وهو لا ينفصل عن سبارتاكوس أبداً ، والطريقة التى يستطيع بها البقاء دائماً إلى جواره ، تحمل المرء على الظن بأنه موصول بسبارتاكوس ، وهو لا يرى إلا القليل جداً من المعركة . لا يرى إلا ما هو أمامه وأمام سبارتاكوس مباشرة ، لكن فى ذلك الكفاية . ويعرف الرومانيون أن سبارتاكوس فى هذا المكان ، فينسون الحركات الرسمية للفرق التى يتدرب عليها جنودهم سنوات ليتقنوها . ويتجمهرون ، يدفعهم ضباطهم ، يقاتلون ويخدشون للوصول إلى سبارتاكوس ، لجره أرضاً ، لقتله ، لقطع رأس الوحش . ويزداد اقترابهم منه إلى حد أن يستطيع داود سماع كل الشتائم القذرة تنهال من أفواههم . إذ يعلو صوتها على زئير المعركة المدوى . لكن العبيد يعلمون كذلك أن سبارتاكوس فى ذلك المكان ، فيندفعون من الجانب الآخر إلى قلب المعركة .

ويحملون اسم سبارتاكوس عالياً كالعلم ، ويتماوج فوق كل ميدان القتال كالعلم ، سبارتاكوس ! وتستطيع سماعه على بعد

أميال من المعركة ويسمعون صوت المعركة فى مدينة مسورة على بعد أميال خمسة من الميدان .

لكن داود يسمعه دون أن يصغى لأنه لا يعرف شيئاً إلا ما يقاتله وإلا ما هو أمامه . وتزداد المعركة وحشية ، بينما قوى المجالد تخور وتضعف ، وتجف شفتاه ، ولا يدرى أن المعركة تمتد عن ميلين من الأرض . ولا يدرى أن كريكسوس قد حطم فيلقين وأنه يطاردهما . هو لا يعرف إلا ذراعه وسيفه وسبارتاكوس المجاوز له . وهو لا يدرك حتى أنهما شقا طريقهما مقاتلين نازلين سفح التل إلى قاع الوادى حتى تبدأ أقدامه تغوص إلى المفصل فى الأرض المعشبة الرخوة ثم ينزلان إلى النهر . ويستمر القتال وهما واقفان فى الماء غارقين فيه حتى الركبة ، والماء يجرى أحمر قانيا كالدماء . وتغرب الشمس ، وتستحيل السماء كلها حمراء ، تحية مرة منها إلى آلاف الرجال الذين يملئون الوادى بكراهيتهم وصراعهم . وتخف المعركة فى الظلام لكنها لا تتوقف قط . ويغمس العبيد رءوسهم فى مياه النهر الدامية تحت ضوء القمر البارد ، ويشربون ويشربون لأنهم إن لم يشربوا ماتوا .

ومع بزوغ الفجر يتحطم الهجوم الرومانى . من فى حياته كلها قاتل رجالا مثل هؤلاء العبيد؟ . مهما كان العدد الذى تقتله منهم ، يأتى غيرهم وهم يصيحون ويصرخون ليحلوا محلهم . وهم

عندما شاع بين الناس ، أن المقاتل يموت ، فتر الاهتمام به، وما إن شارفت الساعة العاشرة على صلبه ، وكانت فى منتصف بعد الظهر ، حتى لم يكن قد تبق لرؤيته إلا حفنة من أكثر أنصار الصلب تمسكا برأيهم — هم وقليل من الصعاليك الشحاذين والمتعطلين الجربى الذين لا مكان لهم بين المباهج المثمرة الكثيرة التى تحفل بها مدينة مثل كابوا بعد الظهيرة . صحيح أنه لم يكن فى كابوا أى سباق فى ذلك الوقت ، ولكن لاشك أن أحد المجتلدين الرائعين كان مشغولا بشىء ما . ولما كانت كابوا مدينة شهيرة بالنسبة للسياح ، كان من بين مفاخر مواطنى كابوا الأثرياء أن يعقدوا المقاتلات الزوجية لمدة أقلها ثلاثمائة يوم كل عام . وكان فى كابوا مسرح ممتاز ، وعدد من بيوت الدعارة العامة الكبيرة تعمل بطريقة مفضوحة لا يرضون عنها فى روما . وكانت النساء من كل جنس وكل شعب يعملن فى مثل هذه الأماكن ، وقد درين خصيصا لاجتذاب أكبر عدد من الناس . وكان فى المدينة كذلك حوانيت فاخرة ، وسوق للعطور ، وحمامات ، وألوان كثيرة من الرياضات البحرية فى الخليج الجميل .

لذلك لم يكن من المستغرب أن يكون مجالد مصلوب يموت مجرد متعة عابرة . ولو لم يكن بطل التصفية ، لما ألقى عليه إنسان

أكثر من نظرة واحدة . ولم يعد، حتى مع كونه بطلا، موضع اهتمام كبير . وأعلن التجار الأثرياء الثلاثة الذين يتزعمون الجالية اليهودية الصغيرة فى المدينة فى رسالة موجهة ، إلى مواطنى روما كاملى الأهلية الذين يقطنون كانوا تبرئهم من أى معرفة به أو مسئولية عنه . وأعلنوا أن كل عناصر الثورة والتمرد قد استئصلت من بلادهم . وأشاروا كذلك إلى أن الختان ليس دليلا على الأصل اليهودى . فالختان واسع الانتشار بين المصريين والفينيقيين وحتى بين الفرس . كما أنه ليس من طبيعة اليهود أن يتهجموا على القوة التى أقرت حالة من السلام والرخاء والنظام الحميد العاقبة فى معظم أنحاء العالم . وهكذا وصل المجالد إلى أبواب الموت فى وحدة وازدراء وألم بعد أن تخلى عنه الجميع من كل جانب . ولم يعد مصدر تسلية للجنود ، ولم يعد يعنى إلا القليل من المتفرجين . اللهم إلا امرأة عجوزا تعسة جلست وقد عقدت يديها حول ركبتها وراحت تحدق فى الرجل المعلق فوق الصليب . وبدأ الجنود يغيظونها من باب الترويح عن النفس .

فقال واحد منهم :

— هيه يا جميلة ، بماذا تحلمين أمام هذا الرجل المعلق هناك ؟

وسألها آخر

— هل نفك قيوده ونعطيه لك ؟

فقالت :

— ياله من أسلوب للحديث . أى ناس أنتم ! يالها من طريقة لمخاطبتى .

— أوه ، أنا أعتذر يا مولاتى .

وبدأ الجنود ينحنون لها واحدا بعد الآخر انحناءات عميقة . ولفتت حركاتهم أنظار المتفرجين القلائل فتجمهروا حولهم .

وقالت العجوز :

— أنا لا أعبأ مثقال ذرة باعتذاراتكم . قذارة . أنا قذرة وأنتم أقذار . أستطيع أنا أن أزيل قذارتى فى الحمامات ، أما أنتم فلا .

ولم يعجبهم أن يكون للسخرية طرفان . وعاد شعورهم بالسلطان يؤكد نفسه ، فتصلبوا والتمعت عيونهم . وقال واحد منهم :

— اهدئى يا سيدتى العجوز وامسكى لسانك .

— أنا أقول ما أشاء .

— إذن فاذهبى واستحمى ثم عودى . فأنت منظر للمشاهدة فى جلستك هذه عند أبواب المدينة وبمنظرك هذا .

فضحكت هازئة منهم وقالت :

— أنا منظر للمشاهدة حقا ، أنا منظر مخيف . هيه ؟ أى ناس أنتم أيها الرومانيون ؟ أنظف ناس فى العالم ، ألا يعتبر رومانيا من لا يستحم كل يوم حتى ولو كان عاطلا كغاليتكم ، ويمضى

كل أصباحه فى المقامرة وكل أمسياته فى المجتلد . إنه نظيف ملعـــون .

— كفى أيتها السيدة العجوز . أغلقى فمك .

— ليس كافيا على الإطلاق . أنا لا أستطيع أن أستحم . فأنا أمة والعبيد لا يذهبون إلى الحمامات . وأنا عجوز مستهلكة ولا تستطيعون عمل أى شىء لى . ولا شىء واحد . فأنا أجلس فى الشمس ولا أضايق أحدا . لكنكم لا تحبون ذلك . أليس كذلك ؟ أنا أذهب مرتين كل يوم إلى بيت سيدى فيعطينى حفنة من الخبز الطيب ، خبز روما الذى يزرعه العبيد ويحصده العبيد ويطحنه العبيد ويخبزه العبيد . وأمشى فى الشوارع ، فأى شىء ما أرى ليس من صنع أيدى العبيد ؟ أتظنون أنكم تخيفوننى ؟ أنا أبصق عليكم .

وبينما كان ذلك يدور ، عاد كراسوس إلى الباب الأبيوسى. كان لم ينم إلا قليلا ، كما يفعل الناس عادة عندما يحاولون أن يعوضوا بالنهار بقية ما كان من الضرورى أن يعملوه فى الليلة السابقة . ولو أن أحدا سأله لماذا عاد إلى مكان الصلب ، لكان من المحتمل أن يهز كتفيه . لكنه كان فى حقيقة الأمر يعرف لماذا عاد . فقد كان شطر كبـــير من حياة كراسوس ينتهى مع موت ذلك الرجل ، آخر المجالدين وسيد الناس كراسوس ،

لا كرجل واسع الثراء فحسب ، بل على أنه الرجل الذى أخمد ثورة العبيد .

وذلك شىء من اليسير أن تقوله ، ولكن ليس من اليسير أن تعمله . فكراسوس لن يفصل نفسه طيلة حياته عن ذكرياته عن حرب العبيد . فسيعيش مع تلك الذكريات ، ينهض من نومه بها ، ويذهب إلى فراشه معها . ولن يقول يوما لسبارتاكوس وداعا حتى يموت هو كراسوس .

عند ذاك ينتهى الصراع بين سبارتاكوس وكراسوس ، ولكنه لن ينتهى إلا حينذاك ، لذلك عاد كراسوس فى ذلك الوقت إلى باب المدينة ليعيد النظر إلى كل ما تبقى على قيد الحياة من خصمه .

وكان ضابط جديد هو المسئول عن تلك النوبة ، لكنه عرف القائد — كغالبية الناس فى كابوا — فبذل كل جهده ليكون مفيدا وكيسا . لدرجة أنه اعتذر لقلة من تبقى من الناس لرؤية المجالد يموت .

— إنه يموت بسرعة كبيرة ، وهذا أمر مثير للدهشة . فقد كان يبدو من النوع القوى الذى يبقى طويلا . وكان من الممكن أن يظل حيا على الصليب ثلاثة أيام . لكنه سيموت قبل الصباح .

فسأله كراسوس قائلا :

— كيف عرفت ؟

تستطيع أن تعرف ذلك بالتجربة . فقد شاهدت كثيرا من عمليات الصلب الكبيرة ، وكلهم يتبعون نفس النظام . اللهم إلا إذا اخترقت المسامير عرقا رئيسيا فينزف المصلوب حتى الموت بسرعة كبيرة . ومع هذا ، فهذا الرجل لا ينزف كثيرا . كل ما فى الأمر أنه لا يرغب فى الحياة بعد الآن ، وعندما يحدث ذلك فهم يموتون بسرعة ، لم تكن تظن أن الأمر سيكون كذلك ؟

فقال كراسوس :

— لا شىء يدهشنى

— أظن ذلك . أعتقد بعد كل ما شاهدت .

وفى تلك اللحظة :وضع الجنود أيديهم على المرأة العجوز ، فلفتت صرخاتها الثاقبة وهى تحاول التخلص منهم انتباه القائد والضابط المنوط بحراسة باب المدينة . فخطا كراسوس أماما وألم بما يدور فى نظرة سريعة وقال يخاطب الجنود فى قسوة :

— أى مجموعة رائعة من الأبطال أنتم . دعوا السيدة العجوز وشأنها .

وحملتهم لهجة صوته على الطاعة ، فأخلوا سبيل المرأة . وعرف واحد منهم كراسوس ، فهمس بذلك للآخرين ، وعند ذاك تقدم

إليهم ضابط الحراسة وأراد أن يعرف حقيقة الأمر وهل لم يجدوا ما يشغلون به وقتهم خيرا من ذلك .

— كانت سليطة تتحدث بلغة قذرة .

فقهقه واحد من الرجال الواقفين . فقال الضابط يخاطب المتسكعين :

— ابتعدوا عن هنا ، كلكم .

فتراجعوا عدة خطوات ، لكنهم لم يبعدوا كثيرا . ورمقت العجوز الدرديبس كراسوس فى مكر ، وقالت :

— إذن فالقائد الكبير هو من يحميني .

فسألها كراسوس قائلا :

— من أنت أيتها الساحرة العجوز ؟

— أيها الرجل العظيم : هل يجب أن أركع أمامك ، أم أن أبصق على وجهك ؟

فصاح الجندى يقول :

— أرأيت ؟ ألم أقل لك ؟

فسألها كراسوس:

— أجل .. حسن الآن ، ماذا تريدين أيتها العجوز ؟

— كل ما أريده أن يدعونى وشأنى. لقد خرجت إلى هنا لأرى رجلا طيبا يموت ، ويجب ألا يموت وحيدا . فجلست أرقبه وهو يموت . وأقدم له قربانا من الحب . وأقول له إنه لن يموت أبدا ، فسبارتاكوس لم يمت قط . سبارتاكوس حى لا يموت .

— عم تتكلمين بحق السماء يا عجوز ؟

ألا تعرف عم أتكلم ياماركوس ليكينيوس كراسوس ؟ إنما أتكلم عن سبارتاكوس . أجل ، أنا أعرف لماذا جئت إلى هنا .

— لا أحد غيرى يعرف . هم لا يعرفون ، لكنك أنت وأنا نعرف أليس كذلك ؟

فأمر ضابط الحراسة الجنود أن يمسكوا بها ويجروها بعيدا فما هى إلا غرارة عجوز قذرة ، لكن كراسوس أبعدهم بإشارة منه فى غضب وقال :

— قلت لكم دعوها وشأنها ، وكفوا عن إظهار شجاعتكم أمامى إذا كنتم على هذا القدر من الشجاعة ، فقد تحبون أن تكونوا جميعا فى فيلق بدلا من مصيف . فى استطاعتى أن أعنى بنفسى . فى استطاعتى أن أدافع عن نفسى أمام سيدة عجوز .

فابتسمت العجوز وقالت :

— أنت خائف .

— من أى شىء أخاف ؟

— خائف منا، ألست كذلك؟ كلكم تعانون مثل هذا الخوف . ولهذا السبب جئت أنت إلى هنا . لتراه وهو يموت . لتتأكد من أن آخرهم قد مات . يا إلهى ، ماذا فعل بكم بعض العبيد ؟ فأنتم ما زلتم خائفين . وحتى بعد أن يموت ، هل تظنون أن فى ذلك النهاية ؟ أتظن فى ذلك النهاية ياماركوس ليكينيوس كراسوس ؟

— من أنت أيتها العجوز ؟

فأجابته العجوز قائلة :

— أنا أمة .

وبدا عليها حينذاك أنها أصبحت بسيطة ، طفلة مخرفة . وقالت :

— جئت إلى هنا لأكون مع واحد من ناسى ، ولأقدم إليه بعضا من الراحة ، جئت أبكى من أجله . فكل الآخرين خائفون من المجىء وكانوا مليئة بناسى ، لكنهم خائفون . لقد قال لنا سبارتاكوس . . انهضوا وتحرروا ، لكننا خائفون . نحن أقوياء إلى حد كبير ، ومع ذلك فنحن نجبن و ننشج ونجرى .

وانهمرت الدموع عند ذاك من عينيها الكليلتين الرمداوين ، وضرعت إليه تسأله :

— ماذا سيفعلون بى ؟

— لا أعلم أيتها العجوز اجلسى هناك ، وابكى إذا شئت

وألقى إليها بقطعة من النقود، وابتعد وهو غارق فى أفكاره، ومشى إلى الصليب وهو يتطلع إلى المجالد الذى يموت ، ويقلب كلمات العجوز فى ذهنه .

انقسمت حياة المجالد إلى أربع فترات . الطفولة وكانت فترة عدم المعرفة السعيدة ، وفترة شبابه وهى المليئة بالمعرفة والأسى والكراهية . وفترة الأمل وهى الفترة التى قاتل فيها مع سبارتاكوس ، وفترة اليأس ، وهى الفترة التى اتضح فيها له أن قضيتهم خاسرة . وكانت هذه هى نهاية فترة اليأس لأنه كان يموت عند ذاك .

كان الصراع هو الخبز واللحم بالنسبة له . لكن الصراع كان قد توقف بالنسبة له عند ذاك . كانت الحياة فيه سورة من الغضب والمقاومة وصيحة عالية تطالب بالمنطق فى العلاقة بين الرجل والآخر . فبعض البشر قد جبلوا على قبول الأشياء على علاتها . والبعض لا يستطيع ذلك . ولم يكن هناك ما يستطيع أن يقبله ، حتى وجد سبارتاكوس . عند ذاك عرف أن الحياة الانسانية شىء له قيمة . وكانت حياة سبارتاكوس شيئا له قيمة ، كانت شيئا نبيلا ، وكان الرجال المحيطون به يحيون حياة نبيلة — لكنه كان وهو يموت معلقا على الصليب ما زال يتساءل : لماذا فشلوا ؟ وراح السؤال يفتش عن الإجابة عنه فى حيرة العقل التى بقيت له ، لكن السؤال لم يجد إجابة له .

(وكان مع سبارتا كوس عند ما ورد نبأ موت كريكسوس وكان موت كريكسوس هو منطق حياة كريكسوس . فقد كان كريكسوس يتشبث بحلم . وعرف سبارتا كوس متى انتهى ، الحلم واستحال تحقيقه . وكان حلم كريكسوس ، والحافز الذى يدفع كريكسوس هو تحطيم روما . ولكن حانت لحظات أدرك فيها سبارتا كوس أنهم لن يستطيعوا تحطيم روما أبدا . وأن روما تستطيع وحدها أن تحطمهم . كانت تلك البداية ، وكانت النهاية أن خرج عشرون ألف عبد تحت قيادة كريكسوس . وهذا هو كريكسوس قد مات وجيشه قد تحطم . مات كريكسوس ومات رجاله . لن يضحك الغالى الضخم الجثة ، العنيف ، ذو الشعر الأحمر بعد اليوم ولن يصيح بعد اليوم . فقد مات .

(وكان داود مع سبارتا كوس عندما ورد هذا النبأ ، إذ حمل النبأ رسول ، هو واحد ممن نجوا ؛ وأمثال هؤلاء الرسل يحيط بهم الموت من كل جانب . ويصغى سبارتا كوس ثم يستدير لداود ويسأله :

— هل سمعت هذا ؟

— سمعت .

— هل سمعت أن كريكسوس قد مات ، وأن كل جيشه قد مات ؟

— سمعت .

— أتسع الدنيا كل هذا القدر من الموت ؟ هل فيها كل هذا ؟

— الدنيا مليئة بالموت . وقبل أن أعرفك لم يكن فى الدنيا إلا الموت وحده .

فيقول سبارتا كوس :

— الآن ليس فى الدنيا إلا الموت . وهو قد تغير ، اختلف عما كان . لن يعود كما كان من قبل أبدا . لن يستعيد يوما العلاقة الغالية بالحياة التى كان يحتفظ بها حتى تلك اللحظة، والتى كان يحتفظ بها حتى فى مناجم الذهب فى بلاد النوبة، والتى كان يحتفظ بها حتى فى المجتلد عند ما كان يقف عاريا وفى يده سكين . فالموت بالنسبة له قد انتصر على الحياة عند ذاك . فيقف ووجهه لا ينطق بشىء ، وعيناه مليئتان بلا شىء ، ثم تنبثق الدموع من هذا اللاشىء وتتدحرج نازلة فوق خديه العريضين الأسمرين . ياله من شىء رهيب يحطم القلب بالنسبة لداود أن يضطر إلى الوقوف هناك ويراقبه وهو يبكى ! هذا سبارتا كوس يبكى ، وتدور الفكرة فى ذهن اليهودى هكذا : هل أحدثك عن سبارتا كوس ؟

(لأنك لن ترى شيئا من مجرد النظر إليه ، ولن تعرف شيئا من مجرد النظر إليه . لن ترى إلا أنفه المكسور المفلطح

وفمه العريض ، وجلده الأسمر ، وعينيه الواسعتين . كيف تعرفه إذن ؟ إنه رجل من نوع جديد . يقولون إنه كأبطال الأزمنة الغابرة . لكن ماوجه الشبه بين أبطال الأزمنــــة الغابرة وبين سبارتا كوس . هل ينحدر البطل من صلب أب أنجبه عبد ؟ومن أين جاء هذا الرجل ؟ وكيف يستطيع أن يحيا مجرداً من الكراهية والحسد ؟ وأنت تعرف الرجل من مرارته وحقده لكن هناك رجلا لايعرف المرارة ولا الحقد . هذا رجل نبيل . هذا رجل لم يخطىء مرة طيلة حياته . إنه يختلف عنك — لكنه يختلف عنا كذلك .

لقد أصبح ، ما نشرع نحن فى أن نكونه ، ولكن ليس فينا من أصبح ما أصبحه سبارتا كوس ، فقد تفوق علينا وفاقنا . وهو الآن يبكى :

ويسأله داود قائلا .

— لماذا تبكى ؟ ستزداد الأمور شدة بالنسبة لنا الآن . فلماذا تبكى ؟ لن يدعونا ننعم بأى سلام الآن حتى نموت كلنا .

فيسأله سبارتا كوس قائلا .

(— ألا تبكى أبدا ؟

— عندما دقوا أبى إلى الصليب بالمسامير ، بكيت . ولم أبك منذ ذلك الحين قط .

فيقول سبارتاكوس :

(— أنت لم تبك من أجل أبيك ، وأنا لا أبكى من أجل كريكسوس ، إنما أبكى من أجلنا . لماذا حدث ذلك ؟ فيم كان خطؤنا ؟ لم أشعر بأدنى شك فى البداية ، فقد أمضيت حياتى كلها فى انتظار اللحظة التى يجد فيها العبيد القوة والسلاح فى أيديهم ، ولم يخامرنى أدنى شك عند ذاك فى أن عهد السياط قد انتهى ، وأن الأجراس تدق فى كل أنحاء العالم . إذن لماذا فشلنا ؟ لماذا فشلنا ؟ لماذا مت يا كريكسوس ، يا رفيق ؟ لماذا كنت قوى العزيمة رهيبا ؟ لقد مت الساعة ومات كل رجالك العظام .

فيقول اليهودى :

— من مات قد مات . كف عن البكاء .

لكن سبارتاكوس ينهار على الأرض فى كوم مهدل ووجهه فى الرغام ، ويبكى ووجهه فى الرغام قائلا :

— ابعث إلى بفارينيا . إبعث بها إلى . قل لها إنى خائف وإن الموت يحيط بى من كل جانب .

وحانت للمجالد لحظة من الوضوح الكامل قبل أن يموت ففتح عينيه ، واتضحت له الرؤية ، ولم يشعر بأى ألم على الإطلاق ، بمجرد برهة قصيرة . ورأى المنظر المحيط به فى وضوح وبساطة . شاهد الطريق الأبيوسى ، الطريق الرومانى العظيم ، مجد ومجرى دماء روما ، يمتد بعيدا إلى الشمال حتى المدينة العظيمة نفسها . وهناك على الجانب الآخر منه ، تقوم أسوار المدينـــة والباب الإبيوسى وإثنا عشر جنديا من جنود المدينة قد انتابهم الملل ، والضابط المنوط به حراسة باب المدينة يغازل فتاة جميلة . ويجثم على حافة الطريق هناك حفنة من المتسكعة المرضى ، وعلى طوال الطريق نفسه حركة مرور متقطعة غير متتابعة ، لأن الوقت كان قد تأخر بالفعل . وذهب غالبية سكان المدينة الأحرار إلى الحمامات ، وتصور المجالد ، بقدر ما سمح له تحديقه ، أنه يشاهد وراء الطريق لألاء البحر فى أجمل خليج فى العالم . وهبت ريح ندية قادمة من البحر ، فكان مس النسيم لوجهه كمس الأيدى الندية لامرأة يحبها رجل .

وشاهد الشجيرات الخضراء التى تنهض على حافة الطريق

وأشجار السرو الداكنة من وراء ذلك ، وشاهـــد إلى الشمال التلال المنحدرة ، والأشواك التي تغطى الجبال القفراء التي يختبيء فيها العبيد الفارون ، وشاهد سماء بعد الظهر الزرقاء ، الزرقاء الجميلة كالألم الناتج عن رغبة لم تتحقق . وخفض عينيه فشاهـــد امرأة عجوزاً وحيدة تقبع على بعد ياردات قليلة من الصليب ، وتحدق إليه فى ثبات وتبكى وهى ترقبه .

وقال المجالد لنفسه :

— ياللعجب إنها تبكى من أجلى . من أنت أيتها العجوز يامن تجلسين هناك وتبكين من أجلى ؟

وعرف أنه يموت ، فقد كان ذهنه صافياً . وعرف أنه يموت ، فشعر بالشكر ، فعما قريب لن تصبح هناك ذاكرة أو ألم . إنما سيبقى النوم وحده الذى يتطلع إليه كل الناس فى ثقة مطلقة . ولم يعد يشعر بأية رغبة فى صراع الموت أو مقاومته . وأحس أنه عندما يغمض عينيه ، فسيغادر الحياة جسده فى يسر وسرعة .

ورأى كراسوس . رآه وعرفه . والتقت عيونهما . كان القائد الرومانى يقف منتصب القامة ساكنا كالتمثـــال ، وعباءته البيضاء تغطيه من الرأس إلى القدم فى ثنايا طياتها . وكان رأسه الجميل الوسيم الذى لوحته الشمس يبدو كرمز لعظمة روما وقوتها ومجدها .

وفكر المجالد قائلا لنفسه

— إذن فأنت هنا يا كراسوس لترانى وأنا أموت ، جئت لتشاهد آخر العبيد وهو يموت على الصليب . وهكذا يموت عبد ، فيكون آخر شىء يراه هو أغنى رجل فى العالم .

عند ذاك تذكر المجالد المرة الأخرى التى رأى فيها كراسوس ، وتذكر سبارتاكوس عند ذاك . وتذكر كيف كان سبارتاكوس ، كانا قد أدركا أن الأمر قد انتهى ، كانا يعلمان أنه قد انقضى . وكانا يعلمان أن تلك المعركة هى الأخيرة . وكان سبارتاكوس قد ودع ڤارينيا ، ودعها وأرغمها على الرحيل رغم كل ضراعاتها ، ورغم كل ضراعاتها الملتهبة للبقاء إلى جانبه . وكانت مثقلة بحملها حينذاك . وكان سبارتاكوس قد آمل أن يرى الطفل يولد قبل أن يوقعهم الرومان فى المحظور .

لكن الطفل كان مازال جنيناً لم يولد عندما افترق عن ڤارينيا .

وقال لداود عند ذاك .

— لن يقدر لى أن أرى الطفل يا صديق ورفيق القديم . هذا هو الشىء الوحيد الذى لا آسف عليه ، فأنا آسف على شىء آخر . لأى شىء آخر .

وكانوا قد استعدوا للمعركة ، عندما أحضروا لسبارتا كوس الجواد الأبيض . وياله من حصان . مهر فارس جميل ، أبيض كالثلج، فيه كبرياء وقوى كالصخر . وكان جواداً ملائماً لسبارتا كوس . وكان سبارتا كوس قد أزاح همومه جانباً . ولم يكن ذلك قناعا يصطنعه ، لأنه كان سعيداً حقيقة ، ومليئا بالشباب ، ومليئاً بالحياة والحيوية والنار . وكان شعره قد استحال رماديا خلال تلك الأشهر الستة الأخيرة . لكنك لم تكن لترى ذلك الشعر الرمادى عند ذاك ، إنما كنت ترى الشباب المتقدم فى وجهه . وغدا ذاك الوجه القبيح جميلا ، وأحس كل إنسان رآه بمدى جماله : وتطلع إليه الرجال وعجزوا عن الكلام . ثم أحضروا له الجواد الأبيض الرائع .

فكان ما قاله هو

— أولا .. أشكر لكم هذه الهدية الرائعة ياأصدقائى الأعزاء ورفاقى المخلصين . أولا أشكركم . أشكركم من كل قلبى .

ثم جرد سيفه ، وفى حركة أسرع من أن تلاحقها العين ، أغمد السيف حتى مقبضه فى صدر الجواد . وتعلق بالسيف بينما كان الجواد يشب ويصرخ ، ثم انتزع السيف عندما أخذ الجواد ينهار هابطا على ركبتيه ، ثم تدحرج جانبا ومات . وواجههم والسيف

فى يده يقطر دما ، وتطلعوا هم إليه فى رعب ودهشة . أما هو فلم يتغير فيه شىء .

وقال :

— لقد مات حصان . فهل تريدون أن تبكوا لأن حصانا قد مات ؟ نحن نقاتل من أجل حياة الإنسان ، وليس من أجل حياة الحيوانات . والرومانيون يدللون الخيـــول ، لكنهم لا يكنون للإنسان شيئا سوى الاحتقار . واليوم سنرى من الذى سيخرج من ميدان المعركة هذا : الرومانيون أم نحن . لقد شكرت لكم هديتكم . كانت هدية رائعة ، أوضحت مدى حبكم لى ، لكننى لم أكن فى حاجة إلى مثل هذه الهدية لأعرف ذلك ، فأنا أعرف ما فى قلبى ، قلبى ملىء بالحب لكم ، ولا توجد فى العالم بأسره كلمات تعبر عن الحب الذى أكنه لكم يارفاق الأعزاء . لقدعشنا معا ، وحتى إذا قدر لنا الفشل اليوم ، فقد قمنا بشىء سيذكره البشر إلى الأبد . لقد قاتلنا روما أربع سنوات — أربع سنوات طوال : لم ندرظهرنا يوما جبنا أمام جيش رومانى ، ولم نفر يوما . ولن نفر من ميدان المعركة اليوم . أكنتم تريدون منى أن أقاتل فوق ظهر جواد ؟ لنترك الجياد للرومانيين فسأقاتل على قدمى إلى جانب إخوانى . فإذا كسبنا المعركة اليوم فسنحصل على الكثير من الجياد وسنعلقها إلى المحاريث بدلا من العربات الحربية . أما إذا خسرنا ، حسن ، فلن نحتاج إلى الجياد .

ثم عانقهم . عانق كل واحد من رفاقه القدامى الذين تبقوا وقبلهم فوق شفاههم . وعندما وصل إلى داود قال له .

ـ وأنت ياصديق المجالد العظيم ، هل ستبقى إلى جانبي اليوم؟

ـ دائما .

وفكر المجالد ، وهو معلق فوق الصليب ينظر إلى كرا سوس قائلا .

ـ يا لضخامة ما يستطيع الإنسان أن يعمله .

لم يعد له عند ذاك ما يأسف عليه . فهو قد قاتل إلى جانب سبارتاكوس ، قاتل هناك بينما كان هذا الرجل الذى يقف فى مواجته الآن ، هذا القائد الكبير ، يمتطى جواده ويرفع ساقيه الأماميتين إلى أعلى ويحاول أن يفسح لنفسه طريقاً فى صفوف العبيد ، فصاح هو وسبارتاكوس قائلين .

ـ تعال لنا ياكراسوس تعال وذق تحياتنا .

وقاتل حتى أصابه حجر من مقلاع فصرعه . وكان قد قاتل ببراعة . وسره أنه لم يضطر لرؤية سبارتاكوس وهو يموت . وسره أنه هو ، وليس سبارتاكوس الذى اضطر إلى تحمل هذا العار والتحقير الأخيرين المتمثلين فى عملية الصلب . لم يعد له ما يأسف عليه عند ذاك ، ولا ما يأبه له ولا ما يؤلمه فى تلك

اللحظة . وفهم ذلك الفرح الشاب الذى اعترى سبارتاكوس فى اللحظات الأخيرة. لم تكن تلك هزيمة لهم. وهو مثل سبارتاكوس الآن، لأنه يقاسمه سر الحياة العميق الذى كان سبارتاكوس يعرفه. أراد أن يقول ذلك لكراسوس وحاول فى يأس أن يتكلم. فحرك شفتيه ،وتقدم كراسوس من الصليب .

وتوقف كراسوس ، وتطلع إلى الرجل المحتضر المعلق فوقه ، لكن المجالد لم يصدر صوتاً . ثم تدحرج رأس المجالد إلى الأمام وغادر أطرافه آخر ما تبقى فيها من قوة ، ومات .

وظل كراسوس على وقفته هناك حتى انضمت إليه المرأة العجوز . وقالت العجوز :

— لقد مات الآن

فأجابها كراسوس قائلا .

— أعرف ذلك .

ثم عاد إلى باب المدينة ، وسار يضرب فى شوارع كابوا .

— ١٠ —

فى تلك الليلة تناول كراسوس عشاءه وحيداً . وأصدر تعليماته بأن يقال إنه فى الخارج لأى زائر . ولاحظ عبيده الحالة النفسية السوداء التى كثيراً ما تعتريه ، فراحوا يمشون فى رقة وفى حذر . وشرب قدراً كبيراً من زجاجة نبيذ قبل العشاء ، ثم زجاجة أخرى مع العشاء ، وبعد تناول الطعام جلس إلى زجاجة من شراب سرفيوس ، وهو شراب قوى من البلح كانوا يقطرونه فى مصر ويستوردونه منها . وبلغ به السكر حداً كبيرا ، وهو وحيد مكتئب ، سكر هو مزيج من اليأس وكراهية النفس .

وعندما بلغ الحد الذى لم يستطع معه المشى بثبات ،ترنح ذاهباً إلى غرفة نومه ، وترك عبيده يساعدونه فى خلع ثيابه والنوم .

ومع ذلك فقد نام نوماً طيباً وعميقاً . وأحس بالراحة فى الصباح فلم يكن فى رأسه صداع ، ولم يذكر أى أحلام مزعجة لعلها طافت بنومه فكدرته . وكان من عادته أن يستحم مرتين كل يوم ، بعد قيامه من نومه مباشرة ، وقبل نزول الليل ، أى قبل

العشاء . وكان كثير من أثرياء الرومان يظهر فى الحمامات العامة مرتين على الأقل بعد الظهر من كل أسبوع كمظهر سياسى . لكن ذلك كان اختيارا ينهض على أسباب سياسية وليس على الضرورة . وكان يملك لنفسه ، حتى فى كابوا حماماً فاخرا ، حوضا سعته إثنتا عشرة قدماً مربعة ، مغطى بالقرميد ، ينخفض عن مستوى الأرض ، مزودا بالكفاية من الماء الساخن والماء البارد . إذ كان يصر أينما سكن على مقتضيات الاستحمام الملائمة . وكان عندما يشيد منزلا يحرص على أن تكون الأنابيب والصنابير كلها من النحاس اللامع أو الفضة حتى لا يصيبها التآكل والبلى .

وبعد أن استحم حلق له الحلاق ذقنه . كان يحب تلك الفترة من اليوم ، التسليم الضرورى للموسى الحاد يجرى فوق خديه ، وشعور الأطفال الذى يبعثه ذلك فيه ، والثقة الممتزجة بالخطر ، والمناشف الدافئة بعد ذلك ، والدهانات يدلك بها بشرته ، وتدليك فروة رأسه الذى يلى ذلك دائماً . وكان شديد التيه بشعره ، وكان أكثر ما يزعجه هو أن شعره بدأ يتساقط .

وارتدى ثوباً بسيطاً داكن الزرقة ، وشيت أطرافه بخيوط الفضة ، وانتعل كما هى عادته حذاء أبيض يصل ساقه حتى الركبة من جلد أنثى الغزال الطرى . ونظرا لأنه لم يكن من اليسير تنظيف هذه الأحذية كما يجب ، ونظرا لأن ارتداءها يومين أو ثلاثة أيام

يعرضها للتلوث بالطين، لذلك كان كراسوس يحتفظ بمؤسسته الخاصة لصناعة الأحذية حيث يعمل أربعة من العبيد تحت إشراف صانع أحذية بأجر يومى . إلا أن ذلك كان جديراً بالثمن، لأن مظهره فى الرداء الداكن الزرقة والأحذية البيضاء كان مظهراً جذاباً . وقرر فى ذلك اليوم أن يتخلص من العباءة نظرا لازدياد حرارة الجو . وبعد أن تناول إفطارا حقيقيا من الفاكهة والفطائر الهشة ، استقل محفة إلى البيت الذى ينزل فيه الشبان الثلاثة .

وكان خجلا ومنزعجا بعض الشىء من معاملته لهيلينا ، لكنه مع ذلك كان قد وعد بتسليتهم ومصاحبتهم فى كابوا .

وكان قد زار ذلك البيت مرة أو مرتين من قبل ، وكان يعرف خال هيلينا معرفة بسيطة ؛ لذلك حياه كبير عبيد الأبواب بحرارة، ودخل به على الفور إلى الشرفة حيث كانت العائلة وضيوفها مازالوا يتناولون إفطارهم . وصعد الدم إلى وجنتى هيلينا عندما رأته ، وفقدت بعض رباطة جأشها الفتية التى عنيت بتنميتها ، وبدا على كايوس السرور الحقيقى لرؤيته، وأحس العم والعمة التقدير العميق للشرف الذى أسبغه عليهم القائد بزيارته لهم ، وقدموا له كل ضروب الحفاوة . وكانت كلوديا وحدها هى التى تطلعت إليه فى مكر وتهكم ساخر وفى عينيها شىء من البريق الشرير .

وقال كراسوس

— إذا لم تكونوا قد قررتم شيئاً بالنسبة لليوم ، فيسرنى أن أستضيفكم فى أحد مصانع العطور . فقد يبدو مخجلا أن تحضروا إلى كابوا ولا تزوروا واحدا من هذه المصانع .خاصة وأن مدينتنا الفقيرة لا تشتهر إلا بالقليل بعد المجالدين والعطور .

فابتسمت كلوديا وقالت

— خليط غريب بعض الشىء .

وقالت هيلينا فى عجلة .

— لم نقرر شيئاً بالنسبة لليوم .

— إنها تعنى أن لدينا مشروعات ، ولكن يسرنا أن نضعها جانبا ونذهب معك .

وتطلع كايوس فى حدة تقارب الغضب إلى أخته . ووضح لهم كراسوس أن الدعوة تشمل السادة الكبار طبعاً ، لكنهما طلبا إعفاءهما ، فمصانع العطور ليست جديدة عليهم . وقالت ربة البيت إن استنشاق العطور كثيرا يسبب لها صداعا .

وبعد فترة قصيرة رحلوا فى طريقهم إلى مصنع العطـــور . وحملتهم المحفات إلى الجزء القديم من كابوا حيث تزداد الشوارع ضيقا ، وتزداد منازل السكنى ارتفاعا . وكان من الواضح أنه حتى

قوانين المبانى البسيطة المطبقة فى روما لا تطبق هنا . لأن منازل السكنى كانت ترتفع شاهقة كخليط أحمق من الكتل الخشبية التى يلعب بها الأطفال، وكانت المنازل فى كثير من الأحيان تبدو كما لو كانت ستلتق برءوسها حيث كانت تصلب وتدعم بالقوائم الخشبية . وكانت تلك الشوارع مقبضة لما يسودها من ظلمة على الرغم من أن الوقت كان صباحا ، والسماء زرقاء صافية ، وكانت الشوارع قذرة مليئة بالقمامة التى تلفظها المساكن وتظل فى الطريق حتى تتعفن وتمتزج الروائح الكريهة المنبعثة من القمامة امتزاجا متزايدا مع الروائح الحلوة التى تبعث على الغثيان ، الصادرة عن الزيوت العطرية .

وقال كراسوس .

ــ هذا هو السبب فى إنشاء مصانعنا هنا ، فالرائحة نفسها تؤدى غرضا مفيدا .

لم يكن فى هذه الشوارع أى من عبيــــد المنازل ذوى الملابس الجيدة : المعتنى بشعورهم ، الذين تلحظهم كثيرا فى أجزاء المدينة الأكثر ثراء . ولم يكن فيها كذلك الكثير من المحفات . وكان الأطفال القذرون نصف العراة ، يلعبون فى البالوعات . وكانت النساء فقيرات الثياب ، يشاكسن ويساومن فى أثناء شراء الأطعمة

من المنصات الجانبية ، أو يجلسن على أبواب المنازل ترعين أطفالهن . وكان خليط من كلام غريب يسود المكان ، بينما كانت روائح أطعمة غريبة تطهى تنبعث من النوافذ .

قالت هيلينا .

ـــ ياله من مكان مخيف . أتعنى حقا أن العطور تخرج من هذه البالوعة ؟

ـــ إنها تخرج منها حقاً ياعزيزتى . يخرج منها عطور أكثر وأفضل من أى عطور يصنعونها فى أى مدينة أخرى فى العالم ، أما بالنسبة لهؤلاء الناس ، فغالبيتهم من السوريين والمصريين ، ومنهم بعض اليونانيين واليهود . لقد حاولنا أن نستغل العبيد فى مصانعنا لكننا لم ننجح . فأنت تستطيعين أن ترغمى العبد على العمل ، لكنك لاتستطيعين أن ترغميه على ألا يفسد ما يعمل . لأنه لا يبالى بنهاية مايعمل . أعطيه محراثا أو منجلا أو فأساً أو مطرقة فتستطيعين أن ترى مايعمله ، وعلى أى حال فمن العسير إفساد مثل هذه الآلات . ولكن أعطيه حريراً ينسجه أو نسيجا دقيقا أو إنبيقا رقيقا ، أو حددى له مقاييس وحركات محدودة ، وأعطيه نصيبا من العمل فى مصنع ، وثق ، كما تثقين فى الله ، من أنه سيفسد العمل . ولا جدوى من أن تضربيه بالسياط ، لأنه سيفسد العمل مع ذلك . أما بالنسبة

لعمالنا ـ فأى حافز يدفعهم إلى العمل؟ على أية حال هناك عشرة منهم لكل عمل . ما الذى يدفع الواحد منهم إلى العمل ، بينما ينعم التسعة الآخرون بحياة أفضل على الصدقات ، ويمضون أيامهم فى المقامرة أو فى المجتلد أو فى الحمامات؟ وكلهم ينضمون إلى الجيش ، فى الجيش بعض الفرص للإثراء إذا كنت سعيدة الحظ . ولو أننا حتى فى الجيش نزيد من اتجاهنا المرة بعد المرة إلى البرابرة فنجندهم ، لكنهم أى عمالنا ، يرفضون العمل فى أى مصنع لقاء الأجور التى نستطيع أن ندفعها لهم . فحطمنا نقاباتهم ، لأنه كان علينا أن نختار بين تحطيم النقابات أو غلق مصانعنا . ولذلك نستأجر الآن السوريين والمصريين واليهود واليونانيين . وحتى هؤلاء ، يعملون حتى يتمكنوا من اقتصاد ما يكفى لشراء رعوية المواطن من أى رئيس لحى من الأحياء . لست أدرى كيف ستكون النهاية ، لأن المصانع على مثل هذا الحال ستغلق أبوابها بدلا من أن تفتحها .

وكانوا قد وصلوا عند ذاك إلى المصنع . وكان بناء خشبيا منخفضا قبيحا كالجالس القرفصاء بين منازل السكنى . وكان يبلغ فى مساحته حوالى مائة وخمسين قدماً مربعة ، رثاً ، متداعيا ، تعفنت جدرانه الخشبية فى بعض المواضع ، وتحطمت الألواح من الخشب هنا وهناك ، تبرز من سقفه غابة من المداخن ينبعث منها

الدخان وامتد على أحد جوانبه رصيف للسفن يقف إلى جانبه عدد من عربات النقل . وكانت العربات محملة بأكوام عالية من شرائح لحاء الشجر وسلال الفاكهة وجرار الفخار .

ووجه كراسوس حملة المحفات للدوران حول المصنع ليصلوا إلى واجهته . وهنا فتحت الأبواب الخشبية العريضة ، وتلقى كايوس وهيليناوكلوديا أول انطباع لهم عما يدور داخل مصنع العطور .

كان البناء حظيرة كبيرة واحدة ، يقوم سقفه على دعامات من الخشب . وكان السقف نفسه محطما فى الكثير من مواضعه ليسمحوا بدخول الهواء والنور . وكان المكان مليئا بالحرارة والضوء الصادر من الأفران المفتوحة . وكانت المداخن الطويلة تحمل المئات من الأوانى الفخارية والبواتق ، وبدت لهم الأنابيب اللولبية المكثفة الخارجة من أجهزة الاستقطار ، كشىء منتزع من حلم شيطانى . وكانت رائحة الزيوت العطرية الفنية التى تبعث على الغثيان تسود المكان كله .

وتلقى الزوار كذلك انطباعهم عن مئات العمال . كانوا رجالا صغار الحجم ، سمر اللون ، لكثير منهم لحى ، عراة إلا مما يستر عوراتهم ، يرقبون أجهزة الاستقطار ، ويغذون الأفران ، ويقفون

عند مناضد التقطيع ، يقطعون لحاء الأشجار وقشور الفواكه ، أو يملأون أنابيب فضية صغيرة بالعطر : يقطرون السائل النفيس قطرة فقطرة ويقفلون كل أنبوبة بالشمع الساخن . بينما أخذ آخرون يقشرون الفاكهة ويقطعون شرائح بيضاء من دهن الخنزير .

ورحب مدير المصنع ـ وهو رومانى قدمه لهم كراسوس باسم أفالوس ، دون أى تقدير له بذكر اسمـــه الثانى ـ رحب بالقائد وضيوفه فى مزيج من النعومة والطمع والحذر . وجعله قليل من النقود الفضية من كراسوس ، أكثر إقبالا على إرضائهم ، وتقدمهم من ممشى إلى آخر ، بينما مضى العمال فى أعمالهم ووجوههم قاسية عابسة مريرة ، وعندما كانوا يلقون إلى الزوار بنظرة جانبية ، لم يمن ليطرأ على تعبيرات وجوههم اى تغيير ملحوظ . ومن كل ما رأى كايوس وهيلينا وكلوديا هناك ، كان العمال هم أكثر الأشياء غرابة بالنسبة لهم . إذ لم يكونوا قد رأوا من قبل مثل هؤلاء الرجال قط . ففيهم شىء مخالف ومخيف . لم يكونوا عبيدا — ولم يكونوا رومانيين ، بل ولا يشبهون الفلاحين الذين كان عددهم فى تناقص ، وكانوا مازالوا يتشبثون بقطع من الأرض متناثرة هنا وهناك فى إيطاليا . كانوا رجالا مختلفين . وكان ذلك الاختلاف يبعث على القلق .

وشرح لهم كراسوس قائلا:

ــ عملنا هنا هو التقطير . ونحن ندين بالشكر للمصريين فى ذلك .

لكنهم لم يستطيعوا قط أن يحولوا عملية التقطير إلى الإنتاج على نطاق واسع . وروما هى الوحيـــدة التى تستطيع تنظيم أى شىء .

فسأله كايوس قائلا :

ــ لكن هل اختلف الأمر عن ذلك فى أى وقت من الأوقات ؟

ــ أجل . فى الأزمنة القديمة ، اضطر البشر إلى الاعتماد على استخراج العطور الطبيعية ـ وخاصة اللبان والمر والكافور طبعاً . وكلها نباتات صمغية تفرز الصمغ من لحاء الأشجار . وسمعت أن الناس يمتلكون فى الشرق مزارع تضم مثل هذه الأشجار . ينزعون عنها اللحاء ويجمعون الصمغ كمحصول منتظم دائم . وكانت الرائحة تحرق فى معظم الأحوال كبخور . ثم اخترع المصريون جهاز الاستقطار الذى لا يعطينا الخمر والطريق القصير إلى السكر فحسب ، إنما يعطينا العطر كذلك .

وتقدمهم إلى إحدى مناضد التقطيع حيث كان عامل يقوم بتشريح قشر الليمون إلى شرائح فى رقة الورق وحمل كراسوس إحدى هذه الشرائح وعرضها للنور ثم قال :

— لو أنكم أمعنتم النظر ، لاستطعتم رؤية حقائب الزيت . وأنتم تعرفون طبعا مدى جمال رائحة القشر ، وهذا هو أساس العمل — ليس بالنسبة لليمون وحده طبعا ، إنما بالنسبة لمئات من الفواكه الأخرى ولِلحاء الأشجار — لاستخراج الجوهر العطرى الثمين . والآن إذا تبعتمونى —

وتقدمهم عند ذاك إلى أحد المواقد . كانت آنية ضخمة تحوى أجزاء من القشور قد وضعت على النار لتنضج . والآنية عندما توضع فوق الموقد تغلق بإحكام بغطاء معدنى تخرج منه أنابيب نحاسية تلف وتدور إلى حيث تجرى تحت رشاش من الماء وتنتهى الأنبوبة فى وعاء آخر .

وقال كراسوس يشرح لهم :

هذا هو جهاز الاستقطار . تطهو المادة الأصلية ، سواء كانت من لحاء الأشجار أو أوراق الشجر أو قشور الفاكهة حتى تنفصل عنها حقائب الزيت ، فتتصاعد عند ذاك مع البخار ثم تكثف البخار برشاش الماء ..

ثم قادهم إلى فرن آخر حيث كان الإنبيق يغذى غيره من الأوعية وقال :

ـ هنا ترون الماء يغمر الأوعية . عندما يمتلىء عندنا وعاء مثل هذا نبرده ، فيتجمع الزيت على سطح الماء . والزيت هو العطر ، فيرفع بعناية ونحفظه فى هذه الأنابيب الفضية . أما ما يتبقى فهو المياه المعطرة الرقيقة التى أخذت فى الانتشار هذه الأيام كشراب للإفطار .

فصاحت كاوديا تسأله

ـ أتعنى أن هذا هو ما تشربه ؟

ـ أجل بعد أن يمزج بمياه مقطرة . لكنى أؤكد لك أنها صحية للغاية .

وهذه المياه تختلف فى مذاقها كذلك ، كما تختلف الزيوت بعضها عن البعض من ناحية الرائحة . أما على ماهى عليه ، فتستعمل المياه فى التطيب .

ورأى هيلينا تبتسم له فسألها .

ـ أتظنيننى لا أقول لكم الصدق ؟

ـ لا . لا . إنما أمتلىء إعجابا بكل هذه المعرفة . فأنا أستطيع

أن أذكر المرات التى سمعت فيها طيلة حياتى وصفا لطريقة صنع شىء من الأشياء . لم أكن أظن أن أى شخص يعرف طريقـــة صنع أى شىء .

فأجابها كراسوس فى رصانة قائلا

- إن عملى هو أن أعرف . فأنا رجل واسع الثراء ، ولا أجد فى ذلك ما يدعو إلى الخجل ، كما يفعل الكثير من الناس . كثير من الناس يا عزيزتى يتعالون على لأنى كرست نفسى لجمع المال . وذلك لا يعنينى ، لأننى استمتع بزيادة ثروتى . لكنى لا أتعالى على المزرعة كمصدر للثروات كما يفعل زملائى . وعندما أعطونى حرباء لم يعطونى مدنا استولى عليها كما فعلوا مع پومبى . إنما أعطونى حرب العبيد التى لم تعد على إلا بربح قليل حقاً . لذلك أحتفظ لنفسى بأسرارى الخاصة الصغيرة ، وهذا المصنع واحد منها . كل أنبوبة من هذه الأنابيب الفضية التى تحوى العطر تساوى عشرة أمثال وزنها من الذهب الخالص . والعبد يأكل طعامك ثم يموت ، لكن هؤلاء العمال . يصنعون من أنفسهم ذهبا ولست بعد هذا مسئولا عن إطعامهم وإسكانهم .

فقال كايوس متأملا

- ومع ذلك فى استطاعتهم أن يعملوا ما عمله سبارتاكوس .

فابتسم كراسوس وهز رأسه وهو يقول .

- العمال يثورون ؟ لا لن يحـــدث ذلك أبدا . لأنهم ليسوا عبيدا كما ترى . إنما هم رجال أحرار يستطيعون المجىء والذهاب كما يشاءون . لماذا يثورون إذن؟

ودار كراسوس بنظره فى الحظيرة الكبيرة ، ثم تابع حديثه قائلا .

- لا . الحقيقة أننا لم نعطل أفراننا لحظة واحدة خلال حرب العبيد كلها . فلا علاقة بين هؤلاء الرجال وبين العبيد .

ومع ذلك ، فقد كان كايوس يشعر وهم يغادرون المكان بالانزعاج ، لأن أولئك الرجال الصامتين ، الملتحين ، الأغراب ، الذين كانوا يعملون فى خبرة وسرعة ملأوه بالخوف والتوجس . ولم يدر السر فى ذلك .

الجزء السابع

ويتضمن عودة شيشرون وجراكوس عائدين إلى روما وما تحدثا به أثناء الطريق، ثم حلم سبارتاكوس وكيف عرف جراكوس به

مكتبة
www.library4arab

كما اتجه كايوس وكراسوس والفتاتان جنوبا إلى كابوا على الطريق الأبيوسى . كذلك فعل شيشرون وجراكوس قبل ذلك بوقت قصير متجهين شمالا إلى روما . وكانت فيلاسالاريا على مبعدة سفر يوم قصير من المدينة ، وأصبحت تعتبر بعد ذلك بوقت قصير ليس أكثر من ضاحية . لذلك مضى شيشرون وجراكوس فى طريقهما على مهل ، تتقدم محفتاهما جنبا إلى جنب . ونجح شيشرون وهو من يميل إلى التعالى وفيه نصيب من ميل إلى التعاظم ، فى فرض احترامه على ذلك الرجل وهو القوة الكبيرة فى المدينة ، والواقع أنه كان من العسير بالنسبة لأى شخص ألا يستجيب إلى كياسة جراكوس السياسية .

فالرجل عندما يكرس حياته لكسب رضاء الناس وتجنب عداوتهم ، ملزم بتنمية سجايا معينة فى علاقاته الاجتماعية ، فكان من النادر أن يقابل جراكوس شخصاً لا يستطيع كسب محبته . ومع ذلك ، فلم يكن شيشرون ممن يبالغ الإنسان فى محبتهم . إذ كان واحدا من أولئك الشبان الماهرين الذين لا يسمحون للمبدأ بالتدخل فى النجاح . ومع أن جراكوس كان لا يقل عنه انتهازية ؛ إلا أنه كان يختلف عن شيشرون فى أنه كان يحترم المبـــادىء ، وكانت المبادىء بالنسبة له ، لا تعدو مجموعة مضايقات ، كان هو نفسه يبتعد عنها . وإذا كان شيشرون ، الذى كان يحب أن يتصور نفسه ماديا يرفض أن يعترف بأية مظاهر للاحترام فى أى كائن بشرى ، فقد

جعله ذلك أقل واقعية من جراكوس. كما عرضه ذلك لأن يصدم الشيء من وقت لآخر من الخبث اللطيف الذى كان العجوز السمين يبديه. وكانت حقيقة الأمر، أن جراكوس لم يكن أكثر خبثا من شيشرون. كل ما فى الأمر، أنه حارب خداع النفس بقوة أكبر مما فعل شيشرون، إذ وجد فيه عائقا يحـــول دون تحقيق مطامحه.

وكان احتقاره لشيشرون، من ناحية أخرى، أقل مما كان محتملا أن يكنه له. إذ كان شيشرون يحيره إلى درجة معينة. فكان جراكوس يعلم أن العالم يتغير، وأن تغييرا كبيرا جديدا قد طرأ خلال حياته، لا على روما فحسب، بل على العالم كله. وكان شيشرون هو النذير بذلك التغيير. فهو واحد من جيل كامل من الشبـان الماهرين الذين لا يعرفون الرحمة. وكان جراكوس لا يعرف الرحمة، إلا أن الاعتراف بالأسى على الأقل؛ والإحساس بالشفقة، إن لم يكن فعل يقوم على أساس من الشفقة، كانت تشوب قسوته. أما أولئك الشبان، فما كانوا ليقدرون على الشفقة أو الأسى. وكان يبدو عليهم أنهم يرتدون درعا مصمتا ضد الشفقة والأسى. وكان ذلك يشمل بعض الحسد الاجتماعى، لأن شيشرون كان متعلما إلى حد كبير، وكان واسع الصلات، ومع ذلك كان فيه أيضا عامل من الحسد لما غلف به جراكوس الموقف من برود خاص، وكان جراكوس

يحسد شيشرون إلى حدما على قدر من القوة يفتقده هو نفسه، وفى ذلك كانت أفكاره تدور وتجول .

وسأله شيشرون فى رقة قائلا

— أنائم أنت ؟

وكان شيشرون نفسه يجد فى حركة المحفة هدهدة تبعث على النعاس .

— لا — إنما أفكر .

فسأله شيشرون فى خفة ، وهو يؤكد لنفسه أن القرصان العجوز يدبر تحطيم واحد من أعضاء مجلس الشيوخ الأبرياء .

— فى مهام الدولة الثقيلة ؟

— فى أشياء بلا خطر ، فى ملحمة قديمة ، إذا شئت الحقيقة. قصة بالغة فى القدم ، سخيفة بعض الشيء . ككل القصص القديمة .

— هل تحكيها لى ؟

— أنا على ثقة من أنها ستبعث الملل إلى نفسك .

— لا يبعث الملل فى نفس المسافر إلا مناظر الطبيعة .

— على أية حال ، هى حــــكاية أخلاقية ، وليس أبعث على السأم أكثر من الحكاية الأخلاقية . أتظن أن للقصص الأخلاقية أى محل فى حياتنا اليوم ياشيشرون ؟

— إنها تصلح للأطفال الصغار . كانت قصتى المفضلة تدور حول احتمال وجود قريب نا . . هى قصة أم جراكشى .

— لا علاقة بين الاثنين .

— كنت فى السادسة من عمرى حينذاك ، وعندما بلغت السابعة ، أخذت أناقش القصة .

فابتسم جراكوس وقال

— وهل كنت شريرا إلى هذا الحد وأنت فى السابعة ؟

— أنا واثق من أننى كنت كذلك ، أحسن ما أحبـــه فيك ياجراكوس ، هو أنك لم تحاول يوما أن تشترى لنفسك شجرة عائلة .

— ذلك تبذير وليس فضيلة .

-- والقصة .

— أخشى أن تكون قد كبرت على القصة كثيرا .

فقال شيشرون:

— جربنى . لم تخيب قصصك أمالى قط

— حتى وإن كانت بلا هدف ؟

— إنها لم تكن بلا هدف يوما . كل ما على المرء أن يكون ماهرا إلى حد كاف ليرى الهدف .

فضحك جراكوس وقال

— إذن سأروى قصتى . هى تدور حول أم كان لها ولد واحد وكان طويل القامة ، جميلا وسيما ، وكانت تحبه كأكثر ما تحب الأم ولدها .

— أظن أن أمى كانت ترى فى عاتقا يحول دون تحقيق مطامحها المغرية .

— لنقل إن ذلك حدث منذ زمن بعيد ، عندما كانت الفضائل ممكنة التنفيذ . أحبت هذه الأم ولدها . وكان هو دنياها . ثم أحب الابن ووهب قلبه لامرأة كانت جميلة بقدر ما كانت شريرة . ولما

كانت المرأة بالغة الشر ، تستطيع أن تتأكد من أنها بالغة الجمال ومع ذلك فلم تمنح الابن حتى نظرة خاطفة ، أو حتى إيماءة ، أو حتى نظرة رقيقة . لاشىء على الإطلاق .

فوافق شيشرون قائلا

— لقد قابلت مثل هذا النوع من النساء .

— فذاب حنينا لها . وعندما سنحت له الفرصة ، حدثها بما سيعمله من أجلها ، وبالقلاع التى سيشيدها لها والثروات التى سيجمعها لها . لكن هذه الأشياء كلها كانت مجرد أفكار إلى حد ما . فقالت إنها لاتهتم بأى منها، وطلبت منه بدلا من ذلك هدية فى مقدوره أن يقدمها لها .

فسأله شيشرون قائلا:

— هدية بسيطة ؟

وكان جراكوس يجد لذة فى رواية القصص ، فتأمل السؤال ثم أحنى رأسه موافقا وقال .

— هدية بسيطة جدا . وطلبت من الشاب أن يحضر لها قلب أمه . ففعل .

أمسك بسكين وأغمدها فى صدر أمه ، ثم انتزع قلبها . وراح يجرى فى الغابة إلى حيث تقطن تلك المرأة الشريرة ، ولو أنها شابة جميلة ، وهو يجفل من الرعب والإثارة من جراء ما فعل .. وبينما هو يجرى ، تعثر قـــدمه فى جذر شجرة ، فسقط إلى الأرض . وعندما سقط ، وقع القلب من بين يديه بعيدا ، فجرى ليلتقط القلب الثمين الذى سيشترى له حب امرأة . وبينما هو ينحنى فوقه ، سمـــع القلب يقول « ياولدى ، هل أصبت بسوء عندما سقطت ياولدى ؟ » .

وعاد جراكوس بظهره إلى الوراء فى محفته ، وجمع أطراف أصابع كلتا يديه وراح يتأملها :

فقال شيشرون يسأل

— وبعد ذلك ؟

— هذه هى القصة كلها . قلت لك إنها قصة أخلاقية لاهدف لها .

— هل مغزاها المغفرة ؟ إنها ليست قصة رومانية . فنحن الرومانيين تنقصنا المغفرة : على أية حال ، ليست هذه القصة كقصة أم جراكثى .

— ليست المغفرة . إنما الحب.

— آه

— ألا تؤمن بالحب؟

— الحب الذى يفوق كل شىء آخر ؟ على الإطلاق . فليس مثل هذا الحب رومانيا .

— بحق السماء ياشيشرون ، أتستطيع أن تصنف كل شىء مبارك على الأرض ، فتقول إن هـــذا الشىء رومانى أو غير رومانى ؟

فقال شيشرون فى أدب :

— معظم الأشياء .

— وهل تؤمن بذلك ؟

فضحك شيشرون وقال :

— إذا شئت الحقيقة ، لا أومن بذلك فعلا .

ففكر جراكوس لنفسه قائلا :

— ينقصه الإحساس بالفكاهة . وهو يضحك لأنه يحس أن اللحظة ملائمة للضحك .

ثم قال بصوت مرتفع :

— كنت على وشك أن أنصحك بالإقلاع عن السياسة .

— صحيح ؟

— على كل . لا أظن أن نصيحتى ستؤثر عليك بصورة أو بأخرى .

— لكنك تظن أننى لن أنجح يوماً فى ميدان السياسة أليس كذلك ؟

— لا - لن أقول ذلك . هل فكرت يوماً فى السياسة — وماهى ؟

— هى مجموعة من الأشياء ، فيما أظن ، ليس من بينهما ماهو نظيف جدا .

وفكر جراكوس قائلا لنفسه .

— لقد أمضيت حياتى فى الاشتغال بالسياسة . هو لايحبنى .

فأنا ألطمه فيلطمنى ولماذا يصعب على إلى هذا الحد قبول حقيقة أن شخصا ما لايحبنى؟

وقال شيشرون يخاطب الرجل السمين :

— سمعت أن فضيلتك الكبرى هى عدم نسيانك للأسماء . هل صحيح أنك تستطيع أن تتذكر أسماء مائة ألف شخص ؟

ـــ هذا وهم آخر عن السياسة . أنا أعرف قليلا من الناس بالاسم ، وليس مائة ألف .

ـــ سمعت أن هانيبال كان يستطيع أن يتذاكر اسم كل رجل فى جيشه .

صحيح . وستقول إنه كان لسبارتاكوس ذاكرة مشابهة . فنحن لا نستطيع أن نقر بأنه إذا كسب شخص نصرا فذلك لأنه خير منا .

لماذا أنت مغرم كل الغرام بأكاذيب التاريخ صغيرها وكبيرها ؟

ـــ أكلها أكاذيب؟

فهدر جراكوس يقول :

— معظمها . التاريخ تفسير للدهارة والطمع . لكنه لم يكن تفسيرا أمينا فى يوم من الأيام . ولهذا سألتك عن السياسة . فقد قال أحد الأشخاص هناك فى البيت الريفى ، إن جيش سبارتا كوس لم يكن يعرف السياسة . لكن ذلك غير ممكن .

فابتسم شيشرون وقال :

— مادمت سياسيا ، هلا قلت لى ماهو السياسى ؟

فأجابه جراكوس فى اختصار :

— مزيف .

— أنت صريح على الأقل

— تلك فضيلتى الوحيدة ، وهى فضيلة ثمينة إلى حد كبير . والناس يخلطون فى السياسى بين الصراحة والأمانة ، ونحن نعيش فى جمهورية ، كما ترى . ومعنى ذلك أنه يوجد عدد كبير جدا من الناس لا يملكون شيئا ، وحفنة تملك الكثير . ويجب أن يحمى من لا يملكون شيئا ، من يملكون الكثير وأن يدافعوا عنهم . ليس هذا فحسب ، إنما يجب أن يحرس من يملكون الكثير ممتلكاتهم ، ولذلك يجب على من لا يملكون شيئا ، أن يرحبوا بالموت فى سبيل ممتلكات أشخاص مثلك ومثلى ومثل مضيفنا الطيب أنطونيوس .

والناس من أمثالنا يمتلكون الكثير من العبيد كذلك. وهؤلاء العبيد لا يحبوننا. ويجب ألا نقع تحت تأثير الوهم بأن العبيد يحبون سادتهم. هم لا يحبونهم. ولذلك لن يحمينا العبيد من العبيد. لذلك يجب أن يرحب الناس الكثيرون، الكثيرون، الذين لا يمتلكون عبيداً على الإطلاق بالموت، لنستطيع نحن أن نحتفظ بعبيدنا. وروما تحتفظ بربع مليون رجل تحت السلاح. ويجب أن يرحب هؤلاء الجنود بالذهاب إلى الأقطار الأجنبية، وأن يهلكوا أنفسهم مشياً على أقدامهم، وأن يعيشوا في الحمأ والقذارة، وأن يلغوا في الدم كي نأمن نحن ونعيش في راحة، ونزيد من ثرواتنا الشخصية. عندما خرجت تلك القوات لتحارب سبارتاكوس، كان ما يدافعون عنه أقل مما كان العبيد يدافعون عنه. ومع ذلك فقد ماتوا بالآلاف وهم يقاتلون العبيد. يستطيع المرء أن يستطرد فيقول إن الفلاحين الذين ماتوا وهم يقاتلون العبيد، كانوا قد انضموا إلى صفوف الجيش قبل كل شيء لأن نظام الضيعات كان قد طردهم من أراضيهم. فنظام الزرعة القائمة على العبيد، يحيل الفلاحين إلى فقراء لا يملكون أرضا. ثم يموتون في سبيل الإبقاء على نظام الضيعات سليما متماسكا، مما يغرى المرء بأن يقول، أنا أتراجع إلى الغباء أو العجز، لأنك يا عزيزي شيشرون، إذا فكرت فيما يتعرض الجندي الروماني الشجاع لفقده إذا انتصر العبيد، لأدركت أن العبيد سيحتاجون إلى الجندي احتياجا شديدا!

حقيقيا، لأنه لا يوجد من العبيد ما يكفى لفلاحة الأرض كما يجب، وسيوجد من الأرض ما يكفى الجميع، وسيحصل الجندى فى فيالقنا على ما طالما حلم به، وهو نصيبه من الأرض وبيته الصغير. ومع ذلك فهو يتقدم لتحطيم أحلامه الشخصية، ولكى يجعل ستة عشر عبدا يحملون خنزيرا عجوزا سمينا مثلى فى محفة مبطنة. أتنكر الحقيقة فيما أقول؟

— أظن أنه إذا صرح رجل عادى بما قلته أنت، بصوت عال فى الساحة العامة، لصلبناه.

— فضحك جراكوس وقال:

— شيشرون، شيشرون، أهذا تهديد؟ أنا أكثر سمنة، وأثقل وزنا، وأكبر فى السن من أن أصلب. ولما تثير الحقيقة إلى هذا الحد؟ من الضرورى أن نكذب على الآخرين، فهل من الضرورى أن نصدق أكاذيبنا؟

— الأمر كما تقرر أنت. كل ما فى الأمر أنك تحذف السؤال الرئيسى.

— هل يتشابه الرجال، أم لا يتشابهون؟ هنا تكمن المغالطة فى خطابك القصير. فأنت تسلم بأن الرجال متشابهون كحبات البازلاء فى سنفها. أما أنا فلا. لأنه توجد صفوة. قلة مختارة ـ مجموعة

من الرجال الممتازين . وسواء كانت الآلهه هى التى خلقتهم كذلك ، أو كانت الظروف هى التى جعلتهم كذلك ، فليس ذلك مجال المناقشة ، لكنهم رجال صالحون للحكم ، وهم يحكمون لأنهم صالحون للحكم ، ونظرا لأن باقى الناس كالبهائم ، فهم يسلكون كالبهائم . وأنت كما ترى تقدم رسالة ، والصعوبة هى أن تفسرها . فأنت ترسم صورة للمجتمع ، لكن لو أن الحقيقة كانت مناقضة للمنطق . كما هو الحال فى الصورة التى ترسمها ، لانهار البناء الاجتماعى كله فى يوم واحد . وكل ما تفشل فيه أنت ، هو تفسير هذه الأحجية المناقضة للمنطق .

فأحنى جراكوس رأسه موافقا ثم قال :

— أنا ، أنا أجعلها تتماسك .

— أنت ؟ أنت وحدك ؟

— شيشرون ، هل تظن حقيقة أنى أحمق ؟ لقد عشت حياة طويلة خطرة ، ومازلت مع ذلك فى القمة . لقد سألتنى من قبل عمن يكون السياسى . السياسى هو الأسمنت فى هذا البيت المجنون . لا يستطيع النبيل نفسه أن يفعل ذلك . لأنه يفكر فى المحل الأول بنفس الطريقة التى تفكر بها أنت ، والمواطنون الرمانيون لا يحبون أن يقول لهم أحد إنهم بهائم . لأنهم ليسوا كذلك ، وهذا ما ستتعلمه فى يوم من الأيام . والنبيل فى المحل الثانى لا يعرف شيئا عن المواطن

العادى . ولو أن الأمر ترك بين يديه لانهار البناء فى يوم واحد. لذلك يأتى النبيل إلى أناس مثلى . فهو لا يستطيع العيش من غيرنا لأننا نسوغ غير المعقول ونبرره، ونقنع الناس بأن أعظم ما يحققه المرء فى حياته هو أن يموت فى سبيل الأغنياء، ونقنع الأغنياء بأن من واجبهم أن يتخلوا عن بعض ثرواتهم لتطعم البائسين. نحن سحرة. نحن نضفى وهما، وهذا الوهم لا ينفذ منه الحمق، نحن نقول للناس:

. أنتم مصدر السلطات، وأصواتكم هى مصدر قوة روما ومجدها وأنتم الشعب الحر الوحيد فى العالم . وليس هناك ما هو أثمن من حريتكم، ولا ما هو أجدر بالإعجاب من مدينتكم وأنتم تسيطرون عليهم ، فأنتم مصدر السلطات . وعند ذلك يعطون أصواتهم لمرشحينا، ويبكون لهزائمنا، ويضحكون طربا لانتصاراتنا، ويشعرون بالفخر والعظمة لأنهم ليسوا عبيدا . ولا أهمية لمدى عمق الحضيض الذى يهبطون إليه، فهم إذا ناموا فى المجارى، وإذا جلسوا فى المقاعد الشعبية فى السباق أو فى المجتلد طيلة اليوم، أو إذا خنقوا أطفالهم عند ولادتهم، أو إذا عاشوا على الصدقة العامة ولم يحركوا ساكنا للقيام بعمل يوم واحد منذ ولادتهم حتى مماتهم، فهم بالرغم من كل هذا ليسوا عبيدا . هم قذارة ، لكنهم كلما رأوا عبدا ، ترتفع ذواتهم ويحسون الكبرياء، والقوة تملؤهم . ثم يدركون أنهم مواطنون رومانيون ، وأن العالم بأسره يحسدهم على ذلك . وهذا هو فنى الخاص يا شيشرون ، فلا تقلل من شأن السياسة أبدا .

كل ذلك لم يعجب جراكوس لشيشرون ، وعندما وصلا فى النهاية إلى أول صليب كبير ، وكان مقاما على بعد أميال قليلة خارج جدران روما ، أشار شيشرون إلى الرجل السمين الذى جلس يغالب النعاس تحت مظلته ، وعلق على ذلك لجراكوس قائلا :

— من الواضح أنه سياسى من ناحية المظهر والتدريب.

— واضح ، بل هو فى الحقيق صديق قديم لى.

وأشار جراكوس إلى حملة المحفات ليتوقفوا ، ونزل من محفته فى عناء وجهد ، وفعل شيشرون نفس الشىء . وقد سره أن أتيحت له الفرصة ليمدد ساقيه . كان الماء يقترب فى تلك اللحظة ، وكانت سحب المطر الداكنة تتحرك قادمة من الشمال . وتقدم شيشرون مقتربا منها.

وقال جراكوس :

— إذا كنت راغبا فى مواصلة السفر فلتفعل.

فما كانت به أية رغبة فى التودد إلى شيشرون . وكانت أعصابه ثائرة . فقد تركت الأيام القليلة التى أمضاها فى فيلا سالاريا طعما

كرمها في فمه . وكان يتساءل قائلا .. ماذا دهاه ؟ هل تقدمت به السن ولم يعد يشعر بالأمن والطمأنينة ؟

وقال شيشرون

— سأنتظر .

ووقف إلى جانب محفته ، وراح يرقب جراكوس وهو يتقدم إلى الرجل الجالس تحت المظلة . وكان من الواضح أن كلا منهما يعرف الآخر . كانت الديمقراطية التي تسود الأحياء والسياسيين ديمقراطية غريبة حقا . فقد كانت عالما قائما بذاته .

وسمع شيشرون جراكوس وهو يقول

— الليلة .

فهز الرجل الجالس تحت المظلة رأسه وصاح جراكوس يقـــول :

— سكستوس لقد قلت لك ما أريد . أنا لا أعبأ بمثقال ذرة بسكستوس . إما أن تفعل كما أقول ، وإلا فلن أخاطبك أو أنظر إلى وجهك طيلة حياتي - أو طيلة حياتك . وهذا أمر لن يطول طالما أنت تجلس تحت هذا اللحم العفن .

— أنا آسف ياجراكوس .

— لا تقل لى إنك آسف. افعل ما أقول .

وخطا جراكوس عائدا إلى محفته وصعد إليها ،ولم يوجه إليه شيشرون أى سؤال عما حدث منذ قليل ، لكنه ذكر جراكوس وهما يقتربان من أبواب المدينة بالقصة التى رواها فى فترة سابقة من النهار ، قصة الأم التى تفانت فى حب ولدها

— كانت قصة طريفة ، لكنك أضعتها فى ثنايا الحديث.

— صحيح ؟ هل أحببت يوما ياشيشرون ؟

— لم أحب بالطريقة التى يتغنى بها الشعراء. لكن تلك القصة

— القصة ؟ لا أستطيع الآن أن أتذكر لماذا حكيتها ، كما ترى لا بد أنى كنت أود أن أوضح نقطة فيها أظن ، لكننى نسيتها .

وافترقا فى داخل المدينة ، وذهب جراكوس إلى بيته . وكان الليل على وشك أن ينسدل عندما وصل إليه،فاستحم على ضوء المصباح ، ثم أنبأ مدبرة منزله أنه سيتأخر قليلا فى تناول العشاء لأنه ينتظر ضيفا ، فأحنت المرأة رأسها موافقة ، ثم ذهب جراكوس إلى غرفة نومه ، ورقد ، وراح يحدق إلى الظلام مكتئبا دون أن يرى شيئا . وطاف به الموت وهو راقد هناك . فقد كان هناك مثل لاتينى

تدير عن الظلام يقول إن الظلام يفسح مكانا للموت ، اللهم إلا إذا صاحب الإنسان امرأة يحبها . لـــكن جراكوس لم يفعل ذلك قط . لم يصاحب امرأة يحبها . فقد كان جراكوس العجوز يشترى نساءه من السوق ، ذلك ما كان جراكوس العجوز الشرير يفعله متى جاءته امرأة بمحض رضائها وبسرور ؟ كان يرغم نفسه على الشعور بإحساس الملكية ، وبتيار من التآلف مع من كان يشترى من النساء كمحظيات ، لكن الشعور بالحب لم يكن له وجود قط .

وعاد إلى ذهنه فى تلك اللحظة ، وهو راقد هناك ، ذلك الجزء من الأوديسة الذى ينفذ فيه أوديسيوس انتقامه بعد أن ذبح الخاطبين غير المخلصين . ولم يكن جراكوس قد نعم فى طفولته بمزية الحصول على معلم يونانى ليفسر له الروائع القديمة صفحة صفحة . إنما كان هو الذى سعى إليها بنفسه وقرأها كما يقرأ الرجل الذى يعلم نفسه بنفسه مثل هذه الأشياء . لذلك ظل على الدوام متحيرا للكراهية الوحشية غير الإنسانية التى أظهرها أوديسيوس نحو إمائه .

واسترجع فى ذهنه فى تلك اللحظة كيف أرغم أوديسيوس النساء الاثنتى عشرة على حمل جثث عشاقهن خارجا إلى الفناء ، وعلى إزالة دمائهم من أرض بهو المأدبة القذرة ثم حكم عليهن بالإعدام ،

وأصدر لابنه التعليمات بتنفيذ الحكم . ووافق الابن أباه . وكان تليماك هو الذى يصور فكرة الاثنتى عشرة أنشوطة فى حبل واحد وفى خنقهن كلهن دفعة واحدة معا . كصف من الدجاج المنتوف الريش .

وتساءل جراكوس ، ما السبب فى مثل هذه الكراهية ؟ لماذا مثل هذه الكراهية الرهيبة المتوحشة ؟

لعله كان أكثر تمدينا من أن يقتل أمة من إمائه اتصلت برجل آخر فى مكان آخر .

لعله كان قليل الاحتفال بذلك — إلا أنه أساساً ، لم يكن يفرق بين علاقاته بالنساء . فهو لم يشغل نفسه يوما طيلة حياته الطويلة بالاهتمام كثيراً بما تكونه المرأة . وكان قد تباهى على شيشرون بأنه لم يخف يوما من الاعتراف بالحقيقة الجوهرية للأشياء — ومع ذلك فقد كانت حقيقة المرأة فى العالم الذى يعيش فيه ، شيئا لم يجرؤ على مواجهته . واليوم ، وبعد طول انتظار — يقدم على حركة رائعة حقا — قد وجد امرأة لا تقل عن المخلوقات البشرية . على أن العسير فى الأمر ، أنه كان عليه أن يجدها .

وطرقت واحدة من الإماء الباب ، وعندما تكلم أخبرته أن ضيفه المدعو للعشاء قد حضر .

— سأحضر بعد دقيقة. وفرى له الراحة . هو قذر ممزق الثياب ، لكنى سأجلد بالسياط أية واحدة تنظر إليه من طرف أنفها. قدمى له ماء دافئا ليغسل وجهه ويديه، ثم أعطيه عباءة خفيفة ليغطى نفسه بها. اسمه فلافيوس ماركوس. ناديه باسمه وتحدثى إليه بأسلوب مهذب.

ووضح فيما بعد أن كل ذلك قد نفذ حسب الأوامر، لأن جراكوس عندما دخل إلى غرفة الطعام، وجد الرجل السمين الذى كان يجلس تحت المظلة إلى جانب الصليب الأول، يتمدد على أريكة، بالغ النظافة، محترم المظهر، لا ينقصه شىء إلا حاجته إلى حلاقة ذقنه. وعندما دخل جراكوس، دلك لحيته بيده وهو مدرك لذلك النقص وقال:

— لو أنك أضفت حلاقة الذقن إلى كل هذا.

— أنا جوعان. وأظن أنه يجدر بنا أن نأكل يافلافيوس. تستطيع أن تمضى الليل هنا، وسآمر حلاقى أن يحلق لك ذقنك فى الصباح. وسيكون ذلك أفضل بعد راحة ليلة طيبة، وبعد الحمام، وسأعطيك رداء نظيفا وبعض الأحذية اللائقة. فحجمانا متقاربان وستلائمك ثيابى كل الملاءمة.

وكان حجماهما متقاربين، وكانا كثيرى الشبه إلى حد يحمل على الظن أنهما أخوان.

— هذا — إذا لم تكن خائفا من أن يقرعك سكستوس لتركك وظيفته الرخيصة التي لا عمل فيها يوازي راتبها، ولقبولك كسرة مني.

فقال فلافيوس وفي صوته رنة عواء:

— أجل. ليس أيسر من الحديث بالنسبة لك. فقد سارت الأحوال على ما يرام بالنسبة لك ياجراكوس: ثروة، راحة، احترام، شرف، قوة. وأصبحت الحياة بالنسبة لك كوعاء ملىء بالقشدة، لكنها أصبحت شيئا آخر بالنسبة لي، أؤكد لك. أؤكد لك أن الرجل لا يشعر بالاحترام أو بالكبرياء، وهو جالس تحت جثة عفنة، ويحيك الأكاذيب كي ينعم عليه المسافرون بالقليل يلقونه في راحة يده. إنه شيء مرير كريه أن يصبح المرء شحاذا. لكنى حصلت على الأقل على شيء بسيط من سكستوس عندما وصل بي الحال إلى الحضيض. وأنا اليوم عندما أعود إليه من جديد، سيقول لي.. آه، أنت لم تعد في حاجة لي. إذهب إلى حاميك العظيم وصديقك جراكوس، هذا ما سيقوله، لأنه يكرهك وسيكرهني بالتالي.

فقال جراكوس:

— فليكرهك. سكستوس ضفدع، صرصار، رئيس حي صغير، رخيص. فليكرهك. افعل ما أطلبه منك، وسأحصل لك

على عمل هنا فى المدينة ، عمل كتابى ، عمل كحارس ، أى عمل تستطيع أن تدخر منه قليلا من المال وتحيا حياة محترمة . ولن تحتاج إلى مد اليد إلى سكستوس مرة أخرى .

— كان لى كثير من الأصدقاء فى أحد الأيام ، عندما كنت مفيدا لهم ، أما اليوم فقد أموت فى بالوعة . .

فقاطعه جراكوس قائلا :

— أنت مفيد لى ، ولنرتب الأمر على هذا الأساس وحده الآن ، تناول عشاءك وكف عن العواء . يا إلهى ، إن الحظ الحسن يحيط بك من كل جانب . لكنك خائف من أن تقول له كيف حالك . لست أدرى مم تخاف .

وأنعش الطعام والنبيذ فلافيوس . وكان جراكوس يملك أمة مصرية فى مطبخه . وكانت متخصصة فى نزع العظام من صغار الحمام ثم حشوه بالصنوبر والمكسرات والشعير الرائع . ثم تطهوه على نار هادئة وتسقيه البراندى وشراب التين . قدمته لهما الإماء ومعه مقانق صغيرة مصنوعة من لسان الحمل المدخن المقرى مع قشر الليمون ، وكانوا يسمونه « فولا » وكان مشهورا بحق فى طول المدينة وعرضها . بدأ العشاء بالبطيخ ، وأتبع بهذين الصنفين ، ثم بحساء أبيض من لحم سرطان البحر المقرى ، يضفى عليه الثوم نكهة رقيقة . ثم فطيرة حلوة من العنب والبلح ، إلى

جانبها شرائح رقيقة كالورق من فخذ الخنزير المدخن . ثم عيش الغراب المشوى فوق قاعدة من لحم السمك الأبيض اللامع ، وفى النهاية صينية فيها فطيرة لوز ثم فطائر السمسم الحلوة . ومع الخبز الأبيض الساخن والنبيذ الأحمر الجيد . وعندما فرغا من العشاء ، مال فلاڤيوس بظهره إلى الوراء وهو يبتسم مستريحا ، وبطنه الضخم يهتز فى رقة ثم قال :

— لم آكل أكلة مثل هذه ياجراكوس منذ خمس سنوات . الطعام الجيد هو خير بلسم فى العالم . ياإلهى ، مثل هذا الطعام . وأنت تأكل بهذا الشكل كل ليلة ! حسن . أنت رجل ماهر ياجراكوس ، وما أنا إلا أحمق عجوز . أظن أنك تستحق ذلك ، ولا حق لى فى أن أستاء . أنا الآن على استعداد لسماع ما تريد منى أن أعمله لك . مازلت أعرف قليلا من الناس ، وقليلا من رجال العصابات ، وقليلا من قاطعى الرقاب وقليلا من النساء . ولا أعرف ما أستطيع أن أعمله أنا ولا تستطيع أن تعمله أنت بنفسك ، أو أن تجد شخصا آخر يعمله خيرا منى ، لكنى على استعداد .

فقال جراكوس :

— سنتكلم أثناء احتساء الشراب .

وصب قدحا لكل منهما ثم قال:

— أعتقد أن فيك فضائل يافلافيوس . كان فى استطاعتى أن أجد شخصا آخر غيرك يعرف كل من يتعاملون فى روما فى الأجساد والأرواح والآلام ، لكنى لا أريد أن أدخل فى هذا الأمر أى شخص يستطيع أن يرجع على بأى شىء . أريد أن أعمل عملا يتم كما يجب ، وفى هدوء وصمت .

فقال فلافيوس :

— أستطيع أن أكتم السر .

— أنا أعرف ذلك . ولهذا أطلب منك أن تقوم لى بهذا العمل . أريد منك أن تعثر لى على امرأة ، أمة . أريدك أن تعثر عليها وتشتريها دون مراعاة للثمن . وسأضع تحت أمرك مبالغ غير محدودة تنفق منها فى العثور عليها .

— أى نوع من النساء هذه ؟ الله يعلم أن فى السوق الكفاية من الإماء . بل لقد أصبح فى السوق فيض منهن بعد انتهاء حرب العبيد . ومن غير العادى أن يفتش المرء عن أى نوع من الأسعار . أعتقد ، أنى مستطيع أن أجد لك أى لون من النساء تريده : سوداء بيضاء ، صفراء أو سمراء ، عجوز أو شابة جميلة أو قبيحة ، شقراء ، سوداء الشعر ، حمراء الشعر — أى شىء على الإطلاق . أى نوع تريده أنت ؟

فقال جراكوس فى بطء :

— لا أريد نوعا بالذات. أريد امرأة معينة.

— أمة؟

— أجل.

— من هي؟

— إسمها ڤارينيا، وكانت زوجة سبارتاكوس.

— آه.

وتطلع فلاڤيوس إلى جراكوس محاولا الفهم. ثم رشف رشفة من شرابه، ثم نظر إلى جراكوس من جديد. ثم سأله في نعومة:

— وأين هي؟

— لا أدري.

— لكنك تعرفها؟

— نعم ولا. فأنا لم أرها قط.

— آه.

— كف عن قولك آه كالعراف اللعين.

— إنما أحاول التفكير في شيء ذكي أقوله.

وهدر جراكوس يقول:

— وأنا أستأجرك كوكيل لا كوسيط . وأنت تعرف ما أريد منك أن تعمله .

— تريد منى ان أجد لك امرأة ، لكنك لا تعرف أين هى ، ولم ترها قط . أتعرف ما شكلها ؟

— أجل . هى فارعة الطول ، متينة البنيان ، لكنها هيفاء ، عالية الصدور ، مليئة الأثداء . هى ألمانية . لها ذلك الشعر الألمانى فى لون القش ، وعينان زرقاوان ، أذناها صغيرتان ، عالية الجبين ، أنف مستقيم لكنه ليس صغيرا ، عينان غائرتان ، وفم ملىء ، شفته السفلى تميل إلى الامتلاء . وهى قد تتكلم اللاتينية بصعوبة ، وقد تتظاهر بأنها لا تتكلمها على الإطلاق . وتتكلم اليونانية بصورة أفضل بلكنة تراقية . وهى قد وضعت طفلا خلال الشهرين الماضيين ولكن من المحتمل أن يكون الطفل قد مات . وحتى إذا كان الطفل قد مات ، فهى ما زالت تحمل اللبن فى ثديها ، أليس كذلك ؟

— ليس ضروريا ، كم عمرها ؟

— لست على ثقة من ذلك . ثلاثة وعشرون على الأقل ، ومن المحتمل أن يصل عمرها إلى السابعة والعشرين . لست متأكدا .

— من المحتمل أن تكون قد ماتت .

— هذا احتمال . إذا صح ذلك ، أريد منك أن تعرف . وأريد منك أن تحضر لى الدليل على موتها . لكنى لا أظن أنها قد ماتت. فهى ليست ممن يقدمون على الانتحار إطلاقا . وامرأة كهذه ليس من الممكن قتلها سريعا .

— وكيف تعرف أنها لا تقدم على الانتحار ؟

— أنا أعرف . لا أستطيع تفسير ذلك ، لكنى أعرف .

فقال فلافيوس :

— ألم يستولوا على معسكر سبارتاكوس بعد هزيمته ، وكان فيه حوالى عشرة آلاف امرأة وطفل ؟

— كان فيه اثنان وعشرون ألف امرأة وطفل . اثنا عشر ألفا وزعوا على الجنود كغنائم . كانت هذه أنتن فضيحة من نوعها سمعت عنها طيلة حياتى ، لكن كراسوس كان يقف وراءها ، وأعطى نصيبه من الغنائم إلى الخزانة العامة ليسكتهم . ولم يكن ذلك باللفتة الكريمة من جانبه ، لأن نصيبه كان قليل القيمة . وقام بلفتة كبيرة برفضه قبول العبيد لنفسه ، لأنه كان يعرف ما سيصبح عليه السوق.

— وهل كانت فاريقيا بين تلك النساء ؟

— ممكن ، وغير ممكن . فقد كانت زوجة قائدهم . ومن المحتمل

أن يكونوا قد اتخذوا بعض الوسائل الخاصة لحمايتها .

— لا أدرى، فقد جعل العبيد من المساواة صنما لهم .

وأفرغ جراكوس بقية كأسه فى جوفه ، وأشار بإصبعه الغليظة إلى الرجل الآخر وقال :

— هل تريد أن تعمل ما أقول ، أم لا تريد ؟ . لن تستطيع أن تصل إلى أى حل لذلك بالكلام يا فلافيوس . لأن الأمر يتطلب عملا شاقا .

— أنا أعرف أنه يتطلب العمل الشاق . كم من الوقت ستعطينى ؟

— ثلاثة أسابيع .

ففتح فلافيوس ذراعيه وقال .

— آه ، لا ـ آه ـ ليس هذا بالوقت الكافى على الإطلاق . قد لا تكون فى روما ، فأضطر إلى إرسال الرسل إلى كابوا أو إلى سرقسطة وإلى صقلية ، وربما إلى أسبانيا وأفريقيا . كن معقولا .

— أنا معقول إلى الحد الذى أنويه ، اللعنة على كل شىء . اذهب إلى سكستوس وعش على صدقته .

— حسن ياجراكوس ، لا داعى لأن تغضب إلى هذا الحد . لكن لنفرض أننى سأضطر إلى شراء عدد من النساء ؟ أتعرف

عدد الألمانيات اللاتى ينطبق عليهن ذلك الوصف بالذات ؟

— كثير جداً ، أنا واثق . أنا لا أريد أى امرأة ينطبق عليها ذلك الوصف . أنا أريد ڤارينيا .

— وكم أدفع ثمناً لها إذا وجدتها؟

— أى ثمن يطلب . سأدفعه .

— حسن . أوافق ياجراكوس. صب لى كأساً آخر من هذا الشراب الممتاز من فضلك .

فصب له جراكوس الشراب . وتمدد فلاڤيوس على أريكته وراح يرشف الشراب ، ويتطلع إلى الرجل الذى وظفه وقال .

— أنا لى مواهب معينة . ألست كذلك ياجراكوس ؟

— كذلك ، بلا شك .

— ومع ذلك ، أظل فقيراً وأظل فاشلا . أتسمح لى ياجراكوس بأن أسألك سؤالا واحداً قبل أن نترك هذا الموضوع ؟ لا تجب عليه إذا لم ترد . لكن لا تغضب .

— سله .

— لماذا تريد هذه المرأة ياجراكوس ؟

— لست غاضبا ، لكنى أظن أن الوقت قد حان لكى ننام . فكلانا لم يعد شاباً ، كما كنا من قبل .

لكن العالم فى تلك الأيام ، لم يكن كبيراً أو معقداً كما هو اليوم، إذ ظهر فلافيوس فى منزل جراكوس قبل انقضاء الأسابيع الثلاثة المحددة . وأعلن إليه نجاحه فى إتمام مهمته . فالمال كما يقولون له سطح ناعم يترك أثره على من يتعاملون به، وكان فلافيوس مختلفاً ، إذ أضحى أنيق الهندام ، حليقا ، واثقا من نفسه لنجاحه فى الوصول بمهمته العسيرة إلى نهايتها . وجلس إلى جراكوس يحتسيان زجاجة من النبيذ ويعرض معلوماته ، وجراكوس نفسه يشد حبال صبره حتى لا ينفد .

قال فلافيوس مفسراً :

— بدأت بالعمل المحير حقا ، وهو الوصول إلى الضباط الذين شاركوا فى الغنائم . إذ أدركت أنه لو كانت ڤاريتيا جميلة ومتينة البنيان ، فإنها تختار فى تلك المجموعة الأولى . لكنك عند ماتدرك أن مسألة تملك العبيد بوضع اليد ، كانها عملية غير مشروعة ، وأن خمسمائة أو ستمائة ضابط ، قد اشتركوا فى ذلك ، وأن القليل جداً منهم هو من أبدى أى رغبة فى الكلام ، تستطيع أن ترى أن ذلك لم يكن أمراً يسيراً . حسن ، وكان الحظ

مواتيا لنا . فالناس يتذكرون . عادت ڤارينيا إلى العمل . عندما بلغتهم أنباء هزيمة العبيد وتذكر الناس تلك المرأة التى كانت ترفض الانفصال عن طفل حديث الولادة . ولم يعرفوا أنها كانت زوجة سبارتاكوس ، أو أن اسمها كان ڤارينيا ، ويجب أن تفهم أن كراسوس أرسل بعد المعركة مباشرة كتيبةمن الخيالة لتهاجم مدينة العبيد ، أو معسكرهم ، أو قريتهم ، أو سمها ما شئت . ثم تبعتها المشاة . ولم تقاتل نساء العبيد وأطفالهم الموجودون هناك طويلا . إذ كان من بينهم بعض الصبيان فى الثالثة والرابعة عشرة — فقد كانوا مذهولين ، إذ كانوا قد سمعوا لتوهم نبأ تحطيم جيش العبيد . لكنك تعرف كيف يصبح الجنود بعد المعركة ، وأظن أن قتال العبيد ليس مجرد نزهة . إذ قام الجنود . . .

فقال جراكوس :

— لست فى حاجة إلى تلخيص لنفسية جنود الفيالق . علىّ بالحقائق .

— إنما أحاول أن أصف لك الموقف فقط . أقصد أنه حدث أول الأمر كثير من القتل الذى لا معنى له ، لأن جنودنا كانوا غضبى ودماؤهم فائرة . وكانت ڤارينيا قد وضعت لتوها . حسن . طفل العبد لا يكاد يساوى وزنه ذهبا فى هذه الأيام . وكان ما هدانى إليها هو قصة جندى حمل هذا الطفل من ساقه ،

وبدأ يديره فى الهواء ليحطم يافوخه على عامود إحدى الخيام ، لولا أن أوقفه كراسوس نفسه . وأنقذ كراسوس الطفل وضرب الجندى بيديه حتى كاد يقتله . لا يمكن أن يتوقع المرء ذلك من كراسوس أليس كذلك ؟

ــ لا يهمنى ما يتوقعه المرء وما لا يتوقعه من كراسوس . أى ثرثار عجوز أنت يا فلافيوس ؟ هل وجدت فارينيا ؟ هل أصبحت مالكا لها ؟ هل اشتريتها ؟

ــ لم أستطع شراءها .

فزأر جراكوس يقول فجأة ــ « لماذا » ؟ وهو ينهض واقفا على قدميه وقد انفجر غضبه انفجارة مخيفة بقدر ما هى غير متوقعة . وبينما راح يتقدم من فلافيوس ، انكمش الآخر متراجعا فى مقعده وأنشب جراكوس يده فى عنق ردائه وانحنى عليه وصاح يقول :

ــ لماذا ؟ لماذا ؟ أيها الشحاذ السمين العديم النفع ؟ هل ماتت ؟ إذا لفقت قصة ، فأقسم على أن أرجعك إلى البالوعة إلى الأبد . إلى الأبد .

ــ هى لم تمت .

ــ أوه . لكنك ملىء بالثرثرة ، كالقربة التى تصدر أصواتا بدلا من الكلام ، لماذا لم تشترها ؟

وأطلق سراح فلافيوس ، وإن ظل على وقفته فوقه . وقال فلافيوس فجأة وفى صوت عال :

— اهدأ . لقد كلفتنى بعمل فقمت به . قد لا أكون فى مثل ثرائك يا جراكوس ، وقد أكون من البالوعة أصلا ، لكن ذلك لا يعطيك أى حق فى مخاطبتى بهذه الطريقة . أنا لست عبدك . وعندما يصبح الرجل فى مثل حالتى ، ففى ذلك الكفاية من سوء الحال . ولست فى حاجة إلى أن تزيده سوءا .

— أنا آسف .

— لم أشترها لأنها ليست معروضة للبيع . هذا كل ما هناك .

— الثمن ؟

— ليس الثمن فلا ثمن لها على الإطـــلاق . إنما لأنها ملك لكراسوس . وتعيش فى بيته وليست معروضة للبيع . ألا تعتقد أنى حاولت ؟

كان كراسوس فى كابوا ، فطرقت الموضوع مع وكلائه فى أثناء غيبته هناك . أوه ، لا — لم يكن فى الإمكان عمل أى شىء . فقد رفضوا حتى مناقشة الموضوع . فما إن وصل الحديث إلى تلك الأمة بالذات ، حتى توقفوا عن الحديث . فهم لا يعرفون شيئا عن مثل هذه الأمة ، ويرفضون الكلام فى ثمنها ، ويرفضون حتى المضاربة . فجعلت المال يتساقط فى أيديهم ، لكن ذلك لم يغير الموقف إطلاقا

لو أننى كنت أريد الحلاق أو الطباخ أو مدبرة البيت ، لأمكن ترتيب ذلك . بل لقد رحبوا بعقد صفقة تتناول امرأة سورية جميلة اشتراها كراسوس فى العام الماضى ، وتعهدوا بتسليمها لى . كانوا على أتم الاستعداد لعمل ذلك من أجلى ، أما فارينيا فلا .

— إذن فكيف عرفت أنها فارينيا ؟ وكيف عرفت أنها هناك ؟

— لقد اشتريت تلك المعلومات من العبد المختص بصيوان الملابس . أوه . لا تظن أن أهل بيت كراسوس يكونون عائلة صغيرة متماسكة سعيدة . فله ابن يكرهه كراهية التحريم ، وزوجة تعيش منفصلة عنه على استعداد لقطع رقبته ، والمؤامرات التى تدور فى بيته تشبه شيئا قادما من الشرق . على كل ، استطعت أن أشترى معلومات . لكنى لم أستطع شراء فارينيا .

— وهل عرفت لماذا اشتراها ؟ ولماذا يحتفظ بها ؟

فضحك فلاڤيوس وقال :

— طبعا عرفت . كراسوس يحبها .

ماذا ؟

— نعم . لقد عرف كراسوس العظيم الحب .

عند ذاك قال جراكوس بتروٍ وفى بطء :

— فليلعنك الله يا فلاڤيوس ، إذا تحدثت عن هذا الموضوع .

إذا شاع هذا الأمر يوما ، وإذا سمعت في يوم من الأيام أى جزء منه يتردد فى أى مكان ، فليساعدنى الله ، سأعمل على صلبك .

— ما هذه الطريقة التى تتكلم بها ؟ لست الله يا جراكوس .

— لا . لا . ولا تربطنى حتى علاقة بعيدة بأى رب من الأرباب كما يدعى بعض أنصاف المجانين من نبلائنا . على الإطلاق .

لكننى قريب من الله قرب أى إنسان عمل يوما فى السياسة الرومانية . وأنا قريب منه إلى حد يكفى للإيقاع بك يا فلاقيوس ولتعليقك على الصليب . فإذا تسرب أى جزء من هذا الموضوع فسأصلبك . فخذ حذرك .

تأهب جراكوس بعد ظهر اليوم التالى للذهاب إلى الحمامات ، وهو عمل له ضرورته السياسية ،وله مكافآته . فقد كانت الحمامات العامة تتحول يوما بعد يوم إلى مراكز سياسية واجتماعية ، فكان يتم عزل وتعيين أعضاء مجلس الشيوخ والقضاة فى الحمامات ، وكان يتم تداول ملايين القطع الذهبية فى الحمامات ، وكانت الحمامات تجمع بين البورصة المالية والنادى السياسى . ومن هنا كان الظهور فى فترات معينة يكاد يكون إلزاما . وكان هناك ثلاثة حمامات كبيرة معدة أحسن إعداد ، كان جراكوس يسيطر عليها . أولا الطلوتم ، وهو أحدثها نسبيا ، أما الآخران فكانا أقدم منه ، ولو أنهما مازالا على أناقتهما . وعلى الرغم من أنه لم يكن مسموحا لكل المواطنين بدخول هذه الحمامات الثلاثة ، فقد كان أجر الدخول بالغا فى التواضع ، لا يكفى لمنع حتى الرجل الفقير من الدخول ، ولوأن وضعا اجتماعيا معينا كان يحول دون دخول عامة الناس إلى تلك الأماكن بالذات . وكانت روما كلها تخرج من بيوتها بعد الظهر عندما يكون الجو رائقا . حتى العمال الرومانيون الذين كانت أعدادهم تتضاءل ، كانوا يفرغون من أعمالهم الساعة الواحدة بعد الظهر : إذا كانت زيادة ساعات العمل تشجعهم على نبذ العمل والعيش على الصدقات

العامة . فكان بعد الظهر هو وقت الرجل الحر : يكد العبيد ويستريح المواطن الروماني .

وكان جراكوس ، مع ذلك ، قليل الاحتفال بالألعاب ، ولا يهتم إلا بالسباق من وقت إلى آخر . وكان يختلف بعض الشيء عن زملائه في أنه لم يكن يقوى على مشاهدة مأساة رجلين عاريين يمسك كل منهما بسكين في يده ، ويطعن كل منهما الآخر حتى يصبحا مفازع من اللحم الممزق والدم المتدفق . ولم يكن ليجد كذلك متعة في مراقبة رجل يتلوى في شباك صيد السمك ، بينما تفقأ عيناه وتفتح بطنه مدراة صيد الأسماك الطويلة . على أنه كان يستمتع من وقت لآخر بتمضية بعد ظهر أحد الأيام في سباق الجياد . أما سباق العربات الذي كان العنف يتزايد فيه يوما بعد يوم فيصبح نزالا جديا بين السائقين المتنافسين أمام جمهور لا يقنع أبدا إلا إذا تهشم رأس أو انسحق جسد ، فكان لا يبعث في جراكوس إلا الملل . ولم يكن مرجع ذلك إلى أن قلبه كان أرق من قلب أي رجل آخر ، إنما لأنه كان يكره الغباء ، وكانت كل تلك الأعمال بالنسبة له بالغة الغباء . أما المسرح ، فلم يكن ليفهمه على الإطلاق ، ولم يكن يحضر إلا حفلات الافتتاح الرسمية حيث يضطر إلى الظهور كموظف من موظفي المدينة .

أما أكبر متعة له بعد الظهر ، فكانت هي السير حتى الحمامات

مخترقا الشوارع القذرة الملتوية التى لا نهاية لها فى المدينة المحبوبة روما التى أحبها على الدوام . إذ كانت روما أمه . وأمه ، كما كان يقرر بينه وبين نفسه ، عاهرة ، لفظه رحم أمه إلى قذارة الشارع . لكنه حتى تلك اللحظة كان يحب أمه ، وكانت أمه تحبه . كيف كان يستطيع أن يفسر لشيشرون ما كان يعنيه بإعادة رواية تلك الملحمة القديمة ؟ إذ كان من الضرورى أن يحب شيشرون روما أولا ، وأن يرتبط مثل ذلك الحب بمعرفة مدى خستها وشرور تلك المدينة .

كانت تلك الخسة ، وتلك الشرور شيئا يفهمه جراكوس . فهو قد سأل مرة أحد أصدقائه المثقفين بقوله

— لماذا يجب أن أذهب إلى المسرح ؟ هل يستطيعون أن يقدموا على خشبة المسرح ما أراه فى شوارع روما ؟

وكانت شوارع المدينة شيئاً يستحق المشاهدة فعلا . وكان يشاهدها فى ذلك اليوم فى احتفال تقريباً ، كما لو كان قد سأل نفسه قائلا

— كم مرة سأفعل هذا من جديد ؟ أبداً ؟

وبدأ بالذهاب إلى السوق التى تقام بالنهار حيث لم يكن قد تبق على المنصات لتقوم بعملها إلا ساعة أخرى قبـــل أن تكف عن

العمل. وكنت تضطر إلى أن تشق طريقك بالقوة بين جموع النسوة المتصايحات لتستطيع المشى فى ذلك الشارع. لكنه استطاع أن يشق طريقه فى رقة على ضخامته فى عباءته البيضاء، كسفينة حربية كبيرة فى ريح رقيق. هناك كان يوجد ما كانت روما تأكله. هناك كانت توجد تلال الجبن، أقراص من الجبن مستديرة، وأقراص مربعة، وجبن أسود، وجبن أحمر، وجبن أبيض. هناك كانت تعلق الأسماك المدخنة، والأوز المدخن، والخنازير المذبوحة، وضلوع الأبقار، والحملان الطرية، وتعابين الماء، والسردين المملح فى براميلها، وبراميل المخللات تفوح منها رائحتها الحريفة الطيبة. وهناك كانت توجد جرار الزيت القادمة من تلال سابين ومن بيسنام وأفخاذ الخنزير المدخنة الرائعة القادمة من بلاد الغال، والأحشاء تتدلى فى كل مكان، والأوعية الخشبية الكبيرة التى تضم المقانق.

وتمهل فى السير بجانب منصات الخضروات. فقد عادت به ذاكرته إلى وقت كان فيه كل فلاح يقطن على بعد عشرين ميلا من المدينة يملك حديقته الخاصة التى يبيع خضرواتها، وكانت روما كلها تأكل الخضروات المتنوعة الرائعة التى كانت تعرض فى الأسواق. لكن الضيعة اليوم لم تعد تهتم إلا بالمحصولات التى يدفع ثمنها نقداً، سواء كانت قمحا أو شعيرا. فارتفعت أسعار الخضراوت إلى

مستوى يعلو على متناول كل إنسان عدا الطبقة الحاكمة. ومع ذلك فقد كان فى استطاعة المرء أن يرى أكوام الفجل واللفت والخس فى خمسة أشكال، والعدس والبقول والكرنب والليمون والبطيخ والاسبرج والكمأ (جدرى الأرض) وعيش الغراب فى تشكيلة كبيرة بهيجة الألوان من الخضروات والفاكهة، كذلك أكوام من الليمون الإفريقى والرمان، الأصفر والأحمر اللامع الريان والتفاح والخوخ والتين، والبلح العربى، والعنب والبطيخ القادمة من مصر.

وفكر لنفسه قائلا

— يا لها من متعة بمجرد النظر إلى ذلك.

وتابع السير مخترقا طرف الحى اليهودى فى المدينـــة . كان كسياس قد سبق له التعامل مع اليهود فى بعض الأحيان. أى شعب غريب هم!

— يمضى عليهم كل ذلك الوقت الطويل فى روما، وما زالوا مع ذلك يتكلمون لغتهم الخاصة، ويعبدون إلههم الخاص، ومازالوا يطلقون لحاهم، ويرتدون تلك العباءات الطويلة المخططة الخاصة بهم مهما كان الجو. والمرء لايراهم أبدا فى الألعاب أو فى ميادين

السباق ، والمرء لايراهم فى المحكمة أبدا . ويكاد المرء لايراهم على الإطلاق إلا فى حيهم الخاص بهم . مؤدبون ، متباعدون ، ذو كبرياء . وكان جراكوس عندما يراهم يفكر قائلا لنفسه .

— سيمتصون من دماء روما على مر الزمن ، أكثر مما امتصته قرطاجنة .

أمام واجهة حانوت ، بينما كانت إحدى كتائب حراسة المدينة تمر يصحبها قرع الطبول والنفخ فى الأبواق ، والأطفال يجرون ، كما هى العادة ، خلف الجنود وكما هى العادة أيضا ، كان فى استطاعته أن يلقى بمجرد نظرة سريعة من جانب إلى جانب فيرى ، وهو يرقب الاستعراض ، شخصا عربياً وسوريا ويمنياً .

ومشى إلى حيث تنتهى المنازل السكنية الشاهقة وتبدأ الحدائق والأروقة الرخامية الفاتحة اللون ، والأقواس الرطبة ، والطرقات العريضة . وكان لاعبو النرد يحتلون مكانهم فى الساحة العامة بالفعل إذ كانت المقامرة فى روما كالمرض ، وكان النرد هو أسوأ مظهر لذلك المرض ، فبعد ظهر كل يوم ، كانت جماعات المقامرين تتناثر فى كل أنحاء الساحة العامة يرمون النرد ، ويضرعون إلى النرد ، ويتحدثون إلى النرد . وكانت لهم لغة خاصة بهم : وكان المتعطلون والجنود فى أوقات راحتهم ، وفتيات الرابعة والخامسة عشرة اللاتى تجدهن فى كل مكان فى المدينة ، لا يعملن شيئاً ، نشأن فى

الشقق الصغيرة القذرة يعشن فيها كما عاش أباؤهن على الصدقات العامة ، ويضفن إليها القليل مما يربحنه من الدعارة وليدة عدم المبالاة .

وحدث مرة أن اعتبر ذلك الأمر ، هو وكثير غيره ، أمراً وحشيا رهيبا ، لكن الأمر لم يعد فى تلك الأيام جديراً بالاهتمام والمناقشة ، بعدما لم يعد من العار على الرجل المتزوج زواجا فاضلا ، أن يحتفظ باثنتى عشرة جارية .

وفكر جراكوس قائلا لنفسه

ــ إن عالما بأسره ينتهى جزءا فجزءا ، لكننا لا نكف عن التعجب منه إطلاقا . ولماذا يجب أن نكف ؟ إن ذلك يحدث ببطء كبير ، وحياة المرء قصيرة جداً .

وكان يتوقف هنا وهناك ليرقب ألعاب النرد . إذ كان يستطيع أن يتذكر ، كيف كان يرمى النرد وهو بعد صبى . لم يكن فى وسعك حين ذاك أن تحيا حياة طيبة على الصدقة العامة . وكانت توجد

يوم ذاك نواحى أخلاقية معينة تحمل الرجل ذا الكبرياء على رفض الصدقة العامة ، حتى ولو كان ذلك يعنى الموت جوعا .

ثم مضى فى سيره إلى الحمامات . كان قد رتب الأمر بعناية .

وكانت نسبة احتمال وجود جراكوس فى الحمامات يومذاك ، ووصوله فى ذلك الوقت بالذات ، ثلاثة إلى واحد . وصح حدسه . إذ كان كراكوس موجودا بالفعل فى غرف ارتداء الملابس ، عندما دخل إليها جراكوس ، وقد خلع ثيابه وتوقف برهة أمام المرايا يتأمل جسده الطويل النحيل فى إعجاب . وكانت الغرفة مليئة بالمستحمين . فى تلك الغرف ، كنت تجد قسما ممثلا من حياة المدينة ، وعاء لخلط السياسة . ونفراً من ذوى الدم الأزرق الكسالى ولكنها قوة سياسية كافية لهز المدينة من أصولها ، وأصحاب البنوك والتجار ذوى النفوذ ، ورؤساء الأحياء ، ومستوردى العبيد ، وتجار الأصوات الانتخابية ؛ ومعرضا من الأذناب صغار الشأن وزعماء العصابات ، واجتماعا تمهيديا هاما لانتخاب عضو فى مجلس الشيوخ ، حتى متعهدا أو اثنين من متعهدى المجالدين ، وثالوثا من القناصل السابقين ، وقاضيا ، وممثلا أو اثنين ، واثنى عشر رجلا عسكريا من ذوى الشأن ، وينتشر بينهم عدد كاف من الرجال الذين ليست لهم أهمية خاصة ليدللوا على الديمقراطيــــة التى كانت تسود

الجماعات - وهى الديمقراطية التى كانت روما تتباهى بها إلى حد كبير. ولم يكن فى استطاعة الملوك والمرازبة القـــادمين من الشرق أن يغفلوا قط حقيقة أن حكام روما - أى حكام العالم - كانوا يختلطون بتلك البساطة بمختلف طبقات المدينة ويمشون فى شوارع المدينة دون أى مبالاة.

جلس جراكوس على أريكة وترك عبدا يفك له حذاءه وهو يراقب كراسوس مراقبة منقطعة. وأخذ فى نفس الوقت يتلقى التحيات، ويحنى رأسه ويبتسم، ويلقى بكلمة هنا وكلمة هناك. وكان يجود بالنصيحة عندما تطلب منه، قصيرة حاسمة. وأدلى، عندما طلب منه ذلك، بآراء قصيرة أكيدة عن القلاقل فى أسبانيا والموقف فى إفريقيا، وضرورة بقاء مصر على الحياد - تلك المصدر الدائم لقمح روما - ومشكلة ما يجب عمله تجاه هياج اليهود المتواصل فى فلسطين. وأعاد الثقة إلى النخاسين الذين كانوا يشكون من أن أثمان العبيد ستظل على نزولها حتى تحطم الاقتصاد، وبدد شائعة تقول إن الجيش فى بلاد الغال يدبر انقلاباً. لكنه ظل يراقب كراوسس طيلة الوقت، حتى تبختر المليونير فى النهاية وهو مازال عارياً يستعرض لياقته الجثمانية النحيلة ويمضى بقية اليوم. ولم يستطع كراسوس أن يقاوم البقاء هناك ليقارن الجميع بينه وبين جراكوس عندما بدأ هذا يخلع ملابسه. وعندما خلع العبيد عباءة السياسى، ظهر جسد الرجل الضخم كالجبل، ومع ذلك فقد ظل على تأثيره

فى النفوس ، وعندما خلع العبيد عنه الرداء ، كان تفجع الرجل المفرط السمنة لتعريه على الملأ أسوأ من شعوره عند التعرى العادى البسيط .

والغريب فى الأمر ، أن جراكوس لم يكن يشعر بالخجل من جسده قط قبل ذلك .

ومشيا معا حتى دخلا إلى غرفة الاستراحة ، وهى منتدى الحمامات . ففيها أرائك وسجاجيد يستطيع المرء أن يتمدد فوقها ويستريح ، لكن المتبع كان بصورة عامة هو التمشى جيئة وذهاباً بين المغاطس ، وكان فى استطاعة المرء أن يذهب من تلك الصالة العريضة الأنيقة المرصوفة بالرخام ، المحلاة بالفسيفساء والتماثيل ، إلى حوض المياه البارد الخارجى ، وإلى الحوض الدافىء ، وإلى الحمامات الساخنة ، وإلى غرف البخار ، وعن طريق كل هؤلاء إلى غرف التدليك والتدريبات الرياضية المتعددة .

وكان فى استطاعة المرء بعد ذلك ، إذا ما التف فى ملاءة رطبة أن يخرج إلى مماشى الحديقة وإلى المكتبات - وكانت جزءاً من الحمامات - وإلى غرف الجلوس وإلى أماكن حمامات الشمس . وكان ذلك النظام الكامل صالحاً لمن يملكون ساعات من الفراغ يمضونها فى الحمامات . وكان جراكوس يكتفى عادة بالنزول إلى المغطس البارد : وبنصف ساعة فى غرفة البخار ، ثم بالتدليك .

لكنه كان فى تلك اللحظة يلين عريكته لكراسوس ، فكان من الطبيعى أن يتقاضى عن الكلمات القاسية والانفعالات الحادة، فمشى إلى جانب القائد ، عارياً سميناً ، مترهلا ، وهو يقطر ظرفا ورعاية وكان شديد البراعة فى ذلك .

وعلق الناس الذين رأوهما معاً قائلين :

— يقيمان جسوراً

وتساءلوا عن كنه المحالفات السياسية الجديدة التى تدبر هناك ، نظراً لأنه لم يعرف عن كراسوس وجراكوس ذلك اللون من الزمالة . على كل ؛ انتظر كراسوس فى صبر . وقال يخاطب نفسه .

— سيفصح عما يقصد مهما كان.

واستحال أسلوبه مهينا بعض الشىء ، إذ سأل السياسى قائلا

— منذ متى أصبحت حجة فى شئون مصر ، كما أنت حجة فى غيرها من الأشياء ؟

— أتعنى ماقلته أنا من قبل ؟ حسن إنها كلمات عامة قليلة تسد الفراغ . إنها مسألة سمعة .

وكان ذلك جراكوس جديدا حقا .

— سمعتك أنك تعرف كل شىء ؟

— فضحك جراكوس وقال

— لقد ذهبت إلى مصر ، أليس كذلك ؟

— لا . ولا أتظاهر بذلك .

— حسن حسن . لست أدرى يا كراسوس ، كلانا يزجر وينهش فى الآخر ، بينما نستطيع أن نصبح أصدقاء . فكل منا صديق جدير بالمصادقة .

— أظن ذلك . وأنا ساخر كذلك . هناك ثمن للصداقة .

— حقاً ؟

— نعم طبعا . ما الذى أملكه ليجعل صداقتى غالية إلى هذا الحد المال أنت تملك مثل ما أملك تقريبا .

— أنا لا أعبأ بالمال .

فقال جراكوس فى عجلة

— أريد أن أشترى منك عبداً .

وهكذا صرح جراكوس بما يريد وانتهى .

— الطاهى بلا شك . لو أن لك شعرا يا جراكوس ، لقلت إنك تريد مصفف شعرى . أم تراك تريد طاقماً من حملة المحفات ؟ أو لعلها امرأة . سمعت أنك لا تملك إلا النساء فى بيتك .

فصاح جراكوس يقول :

— اللعنة . أنت تعرف من أريد . أريد فارينيا

— من ؟

— فارينيا . ولنكف عن محاورة كل منا للآخر .

ـ أنت الذى تتلاعب ياعزيزى جراكوس ، من الذى كان يبيعك المعلومات ؟

فتوقف الرجل السمين عن السير وواجه الآخر وقال :

ـ نا على علم دائما . اسمع ـ اسمع ياكراسوس . لاتهويش ، ولا مماحكة ، ولا مساومة . سأصارحك . سأدفع لك أكبر سعر دفع فى روما على الإطلاق ثمنا لعبد . سأدفع لك مليونا من القطع الذهبية . سأدفع لك هذا المبلغ ذهبا ، وسأسلم لك كل قطعة منه فورا ، إذا أعطيتنى فارينيا .

فعقد كراسوس ذراعيه ، وصفر بفمه صفيرا خافتا ثم قال :

ـ نعم ياله من ثمن . ثمن كبير . يستطيع الشعراء أن يقرضوا الشعر حول مثل هذا الثمن . فى الوقت الذى يستطيع أى رجل أن يذهب اليوم إلى السوق ويشترى حسناء ناضجة بألف قطعة ذهبية ، أراك على استعداد لأن تدفع ألف مثل لهذا السعر ثمنا لفتاة ألمانية هزيلة . هذا شىء غريب . لكن كيف أستطيع أن أقبل مثل هذا المبلغ ! ماذا يقول الناس؛ سيقولون إن كراسوس لص ملعون .

ـ كف عن التلاعب بى .

ـ أتلاعب بك ؟ إنما أنت ياعزيزى كراسوس الذى يتلاعب بى . أنا لاأملك شيئا تستطيع شراءه .

— أنا أتقدم بعرض جدى .

— وأنا أجيبك إجابة جدية .

فزمجر جراكوس قائلا

— أنا أضاعف الثمن . مليونان

— لم أعلم قط بوجود مثل هذا القدر من المال فى السياسة

— مليونان . أقبل أو ارفض

فقال كراسوس

— أنت تسئمنى

وتركه وابتعد .

— فارينيا ، فارينيا ، يجب أن ترتدى ثيابك الآن . يجب أن نلبسك ثيابك الآن يافارينيا ، لأن السيد سيعود ، وعليك أن تجلسى إليه وتتناولى العشاء معه . لماذا تعقدين الأمور لنا إلى هذا الحد يافارينيا ؟

— أنا لا أريد أن أعقد الأمور لكن .

— لكنك تعقدينها . وأنت ترين كيف تعقدين لنا الأمور يافارينيا . تقولين لنا إنك أمة ، وإنك لاتريدين أربعة من الإماء ليعنين بك عناية كاملة . وإنك ما أنت إلا أمة مثلنا . وتحدثيننا عن مدى تعسك ، وأنك تعرفين كيف يكون حال الإنسان عندما يصبح عبدا . أم لعلك قد نسيت عندما كنت مع سبارتاكوس تقهران العالم كله ، كيف يكون حال الإنسان عندما يكون عبدا . كنت حين ذاك ملكة . ألم تكونى كذلك يافارينيا ؟ إذن .

— لاتفعلى ذلك بعد الآن . لماذا تفعلين ذلك ؟ هل تباعدت عنكن يوما ؟

لست فى حاجة إلى ذلك يافارينيا . إنما هو السيد الذى يباعد بينك وبيننا .

لكنه يحبك أنت يافارينيا . وذلك هو السبب فى أنك تعقدين الأمور لنا . فنحن نجلد إن لم ترتدى أنت ثيابك كما يجب . أما أنت فلا تجلدين ونجلد نحن .

— دعنه يجلدنى أنا الأخرى .

— ندعه . بمجرد ندعه . فى وسعنا أن نراه يجلدك .

فقالت لهن

— حسن حسن . أنا أرضع الطفل الآن . اتركننى أفرغ من إرضاعه ثم أرتدى ملابسى . أنتن تردن منى أن أرتديها بأى شكل . لن أعقد الأمور بالنسبة لكن ، فقط دعوننى أفرغ من إرضاع طفلى .

— كم من الوقت يستغرق ذلك ؟

— إنه لا يرضع طويلا . انظرن إليه . لقد أبطأ فى رضاعته بالفعل . وسأكون على استعداد خلال نصف ساعة . إذ سيكون قد نام عند ذاك . وأعدكن أنى سأعمل كل ماتطلبن منى عمله ،

وسأرتدى كل ما تردن منى أن أرتديه .

فتركنها برهة من الزمن. وكان ثلاثة منهن أسبانيات . أما الرابعة فكانت امرأة سابينية . وكان ما يؤلمها أشد الإيلام أن أمها كانت قد باعتها بالنسيئة . وكان فى وسع فارينيا أن تفهم ذلك . فما يبعث المرارة إلى النفس أن يبيع الأهل ابنهم ، إذ يجعل ذلك من الابن شخصا حاقدا . وكانت الغيرة والحسد والمرارة تفرخ فى ذلك البيت فالبيت كله عفن .

وأرضعت الطفل وغنت له فى رقة قائلة :

« نم يا طفلى ، نم يا حبيبى
بينما أبوك فى الغابة ،
يبحث عن كلب البحر ويطعن كلب البحر ،
ويحضر الجلد بشعره ورقة منتصف الليل ،
أبدا لن تمس برودة الشتاء
طفلى ، طفلى الحبيب . . »

واسترخى الرضاع ، إذ استطاعت أن تحس الضغط على الحلمة يتراخ . فعندما يرضع الطفل بقوة وبعنف نتيجة لجوعه ، يجتاح جسدها كله بنار حاد ثم تمتلىء معدته جزءا فجزءا فيخفت الإحساس الجميل ويضعف . ياله من شىء جميل أن يكون لك طفل يرضع .

وأعطته الثدى الآخر ، لمجرد أنه قد يحتاج إلى المزيد من اللبن وربتت على خده ليبدأ الرضاع من جديد ، لكنه كان قد فرغ وأغمض عينيه ، وران عليه عدم مبالاة الأطفال الشبيه بالتماثيل عندما تمتلىء بطونهم . وظلت تحتضنه برهة إلى صدرها العارى الدافئ ، ثم وضعته فى مهده وأغلقت فتحة ردائها .

وفكرت وهى تقف إلى جواره : كم هو جميل ، سمين مستدير وقوى . يا له من طفل رائع ، شعره كالحرير الأسود ، وعيناه داكنتا الزرقة . ستسود هاتان العينان فيما بعد كما كانت عينا أبيه ، لكنها لا تستطيع أن تقرر ذلك بالنسبة للشعر ، فعندما يتساقط شعر البطن الأسود هذا ، فقد ينمو الشعر فى خصل سوداء جعدة أو صفراء مستقيمة .

نام بسرعة ويسر ، فدنياه نظيفة عادلة . دنياه هى دنيا الحياة عندما تسودها قوانين الحياة البسيطة نفسها بلا إزعاج وبلا تعقيد ، ودنياه هى الدنيا التى تدوم وتبقى بعد كل ما عداها .

تركته عندذاك وذهبت إلى حيث كن ينتظرن ليلبسنها ثيابها . أربعة من الإماء ليلبسنها كى تتنـــاول العشاء مع الرجل الذى يمتلكها . ووقفت فى طاعة ، بينما رحن يخلعن عنها ثيابها ويغسلن جسدها العارى بالأسفنج . كان جسدها ما زال بالغ الجمال ، طويلة الساقين وقد ازداد جسدها جمالا لامتلاء ثدييها باللبن . وانفقن

جسدها بملاءة . ورقدت على أريكة لتبدأ الأمة المختصة بالتجميل فى تزيين وجهها وذراعيها .

وضعت أولا طبقة من المسحوق الأبيض الناعم على ذراعيها وجهها . وكان المسحوق يخف حتى يتلاشى على خديها ، ثم اللون الأحمر . اللون الأحمر الخفيف على خديها ، والأحمر المائل إلى البنى الداكن على شفتيها . ثم معجونا من الفحم الأسود لإبراز الحواجب .

وعندما انتهى ذلك جلست وسمحت لهن بتصفيف شعرها . فشكلن الشعر الأصفر الناعم المستقيم فى عناية إلى كوم من الخصل الثابتة التى ثبتنها فى مكانها بالمعجون وبالشرائط الصغيرة .

ثم جاء دور الحلى . ووقفت عارية حتى من الملاءة فى طاعة ودون حراك ، بينما رحن يثبتن التاج فوق شعرها . وتلى ذلك الأقراط الذهبية ، ثم طوق للعنق من الذهب والياقوت الأزرق . وزين مفاصل قدميها ورسغها بأطواق مماثلة صغيرة . وزين الأصبع الصغيرة فى كلتا يديها بخاتم من الماس . كن يلبسنها من الملابس أحسنها وأفخرها . ألبسنها ما يلبسه أغنى رجل فى روما لحبيبته لا لأمته . لا عجب إذن إذا كانت تلك الشيطانات التعسات الموكلات بصيوان ملابسها ، لم يشعرن بالشفقة أو العطف نحوها . انظر كيف كانت ترتدى ثروة إمبراطورية ممثلة فى مجوهرات فقط . كيف

كان المرء يستطيع أن يرثى لها ؟

ولم يكن أثمن الأقمشة فى روما فى ذلك الوقت هو الحرير ، إنما كان القطن الرقيق الخالص الرائع المنسوج فى الهند وله من الرقة والشفافية مالا يباريه فيه الحرير . عندئذ ألبستها رداء من القطن . كان رداء طويلا بسيط التفصيل ، يتجمع حول الخصر بحزام مقفل وكان الزخرف الوحيد فوق ذلك الرداء هو خيط من الذهب يوشى حافته . والواقع أنه لم يكن فى حاجة إلى زخرف ، إذ كانت خطوطه غاية فى البساطة وغاية فى الجمال . لكن فارينيا لم تكن لتستطيع أن تغفل لحظة عن حقيقة أن كل خط من خطوط جسدها كان يتضح من خلاله . وكان ذلك هـــو العرى الذى يعنى لها الرعب والانحطاط لذلك رحبت بما فاض به ثدياها ، فبلل صدر الرداء وشوه منظره .

وفوق ذلك كله ، وضعن شالا كبيراً من الحرير الأصفر الباهت ارتدته فارينيا كما لو كان عباءة ، فغطت به الرداء ، الأمر الذى كان يحمل كراسوس فى كل مرة تتناول فيها العشاء معه على أن يقول .

— ياعزيزتى ، ياعزيزتى . لماذا تصرين على إخفاء جسدك الجميل بهذه الطريقة ؟ اتركى شالك على حريته ، فثمن الرداء الذى

ترتدينه تحته ، عشر آلاف قطعة ذهبية ، فأستطيع على الأقل أن أسعد بالنظر إليه إذا لم يستطع ذلك أحد غيرى .

وقال ذلك مرة ثانية فى تلك الليلة عندما دخلت إلى غرفة الطعام . وفى تلك الليلة أيضا أطاعته وتركت الشال ينفتح على حريته .

وقال كراسوس .

— أنت تحيرينى . أنت تحيرينى إلى حد كبير يا فارينيا . أظن ى قلت لك من قبل إنه كان لى حظ - أو سوء حظ - الاضطرار إلى تمضية أمسية فى معسكرى ببلاد الغال عبر الألب ، مع ذلك المتوحش متعهد المجالدين باتياتوس . وقد وصفك بأنك قطة متوحشة . وهو وصف كثير الحيوية للمرأة التى لا يمكن ترويضها . لكنى لا أرى دليلا على ذلك . فأنت مطيعة موافقة إلى حد غير عادى .

— أجل .

— وأنا أتساءل عما أحدث هذ التغيير فيك . أنت لا يعنيك أن تخبرينى فيما أظن ،

— لا أدرى . أنا لا أستطيع أن أخبرك .

— أظن أنك تعرفين فعلا ، ومع ذلك فدعى الأمر جانبا . أنت رائعة الجمال الليلة . معنى بتصفيف شعرك . ومعنى بثيابك يافارينيا . إلى متى سيستمر هـــذا الحال ؟ لقد كنت كثير الرقة فى معاملتك . ألم أكن كذلك ؟ الحزن هو الحزن ، لكن قارنى بين هذا وبين مناجم الملح . أستطيع أن أنتزع طفلك وأبيعه نظير الثلاثمائة قطعة ذهبية التى هى ثمنه فى السوق ، ثم أبعث بك إلى المناجم . أتحبين ذلك ؟

— لن أحب ذلك .

فقال كراسوس .

— أنا أكره أن أتكلم بهذه الطريقة .

— لا عليك . تستطيع أن تتكلم بأى طريقة تشاء ، فأنت تمتلكنى .

— وأنا لا أريد أن أمتلكك يافارينيا . لأن الحقيقة أنك تمتلكيننى بنفس الطريقة تماماً .

أنا لا أريد منك أن تبـــوحى لى بأى أسرار . أنا أريدك أن تعرفينى على حقيقتى . لأنك إذا أحببتنى ، أصبح شيئاً آخر . شيئاً جديداً رائعا . يا إلهى . هل تعرفين أنهم يسموننى أغنى رجل فى العالم ؟ قد لا أكون كذلك ، لكننا نستطيع معا أن نحكم العـــالم .

فقالت ڤارينيا وصوتها رتيب لا جرس فيه ، صوت ميت كما كان صوتها دائماً عند ماتتحدث إليه .

— لا أريد أن أحكم العالم .

— ألا تصدقين أنى سأتغير إذا أحببتنى ؟

— لا أدرى . ولا أبالى .

— لكنك ستبالين إذا وصل الأمر إلى طفلك ذلك ؟ لماذا لا تقبلين وجود مرضع له ؟ بدلا من الجلوس هنا واللبن يتدفق من ثدييك .

— ولماذا تهددنى بالطفل دائماً ؟ الطفل ملك لك ، وأنا ملك لك . أتظن أنك بالتهديد بقتل طفلى ، تجعلنى أحبك ؟

— أنا لم أهدد بقتل طفلك .

— أنت ؟

— أنا آسف يا ڤارينيا . نحن نعود بالحديث دائما إلى نفس هذه الحلقة . أرجو أن تأكلى . أنا أعمل ما أستطيع ، فسأقدم لك وجبة كهذه . لا تقولى لى إنك لاتبالين ، فالمرء يستطيع أن يشترى بيتا ريفياً بثمن هذا العشاء . كليه على الأقل . كلى ولو القليل منه . اسمعى ، سأروى لك شيئا طريفا حدث اليوم . قد تجدينه طريفا على الأقل وكلى قليلا .

فقالت ڤارينيا .

— أنا آكل على قدر ما أحتاج .

ودخل عبدو وضع صحنا من الفضة فوقه بطة . ونزع عبد آخر عظامها . وكان كراسوس يملك مائدة مستديرة - وكانت الموائد المستديرة قد بدأت لتوها فى الشيوع - تحيط بثلثيها أريكة مستديرة واحدة ، فكان الطاعمـــون يتبادلون طعامهم معقودى الساقين ، يجلسون بين أكوام الحشايات الحريرية .

— هذه البطة مثلا ، مدخنة محشوة بالكمأ ومطبوخة بنطير الخوخ المسق بالشراب .

فقالت ڤارينيا

إنها كثيرة الجودة .

— أجل ،

كنت أحدثك من قبل عن شيء ظريف حدث اليوم - دخل جراكس إلى الحمامات . وهو يكرهنى إلى حد الحقد ، لدرجة أنه لم يعد فى استطاعته أن يخفى ذلك والغريب فى الأمر أنى لا أكرهه ، نسيت - فأنت لا تعرفينه . هو عضو مجلس الشيوخ وقوة سياسية كبيرة فى روما — أوكان كذلك ، فقوته اليوم تتعرض

لكثير من الهزات. وهو واحد من زمرة هؤلاء الذين ارتفعوا بأنفسهم من المجارى وجمع ثروة من الوساطة وبيع الأصوات . رجل كالخنزير السمين . لا كبرياء - لا جسد ، فهذا هو الحال دائما ، ولا إحساس كذلك . لذلك سيظل جالسا على عرشه حتى يذوب من تحته . حسن استطعت أن أرى فى النور ، أنه يريد منى شيئا إذ أقام عرضا كبيراً ، باستعراض هيكله السمين جيئة وذهابا معى فى قاعــــة الاستراحة ، وفى النهاية صرح لى بما يريد . كان يريد أن يشتريك ، وعرض ثمناً كبيرا لك كذلك . وعندما رفضت ضاعف الثمن . فأهنته عامدا متعمدا ، لكن ذلك لم يؤثر فيه .

فسألته ڤارينيا قائلة .

— ولماذا لم تبعنى ؟

— له ؟ يجب ياعزيزتى أن تريه مرة واحدة وهو يمشى غارقا فى لحمه . أم أن ذلك لا يعنيك ؟

فقالت ڤارينيا

— لا أهمية لذلك .

فدفع كراكوس صحنه بعيدا ، وحدق إليها . وأفرغ ما فى كأسه من النبيذ فى جوفه ، ثم صب كأسا آخر ، ثم قذف بالكأس

عبر الغرفة فى سورة غضب مفاجئة . ثم بدأ يتحدث وهو مسيطر على أعصابه إلى حد ما .

— لماذا تكرهيننى إلى هذا الحد ؟

— أيجب أن أحبك يا كراسوس ؟

— أجل . لأنى أعطيتك أكثر من كل ما أخـــذت من سبارتا كوس .

فقالت .

— لم تفعل .

— لماذا ؟ لم لا ؟ ماذا كان هو ؟ أكان إلها ؟

فقالت فارينيا

— لم يكن إلها . كان رجلا بسيطا . كان رجلا عاديا . كان عبداً . ألا تعرف معنى ذلك ؟ لقد عشت طيلة حياتك بين العبيد .

— وإذا أخذتك إلى الريف ، وأعطيتك لعبـــد من عبيد الحراث فى جهة ما ، أتستطيعين أن تعيشى معه وأن تحبيه ؟

— أنا لا أستطيع أن أحب إلا سبارتا كوس . لم أحب يوما رجلا غيره ، ولن أحب يوما رجلا سواه . لكنى أستطيع الحياة مع عبد من عبيد الحقول . فسيكون مثل سبارتا كوس بشكل ما ، ولو

أن سبارتاكوس كان عبدا من عبيد المناجم وليس من عبيد الحقول . هذا كل ما كانه سبارتاكوس . أنت تظن أننى بسيطة التفكير جداً ، وأنا كذلك . وأنا حمقاء كذلك . فى بعض الأحيان أعجز حتى عن فهم ما تقول . لكن سبارتاكوس كان أكثر بساطة منى . ولو قورن بك لكان كالطفل . كان نقيا .

فسألها كراسوس قائلا وهو يسيطر على نفسه .

— ماذا تعنين بأنه كان نقيا ؟ لقد أصغيت إلى الكثير من هذا الهراء منك . كان سبارتاكوس عدوا للمجتمع لا يعرف القانون . كان جزارا محترفا ، أصبح فيما بعد قاتلا خارجا على القانون ، وعدوا لكل شىء جميل ومحترم وطيب أقامته روما . لقد أقامت روما السلام والمدنية فى العالم بأسره ، لكن ذلك العبد القذر لم يعرف إلا أن يحرق ويدمر . ما أكثر البيوت الريفية التى أصبحت حطاماً لأن العبيد لم يعرفوا أو يفهموا المدنية . ماذا فعلوا ؟ ماذا حققوا فى السنوات الأربع التى حاربوا روما خلالها ؟ كم من الآلاف ماتوا نتيجة لثورة هؤلاء العبيد ؟ ما أكثر التعس والآلام التى قاساها العالم لأن هذه النفاية حلمت بالحرية — حرية التدمير .

جلست هى صامتة لا تتكلم وقد أحنت رأسها وخفضت عينيها .

— لماذا لاتردين على ما أقول ؟

فقالت فى هدوء

— أنا لا أدرى كيف أجيبك . لا أعرف ما تعنيه هذه الأسئلة ،

— لقد أصغيت إلى أشياء قلتها أنت لا أقبلها من أى إنسان غيرك على هذه الأرض . لماذا لاتردين على ؟ ماذا كنت تعنين عندما قلت إن سبارتا كوس كان نقيا ؟ هل أنا أقل منه نقاء ؟

فقالت ڤارينيا

— لا أدرى . فأنا لا أفهمك . أنا لا أفهم الرومانيين . أنا أعرف سبارتا كوس وحده .

— ولماذا كان هو نقيا ؟

— لا أدرى . ألا تظن أننى سألت نفسى هذا السؤال ؟ ربما لأنه كان عبدا ، وربما لأنه قاسى الكثير . كيف تستطيع أنت أن تفهم كيف يقاسى العبد ؟ فأنت لم تكن عبدا فى يوم من الأيام .

— لكنه كان نقيا . قلت إنه كان نقيا .

-- كان نقياً بالنسبة لى . لم يكن ليستطيع أن يقترف عملاً سيئاً .

-- وهل تظنين أنه كان عملا طيبا أن يشعل تلك الثورة ؟

وأن يشعل النار فى نصف العالم ؟

-- نحن لم نشعل النار فى العالم . كانت حريتنا هى كل ما نبغى . كان كل مانريد هو أن نحيا فى سلام . أنا لا أعرف كيف أتكلم كما تتكلم أنت . فأنا لست متعلمة . بل لا أستطيع حتى ان أتحدث بلغتكم جيدا : ويسودنى الارتباك عندما تتحدث إلى . لم أكن لأرتبك وأنا مع سبارتاكوس . كنت أعرف مايريد .

كنا نريد أن نصبح أحراراً .

— لكنكم كنتم عبيداً .

— أجل . ولمـــاذا يجب أن يكون البعض عبيداً والبعض أحراراً ؟

فقال كراسوس فى مزيد من الرقة

— أنت تعيشين فى روما الآن يافارينيا ، وقد صحبتك فى جولة فى المدينة فى محفتى . وشاهدت قوة روما ، قوة روما التى لا نهاية ولاحدود لها . فالطرق الرومانية تمتد عبر العالم بأسره .

والفيالق الرومانية تقف على أطراف المدينة وتدفع قوى الظلام . وترتعد الشعوب لمجرد مرأى صولجان السفير ، وحيثما يوجد الماء ، يسيطر الأسطول الرومانى على البحار. وقد شاهدت العبيد يحطمون بعض فيالقنا . لكن المدينة هنا لم يصبها حتى خدش واحد من جراء ذلك . فهل تتصورين ، بكل ما لديك من عقل ، أنه كان فى استطاعة قليل من العبيد المتمردين ، أن يقلبوا أعظم قوة عرفها العالم فى تاريخه ـ القوة التى لم تستطع الإمبراطوريات السابقة أن تباريها ؟ ألا تفهمين ؟ إن روما خالدة . والحياة الرومانية هى أفضل حياة عاشها البشر على الإطلاق . وستبقى إلى الأبد . هذا ما أريدك أن تفهميه . لا تبك من أجـــل سبارتاكوس . فقد انتهى أمره، أما أنت فلك حياتك الخاصة التى يجب أن تحييها .

— أنا لا أبكى من أجل سبارتاكوس . ولن يبكى إنسان يوماً من أجل سبارتاكوس . كما أنهم لن ينسوا سبارتاكوس أبداً .

— آه يافارينيا ، فارينيا ـ كم أنت حمقاء . إن سبارتاكوس لم يعد إلا مجرد شبح بالفعل . وسيختفى هذا الشبح غداً . وبعد عشر سنوات من الآن ، لن يذكر أحد اسمه . ما الذى يدفعهم إلى ذلك ؟ أيوجد أى تاريخ لحرب العبيد ؟ إن سبارتاكوس لم يشيد إنما حطم فقط . والعالم لا يذكر إلا الذين يشيدون .

ـــ لقد شيد الأمل .

ـــ ڤارينيا ، أنت ترددين الكلمات كالفتاة الصغيرة . : لقد شيد الأمل . الأمل لمن ؟ وأين هى هذه الآمال اليوم ؟ طارت كالرماد ، كالتراب . ألا ترين انه لا يوجد طريق آخر فى العالم ولن يوجد أبداً ـ إلا أن يحكم القوى الضعيف ؟ ڤارينيا ، أنا أحبك لأنك أمة ، إنما على الرغم من هذه الحقيقة .

ـــ أجل .

وقال فى مرارة .

ـــ لكن سبارتاكوس كان نقيا .

ـــ نعم كان سبارتاكوس نقيا .

ـــ حدثينى . . قولى لى كيف كان نقيا ؟

ـــ لا أستطيع أن أقول لك . لا أستطيع أن أحدثك بأشياء لا تفهمها .

ـــ أريد أن أفهمه . أريد أن أقاتله . لقد قاتلته عندما كان حيا ، وسأقاتله اليوم وهو ميت .

فهزت رأسها وقالت

ـــ لماذا تلاحقنى بهذه الصورة ؟ لماذا لا تبيعنى ؟ لماذا تفعل لا

لى ما تشاء ؟ لماذا لا تدعنى وشأنى ؟

— إنما أسألك أن تحدثينى عن شىء بسيط يافارينيا . أكان هناك رجل مثل سبارتاكوس على الإطلاق ؟ لماذا لا يستطيع أى إنسان أن يحدثنى عنه ؟

— لقد حدثتك .

ثم توقفت . فقال فى رقة .

— أكملى يا فارينيا ، أكملى . أريد أن أصبح صديقا لك . لا أريد منك أن تخافى من الحديث إلى .

— لست خائفة . لم أشعر بالخوف يوما بعد أن عرفت سبارتاكوس ، لكن الحديث عنه أمر عسير . لقد وصفته بأنه قاتل وجزار . لكنه كان خير رجل عاش على الإطلاق ، وأكثر الرجال نبلا .

— أجل . قولى لى كيف . أريدك أن تقولى لى كيف كان ذلك . أريد أن أفهم مافعله ، ليجعلك تظنين ذلك . قد أستطيع أن أصبح مثل سبارتاكوس إذا فهمت ذلك .

وكان قد مضى فى الشرب دون أن يذوق الطعام ، وهدأت سخريته عندذاك . وقال :

— قد أستطيع أن أصبح مثل سبارتاكوس .

— أنت تحملنى على الكلام عن ذلك ، لكن كيف أشرح لك ؟ ليس الرجال والنساء سواء حتى بين العبيد ، كما هو الحال بينكم . والرجل والمرأة متساويان بين العبيد . فنحن نعمل نفس العمل ، ونذوق نفس السوط ، ونموت نفس الميتة ، وندفن فى نفس القبور التى لا اسم لا . وفى بداية الأمر حملنا الحراب والسيوف ، وقاتلنا مع رجالنا جنبا إلى جنب . وكان سبارتاكوس رفيق . كنا كيانا واحدا ، كنا مرتبطين معا . وحينما كنت تجد على جسده أثر جرح ، كان يكفى أن ألمسه فيؤلمنى ويصبح أثر الجرح فى جسدى . وكنا متساويين على الدوام . وعندما مات خير صديق له ، كريكسوس ، وضع سبارتاكوس رأسه فى حجرى وبكى ونهنه كالصبى الصغير . وعندما وضعت طفلى الأول بعد ستة أشهر ، بكيت بنفس الطريقة ، فغنى هو بى . لم يعرف يوما امرأة غيرى طيلة حياته ولن أعرف رجلا غيره مهما حدث . شعرت بالخوف يوم رقدت بين ذراعيه لأول مرة ، ثم اعترانى شعور رائع ، وعرفت أننى لن أموت أبدا لأن حبى خالد لا يعرف الموت ، وأنه لن يضيرنى شىء بعد ذلك . أصبحت مثله ، وأظن أنه أصبح مثلى بعض الشىء . لم يخف واحد منا سر عن الآخر . واعتدت أن أخاف أول الأمر أن يرى آثار العقاب على جسدى . ثم أدركت أن أثر العقاب لا يفترق عن الجلد السليم من الآثار . كان كثير الحب

لى. لكن أى شىء عنه أستطيع أن أحدثك به ؟ إنهم يريدون أن يجعلوا منه عملاقا ، لكنه لم يكن عملاقا. كان رجلا عاديا . كان رقيقا طيبا ومليئا بالحب . كان يحب رفاقه . كان يحتضن بعضهم البعض ، ويقبل الواحد منهم الآخر فى شفتيه عندما يتقابلون . لم أر بينكم يوما أيها الرومانيون رجالا يتعانقون وفى أى وقت كان سبارتاكوس يقول لى شيئا ، كنت أعرف ما يعنيه . لا أعرف ما يعنيه الرومانيون عندما يتكلمون . وعندما كان العبيد يتقاتلون ويتخاصمون ، ، كان سبارتاكوس يجمع بينهم ، ويتكلم الجميع ، ثم يتحدث هو إليهم فيصغى الجميع . كانوا يرتكبون أعمالا قبيحة ، لكنهم كانوا يرغبون دائما فى التحسن . لم يحسوا بالوحدة ، فقد كانوا جزءا من شىء ، كان الواحد منهم جزءا من الآخر . اعتادوا أول الأمر أن يسرقوا من الغنائم ، وأوضح لى سبارتاكوس ، كيف أنه لا حيلة لهم فى ذلك . فهم قد جاءوا من أماكن كانوا يرون فيها السرقة . لكن المخزن العام لم يغلق بابه يوما ، ولم يقم عليه حارس ، وعندما رأوا أن فى استطاعتهم أن يأخذوا كل ما يحتاجون إليه دون سرقة ، وأنه لا يوجد طريقة لاستغلال ما يسرقون ، كفوا عن السرقة ، وفقدوا خوفهم من الجوع والفقر . وعلمنى سبارتاكوس أن كل ما يقترفه الرجال من أعمال شريرة ، فإنما يقومون عليها لأنهم خائفون . وأرانى كيف يستطيع البشر أن

يتغيروا وأن يصبحوا غاية فى الجمال والروعة لو أنهم عاشوا فى إخاء، وتقاسموا فيما بينهم كل ما عندهم . شاهدت ذلك وعشت فيه. لكن الرجل الذى اخترته لنفسى كان بطريقة ما مثل ذلك دائما . ولذلك استطاع أن يقودهم كلهم . ولذلك كانوا يصغون إليه . لم يكونوا مجرد قتلة أو جزارين ، كانوا شيئا لم يشهده العالم من قبل . كانوا ما يمكن للناس أن يصبحوه . وهذا السبب فى أنك لا تستطيع أن تؤذينى . وهذا هو السبب فى أننى لا أستطيع أن أحبك .

فقال لها كراسوس .

— اخرجى من هنا . اغربى عن وجهى . لعنة الله عليك .

بعث جراكوس يطلب فلافيوس مرة ثانية . كان الرجلان يتقاسمان مصيرا واحدا . وكانا يبدون كأخوين أكثر من أى وقت قضى . . رجلين سمينين عجوزين ، وجلسا وكل منهما يتطلع إلى الآخر فى فهم ومعرفة . كان جراكوس واعيا بمأساة فلافيوس فقد حاول فلافيوس دائما أن يكون مثل غيره من الرجال ممن أصابوا النجاح ، لكنه لم ينجح فى ذلك يوما . حاول أن يكون صورة طبق الأصل منهم ، قسمة قسمة ، لكنه لم يصبح فى النهاية إلا مجرد تقليد . ولم يكن حتى محتالا ، إنما كان تقليدا للمحتال ليس إلا . وتطلع فلافيوس إلى جراكوس ، فرأى أن جراكوس القديم قد انقضى ، ذهب على ألا يعود بعد ذلك . أى شىء مروع قد أصاب جراكوس ؟ ، كان مجرد شك من جانبه ، لكن الشك كان فيه الكفاية . كان قد وجد هنا حاميا له ، لكن هذا الحامى لم يعد يستطيع بعد اليوم أن يحميه . وذلك شىء مقدر له الوقوع .

سأل فلافيوس قائلا .

— ماذا تريد ؟ لا تسبنى مرة ثانية . إنها فارينيا . لقد تأكد

ذلك بالنسبة لى إذا كان ذلك ماتريد. إنها زوجة سبارتاكوس.
ماذا تريد منى الآن؟

فسأله جراكوس قائلا.

— مم تخاف؟ أنا لا أرجع على من ساعدنى. من أى شىء تخاف على هذه الأرض؟

فقال فلافيوس فى تعس.

— إنما أخاف منك. أخاف مما ستطلب منى أن أعمله. تستطيع أن تطلب كتائب حراسة المدينة لو أنك أردت. ولك عصاباتك الخاصة، ولك رجالك الأشداء، وهناك أحياء كاملة تستطيع أن تجعل كل مواطن فيها يؤدى عملا لك. لماذا لا تفعل إذن؟ لماذا تقصد رجلا عجوزا مضت أيامه مثلى؟ لم تمض أيامى، لأنه لم تكن لى أيام قط. فلم أكن إلا تابعا رخيصا. لماذا لا تذهب إلى أصدقائك؟

فقال جراكوس؟

— لا أستطيع. فى هذا الأمر لا أستطيع.

— لماذا؟

— ألا تعرف لماذا؟ أنا أريد تلك المرأة. أريد فارينيا.

حاولت أن أشتريها . عرضت على كراسوس مليون قطعة ذهبية . ثم ضاعفت السعر ، فأهانني وسخر مني في وجهي .

— أوه . . لا . . لا . . مليونان ؟ مليونان ؟

وبدأ فلافيوس يرتعد من الفكرة . ولعق شفتيه السمينتين ، وأخذ يقبض يده ويفردها وقال :

— مليونان ! هما العالم بأسره . العالم بأسره في حقيبة صغيرة تحملها معك في ترحالك ، فتملك العالم بأسره . وعرضت أنت تلك القيمة ثمنا لامرأة ؟ يا إلهي يا جراكوس - لماذا تريدها ؟ لست أسأل لمجرد محاولة معرفة أسرارك . أنت تريد مني أن أعمل لك شيئاً ، لكني سأغادر هذا المكان في التو إذا لم تقل لي . يجب أن أعرف لماذا تريدها .

فأجابه جراكوس مكتئباً .

— أنا أحبها .

— ماذا ؟

فأحنى جراكوس رأسه ، وقد زايله وقاره في تلك اللحظة أحنى رأسه واحمرت عيناه وبللتهما الدموع .

— لست أفهم . الحب ؟ وما الحب ؟ ق الشيطان؟ أنت لم تتزوج قط ، ولم تستطع امرأة أن تنشب أظفارها فيك قط . وتقول الآن إنك تحب أمة إلى حد أن تدفع مليونى قطعة ذهبية ثمنا لها . أنا لا أفهم ذلك .

فزمجر السيابى قائلا :

— أمن الضرورى أن تفهم ذلك ؟ أنت لن تستطيع أن تفهمه ، فأنت تنظر إلى فترى فى رجلا عجوزاً سمينا . فسرها كما يحلو لك . لم أعرف قط امرأة كانت مخلوقة بشرية ؟ كم من نسائنا مخلوقات بشرية ؟ لقد خفتهن وكرهتهن لما اعن الذين جعلناهن كذلك . لست أدرى . أنا اليوم أريد أن أزحف على ركبتى إلى هذه المرأة . أريدها أن تنظر إلى مرة واحدة ، وتقول لى إننى أعنى شيئاً بالنسبة لها . أنا لا أعرف وضع كراسوس بالنسبة لها . لكنى أستطيع أن أفهم ما تعنيه هى بالنسبة له . أستطيع أن أفهم ذلك جيدا . لكن ماذا يعنى هو بالنسبة لها فهو الرجل الذى حطم زوجها . الرجل الذى سحق سبارتاكوس ، كيف تستطيع هى أن تنظر إليه دون اشمئزاز وكراهية ؟ .

فأحنى فلافيوس رأسه وقال .

— النساء يستطعن ذلك . ويستطيع كراسوس أن يرفع من

ثمنها بغير تحديد . وسيدهشك ذلك .

- أوه . أنت مخطىء غاية الخطـــأ ، أيها الأحمق السمين ، أيها الأحمق السمين الغبي .

- لا تبدأ فى ذلك من جديد يا جراكوس .

- إذن فلا تتكلم كالأبله . أريد المرأة ، وأنت تعرف ما هو الثمن .

- أتعنى أنك ستدفع

- أجل .

فقال فلافيوس فى حذر

- أتعرف ماذا ستكون النتائج ؟ ليس بالنسبة لى . فأنا إذا نجحت فى تحقيق ما تريد ، سآخذ المال وأذهب إلى مصر ، وأشترى بيتا ريفيا وعددا من الإماء فى الإسكندرية وأعيش هناك كالمرزبان بقية حياتى . أنا أستطيع ذلك لكنك لا تستطيعه يا جراكوس . فأنت جراكوس ، وأنت عضو فى مجلس الشيوخ ، وأنت أعظم قوة فى روما فى هذه اللحظة . وأنت لا تستطيـــع الفرار . ماذا ستفعل بها ؟

- أنا لا أفكر فى ذلك الآن

- لا ؟ أنت تعرف ماسيفعله كراسوس لم يهزم إنسان كراسوس قط ، ولم ينتزع إنسان من كراسوس شيئا قط . هل تستطيع أن تحارب ذلك النوع من المال ؟ سيحطمك ياجراكوس حتى الموت . سيحطمك ويقتلك .

- فسأله جراكوس قائلا فى هدوء :

- أتظنه من الضخامة إلى هذا الحد ؟

- هل تريد الصدق ؟ المليونان أكثر مما حلمت به فى يوم من الأيام ، لكن الحقيقة أنه كذلك ؛ فهو يستطيع وسيفعل .

فقال جراكوس :

- سأجرب حظى .

- وماذا ستجنى بعد أن تجرب حظك ؟ مليونان مبلغ كبير . أستطيع أن أدفع منهما لإخراجها من بيت كراسوس ؛ ولإحضارها إليك ، ذلك ليس بالأمر العسير . ولكن من أدراك أنها لن تبصق فى وجهك . وما الذى يمنعها ؟ لقد حطم كراسوس سبارتاكوس لكن من الذى دفع بكراسوس إلى ذلك ؟ من الذى تحايل على وضعه فى ذلك المنصب ؟ من الذى أعطاه الجيش والمهمة ؟ .

فأحنى جراكوس رأسه وقال :

- أنا .

- بالضبط . إذن ما الذى ستجنيه ؟

- أستطيع الاحتفاظ بها .

- وماذا تستطيع أن تقدم لها . ماذا ؟ لا يوجد إلا شىء واحد ترغب فيه كل أمة . أتستطيع أن تعطيه لها ؟

ما هو ؟

— فقال فلافيوس

- أوه . أنت تعرف ما هو . لماذا لا تواجه هذا الأمر ؟

فقال جراكوس فى هدوء

- أتعنى حريتها ؟

- وهى بعيدة عنك ، حريتها من غيرك ، وذلك يعنى حريتها خارج روما ، ذلك يعنى حريتها بعيداً عن متناول كراسوس .
- أتظنها توافق على أن تهبنى ليلة واحدة مقابل حريتها ؟

- ليلة واحدة من أى شىء ؟

ـ من الحب . لا ، ليس الحب . التشريف ، الاحترام ،الرعاية. لا ـ ليس ذلك ، العرفان ، لتحدد الأمر على هذه الصورة ، ليلة واحدة من العرفان بالجميل .

فقال فلافيوس :

ـ يا لك من أحمق .

فأحنى جراكوس رأسه وقال

ـ وتزداد حماقتى إذ أجلس هنا وأدعك تقول ذلك . قد أكون أحمق وقد لا أكون ، سأجرب حظى مع كراسوس ، وستضطر إلى إقناعها بأننى لا أحنث بوعدى أبدا ، فقد عشت على كلمتى . وروما تعرف ذلك ، لكن هل تستطيع أن تقنعها بذلك ؟

فأحنى فلافيوس رأسه موافقا

ـ ويجب أن تعمل الترتيبات اللازمة لخروجها من روما بعد ذلك . هل تستطيع عمل ذلك ؟

فأحنى فلافيوس رأسه موافقا مرة ثانية .

أين ؟

إلى بلاد الغال عبر الألب على الأقل . إذ ستكون فى مأمن

هناك . لأن الموانىء ، والطرق المؤدية إلى الجنوب ستوضع تحت المراقبة . أما إذا ذهبت شمالا إلى بلاد الغال فأظنها ستكون فى مأمن . وهى ألمانية ، وأظن أنها تستطيع الذهاب إلى ألمانيا إذا أرادت .

— وكيف تستطيع إخراجها من بيت كراسوس ؟

— ليس ذلك بالمشكل . فهو يذهب إلى الريف ثلاثة أيام كل أسبوع ، وقليل من المال ينفق بحكمة كفيل بتحقيق ذلك .

— هذا إذا أرادت هى الذهاب فقط .

فأحنى فلافيوس رأسه موافقا . وقال

— فاهم .

وسترغب فى إحضار الطفـــل فيما أظن ، لا مانع فى ذلك ، سأوفر للطفل الراحة والعناية هنا .

— جل .

-- وتريد المليونين مقدما ، أليس كذلك ؟

فقال فلافيوس حزينا بعض الشىء :

— أظن أنى سأضطر إلى أخذهما مقدما .

— تستطيع أن تأخذهما الآن . فالمال موجود هنا ، تستطيع أن تحصل على المبلغ كله نقدا ، أو تستطيع أن تسحب من عملائى أصحاب المصارف فى الإسكندرية .

فقال فلافيوس :

— سآخذه نقدا .

أجل . أظنك على صواب . لا تخدعنى يافلافيوس لأنى سأجدك إذا فعلت :

— اللعنة يا جراكوس . إن كلمتى لا تقل قيمة عن كلمتك .

— حسن جدا .

— كل ما فى الأمر أنى لا أعرف لماذا تفعل ذلك . لا أعرف لماذا تفعل ذلك بحق كل الآلهة التى عاشت يوما ، وإذا ظننت أن كراسوس سيتلقى الأمر فى سكون ، فأنت لا تعرف كراسوس .

— أنا أعرف كراسوس .

— إذن ، فليساعدك الله يا جراكوس ، كم وددت ألا أحس مثل هذا الشعور ، ولكن هذا هو ما أحسه .

حلمت ڤارينيا هذا الحلم . حلمت أنها تواجه مجلس تحقيق من أعضاء مجلس الشيوخ الموقر . مجلس الرجال الذين يحكمون العالم هناك . جلسوا فى مقاعدهم الكبيرة يرتدون عباءاتهم البيضاء ولكل واحد منهم وجه كوجه كراسوس ، طويل ووسيم وصارم ، وكل شىء يحيط بهم ، طريقتهم فى الجلوس ، وانحناءاتهم إلى الأمام ، وذقونهم تستند إلى أيديهم ، والتعبير المرتسم على وجوههم كئيب منذر ، وثقتهم بأنفسهم ، وتأكيدهم لوجودهم . كان كل ما يحيط بهم يزيد من مظهر القوة . كانوا يمثلون القوة والسلطان ، ولم يكن فى استطاعة أى شىء فى الدنيا أن يقف فى وجههم . جلسوا فى مقاعدهم الحجرية البيضاء فى قاعة مجلس الشيوخ الكبيرة ذات القباب ، فكانت مجرد رؤيتهم شيئا يبعث على الفزع الكبير .

حلمت ڤارينيا أنها تقف أمامهم ، وأنها مطالبة بالشهادة ضد سبارتاكوس . وكانت تقف أمامهم فى رداء من القطن الخالص ، وهى تشعر شعورا مؤلما حارا ، بأن اللبن يلوث الرداء . وبدءوا يوجهون إليها الأسئلة .

ـ من كان سبارتاكوس ؟

وبدأت تجيب عن السؤال ، لكنها قبل أن تفرغ جاء السؤال التالى :

ـ لماذا حاول أن يدمر روما ؟

وحاولت أن تجيب من جديد ، لكن السؤال التالى جاء مرة ثانية :

ـ لماذا قتل كل من وقع بين يديه ؟ ألم يكن يعلم أن قانوننا يحرم القتل ؟

حاولت أن تنفى ذلك ، لكن السؤال التالى جاء قبل أن تخرج كلمتان من إنكارها من بين شفتيها .

ـ لماذا كان يكره كل ما هو طيب . ويحب كل ما هو شرير ؟

وحاولت مرة ثانية أن تتكلم ، لكن واحدا من أعضاء المجلس نهض وأشار إلى صدرها ، وسألها قائلا :

ـ ما هذا ؟

ـ ابن

ارتسم الغضب عند ذاك على كل وجه ، غضب رهيب فازداد

ذعرها أكثر من أى وقت مضى . ثم انفثأ خوفها فى حلمها بلا سبب تستطيع أن تفهمه . وقالت لنفسها فى الحلم :

ـ حدث ذلك لا لشىء إلا لأن سبارتاكوس معى .

وأدارت رأسها عند ذاك ، فتحقق ظنها ، إذ وجدته يقف إلى جوارها . وكان يرتدى ما كان يرتديه فى غالبية الأوقات فى أثناء كفاحهم . كان يرتدى أحذية جلدية طويلة الرقبة ، وثوبا رماديا بسيطا ، وقبعة صغيرة من الفلين تجثم على شعره الأسود الجعد . ولم يكن يحمل سلاحا ، فقد كان دائم التدقيق فى ألا يحمل أحد سلاحا إلا عند مواجهة المعركة . ولم يكن يتزين بأى حلى أو خواتم أو عقود ، وكان وجهه حليقا بعناية وشعره الجعد قصيرا .

وكان فى وقفته الكثير من اليسر والثقة بالنفس ، وتذكرت فى حلمها أن وقفته كانت كذلك على الدوام . فقد ينضم سبارتاكوس إلى جماعة فينفذ هذا الشعور باليسر إلى كل شخص من الموجودين ، لكن رد الفعل كان يختلف بالنسبة لها ، فقد كانت تشعر بالسرور دائما عندما تراه . وكانت تحس أنها كالحلقة المكسورة ، فما إن يظهر حتى تقفل الحلقة نفسها ، وتصبح سليمة كاملة . كانت فى فسطاطه يوما ، وكان فى الفسطاط خمسون شخصا على الأقل فى انتظار سبارتاكوس . وجاء فى النهاية ، فانتحت هى جانبا لتتركه

يتعامل مع الناس الذين كانوا فى انتظاره . وا كتفت هى بمراقبته . لكن سعادتها زادت وزادت ، وأصبحت كل كلمة يقولها ، وكل حركة يعملها جزءا من تدرج سعادتها تلك . ووصلت إلى حد لم تعد تتحمل عنده المزيد . فاضطرت إلى الخروج من الفسطاط ، لتجد مكانا تستطيع أن تخلو فيه إلى نفسها .

وأحست عند ذاك فى حلمها ، شيئا من ذلك الشعور . وسألها هو قائلا :

- ماذا تفعلين هنا يا عزيزتى ؟

- إنهم يستجوبوننى .

- من ؟

فأشارت إلى أعضاء مجلس الشيوخ النبلاء وقالت :

- هؤلاء . إنهم يعيشون فى الخوف .

ولحظت حينذاك أن أعضاء المجلس لايتحركون أدنى حركة كما لو كانوا قد تجمدوا .

وقال سبارتاكوس :

- لكنهم كما ترين أكثر منك خوفا .

وكان ذلك القول يطابق شخصيته تمام المطابقة ، فهو يرى الشىء ويقرره فى بساطة ، وبطريقة مباشرة . فتبدأ هى دائما فى التساؤل ، لماذا لم تر هى الأخرى نفس الشىء ؟ الواقع أنهم كانوا خائفين .

وابتسم سبارتا كوس وقال :

— لنذهب يا فارينيا .

وأحاط خصرها بذراعه ، وأحاطت خصره بذراعها وخرجا معا من قاعة مجلس الشيوخ إلى شوارع روما . كانا محبين ، فمشيا معا . ومشيا فى شوارع روما ولم يلحظهما إنسان ، ولم يوقفهما أحد .

وواصلا السير فترة أخرى ، ثم قال سبارتا كوس :

— يجب أن أذهب إلى مكان ما ، يجب أن نذهب إلى مكان ما معا .

فقالت فارينيا فى الحلم .

— أنا أعرف مكانا نذهب إليه .

— أين ؟

هو بيت رجل يدعى كراسوس ، وأنا أعيش هناك .

فتوقف عن السير ، وسحب ذراعه بعيدا ، وأدارها لتواجهه

وهو يفتش فى عينيها . وفى تلك اللحظة ، لاحظ أثر اللبن على رداثها . فقال يسألها ، وقد نسى فيما يبدو ما قالته عن كراسوس .

— ما هذا ؟

— اللبن الذى أرضع به طفلى .

فقال :

— أنا لم أرزق طفلا .

وبدا عليه الخوف فجأة ، وتراجع مبتعدا عنها . ثم اختفى . وانتهى الحلم .

واستيقظت فاوينيا فلم تجد شيئا إلا الظلام المحيط بها .

ذهب كراسوس فى اليوم التالى إلى الريف . وعندما جاء المساء ، أحضر فلافيوس ثارينيا لجراكوس ، وهو العمل الذى اتفق على القيام به . جاءا وكراسوس يجلس إلى عشائه وحيداً . وجاءت أمة إلى جراكوس ، وأنهت إليه أن بالخارج شخصين ، فلافيوس وامرأة . وأن المرأة تحمل بين ذراعيها طفلا .

فقال جراكوس :

— أجل . أجل . أنا أعرف . هناك مكان معد للطفل . أدخليها

ثم قال

— لا . لا . سأقوم بذلك بنفسى

وجرى تقريباً ، من غرفة الطعام إلى الباب الخارجى . وأدخلهما إلى البيت بنفسه . وكان جم الأدب ، كثير التقدير ، ورحب بهما كما يرحب المرء بأضياف عظيمى الشأن .

كانت المرأة تلتف فى عباءة طويلة ، ولم يستطع أن يتبين وجهها بوضوح فى المدخل المعتم . لكنه الآن ينتظر حتى يتطلع

إليها . وقادها إلى الداخل . وقال للمرأة إنها تستطيع أن تعطيه الطفل . أو أن تأخذه بنفسها إلى غرفة الحضانة . وكان الطفل نائما بين ذراعيها ، وخشى جراكوس أن يقول شيئا أو يشير إلى شىء قد يخلق فى نفسها نوعاً من التوجس بشأن الطفل .

وقال :

ـــ عندى حضانة منتظمة له وعندى مهد صغير ، وكل ما قد تريدين . وسيجد الراحة الكاملة ، وسيكون فى مأمن ، ولا يمكن لشىء على الإطلاق أن يصيبه .

فأجابت فارينيا قائلة

ـــ إنه لا يحتاج إلى الكثير .

وكانت تلك أول مرة يسمع فيها جراكوس صوتها . كان صوتها ناعما ، لكنه غنى وعميق ، صوت يبعث البهجة فى نفس السامع . ثم ألقت بالجزء الخاص بالرأس من عباءتها إلى الوراء ، فرأى وجهها . وكان شعرها الأصفر الطويل ، معقوصا فى مؤخرة عنقها . ولم يكن وجهها يحمل أى طلاء . والغريب فى ذلك حقاً ، أنه جعل خطوط وحدود وجهها الجميلة أكثر لفتاً للنظر ، وأكثر جمالا ،

وبينما كان جراكوس ينظر إليها ، راح فلافيوس يراقب جراكوس إذ انتحى فلافيوس جانباً ، وهو بادى الاهتمام ، مكتئبا ، ومتحيراً فى نفس الوقت . وكان غير مرتاح هناك ، وما إن استطاع أن يجد لكلماته منفذا ، حتى قال :

— يجب أن أعد بقية الترتيبات الآن يا جراكوس . سأعود فى الفجر ، وآمل أن تكون مستعداً لى عندذاك .

فأحنى جراكوس رأسه موافقاً وقال

— سأكون مستعدا .

عند ذاك خرج فلافيوس ، وقادها جراكوس إلى الغرفة التى كان قد أعدها للطفل . وكانت تجلس فيها أمة ، وأشار جراكوس برأسه إلى المرأة وقال مفسراً :

— ستجلس هنا طول الليل . ولن تنزع عينيها عن الطفل لحظة واحدة . وبذلك لا تضطرى إلى الخوف من أن يصيب طفلك شىء . وإذا بكى الطفل ، ستناديك فى الحال ، فلا حاجة بك إلى القلق على الإطلاق .

فقالت فارينيا

— سينام الطفل . أنت طيب القلب إلى حد كبـــير . لكن الطفل سينام .

— لكنك لن تضطرى إلى الإصغاء إلى بكاء الطفل . إذ ما إن يبك ، حتى تناديك . هل أنت جائعة ؟ هل أكلت ؟

فأجابته ڤارينيا بعد أن أرقدت الطفل فى المهد قائلة :

— لم آكل لكنى لست جائعة . فأنا ثائرة الأعصاب إلى حد لم يبق لى معه أية شهية . أحس كأنى فى حلم . كنت أول الأمر خائفة من الثقة بالرجل الآخر ، لكنى أصدق الآن . لست أدرى لماذا تضطر إلى الإقدام على هذا من أجلى . أخشى أن أكون فى حلم أستيقظ منه فى أية لحظة .

— لكنك ستجلسين معى بينما أفرغ من عشائى . وربما رغبت فى تناول شىء كذلك .

— أجل . سأفعل ذلك .

ورجعا إلى قاعة الطعام ، وجلست ڤارينيا على الأريكة فى زاوية قائمة على الجانب الذى جلس عليه جراكوس ولم يستطع هو أن يسترخى فى جلسته ، إنما جلس هناك متصلبا بعض الشىء ، غير قادر على انتزاع عينيه من ڤارينيا . ودلر بذهنه فى قليل من

الدهشة . إنه لا يحس انزعاجا فى أى صورة من الصور ، ولا يتوجس خيفة من شىء ، إنما يميل إلى الامتلاء بسعادة أكبر من أية سعادة عرفها فى حياته من قبل . كان يشعر بالرضاء ، ولم يكن فى حياته كلها من قبل ، قد أحس بمثل هذا الشعور من الرضا قط . وبدا له أن كل شىء على ما يرام فى الدنيا ، وأن انعدام التجانس المؤلم فى الدنيا قد اختفى . إذ كان يحس أنه يجلس مطمئنا فى بيته ، فى مدينته المباركة ، فى مدينته روما الرائعة . وامتلأ بحب عظيم دافق لتلك المرأة التى كانت تجلس قبالته . لم يحاول عند ذاك أن يتتبع العقدة التى ركزت الحب الوحيد فى وجوده كله فى زوجة سبارتاكوس . وظن أنه فهم السر فى ذلك ، ولكنه لم يحس رغبة فى التفتيش فى نفسه ووضع يده عليه .

وبدأ يتكلم عن الطعام فقال :

ـ أخشى أن تجدى الطعام أميل إلى البساطة بالمقارنة إلى المائدة التى ينصبها كراسوس . فأنا آكل الفاكهة واللحم البسيط ، والسمك فى غالبية الأحوال ، وأتناول أحيانا صنفاً خاصا . وعندى الليلة سرطان البحر المحشو ، وهو طيب جداً ، ونبيذ أبيض أشربه مخففا بقليل من الماء ـ

ولم تكن هى مصغية إليه ، فقال فى نفاذ بصيرة غير عادى

— أنت فى الحقيقة لا تفهمين متى نتكلم نحن الرومانيين عن الطعام .

فأمنت على رأيه قائلة :

— هذا صحيح .

— أستطيع أن أدرك السر فى ذلك . فنحن لا نتحدث قط عن مدى فراغ حياتنا . ذلك لأننا ننفق الكثير من الوقت فى ملء حياتنا ، فجعلنا من كل تصرفات البرابرة الطبيعية ، وهى الطعام والشراب والحب والضحك ـ جعلنا من كل هذه الأشياء طقوسا كبيرة وصنما . لم نعد نحس بالجوع قط . نتحدث عن الجوع، لكننا لا نجربه أبدا ، ونتحدث عن العطش ، لكننا لا نحس العطش مطلقا ، ونتحدث عن الحب ، لكننا لانحب . ونحاول أن نجد بديلا لكل هذا بما ندخله من تجديدات وبألوان الضلال التى لا تنتهى . لقد احتلت التسلية بالنسبة لنا محل السعادة ، وعندما تفقد كل تسلية طعمها ، يجب أن نجد شيئا آخر أكثر تسلية وأكثر إثارة ـ أكثر وأكثر وأكثر ، وزدنا من قساوة نفوسنا ، إلى حد أننا لم نعد نحس بما نعمل ، وعدم الإحساس هذا ينمو ويتضخم . أتفهمين ما أقول ؟

فأجابته فارينيا قائلة :

— أفهم بعضا منه .

— وأنا يجب أن أفهمك يا فارينيا . يجب أن أفهم لماذا تخافين أن يكون هذا مجرد حلم . فكراسوس كثير التقدير والحب لك . وأظنه قد يقدم حتى على الزواج منك ، إذا رغبت فى ذلك . وكراسوس رجل عظيم . بل إنه واحد من أعظم الرجال فى روما وسلطانه ونفوذه لا يصدقان . أتعرفين ما هو الفرعون المصرى ؟

— أجل أعرف .

— حسن ، كراسوس فى هذه اللحظة ، له من السلطان أكثر مما للفرعون المصرى . وفى وسعك أن تصبحى أعظم من ملكة مصر . الا يحمل إليك هذا بعضا من السعادة ؟

— مع الرجل الذى قتل سبارتاكوس ؟

— آه . لكن فكرى . هو لم يفعل ذلك من تلقاء نفسه . فهو لم يعرف سبارتاكوس ، ولم يحمل له أية كراهية شخصية . فأنا مجرم بنفس القدر . روما هى التى حطمت سبارتاكوس . لكن سبارتاكوس قد مات ، وأنت على قيد الحياة . الا تريدين ما يستطيع كراسوس أن يعطيه لك ؟

فأجابت فارينيا قائلة

— لا أريده :

— ماذا تريدين يا عزيزتى فارينيا ؟

فقالت :

— أريد أن أصبح حرة ، أريد أن أرحل عن روما ، ولا ارى روما مرة ثانية طول حياتى . أريد أن أرى ابنى ينشأ فى ظل الحرية .

فسألها جراكوس قائلا وهو فى حيرة ذهنية حقيقية .

وهل حرية المرء ثمينة إلى هذا الحد ؟ حرية من أجل أى شىء ؟ حرية من أجل الموت جوعا ؟ حرية كى يذبح المرء ؟ وكى يصبح شريدا بلا مأوى ؟ ـ حرية ليعمل المرء فى الحقول كما يعمل الفلاح ؟

فقالت فارينيا :

— لا أستطيع أن احدثك عن ذلك . حاولت أن أحدث كراسوس لكنى لم أعرف كيف أحدثه . ولا أعرف كيف أحدثك أنت

– وأنت تكرهين روما وأنا أحب روما يا ڤارينيا، روما هى دمائى وحياتى ؛ أمى وأبى. وروما عاهرة ، لكنى أموت لو اضطررت إلى ترك روما ، وأنا أحس هذا الآن ، وملىء بالشعور بمدينتى لأنك تجلسين أمامى هناك ، لكنك تكرهينها . وأنا أتساءل عن السبب هل كان سبارتا كوس يكره روما ؟

– كان ضد روما ، وكانت روما ضده . أنت تعرف ذلك .

– لكن لو أنه حطم روما ، ماذا كان ليقيم بدلا من روما .

– كان يريد عالما لا عبيد فيه ولا سادة ، إنما ناس يعيشون معا فى سلام وأخوة . قال إنه سيأخذ من روما ما هو طيب وجميل وأنه سيشيد مدنا بلا أسوار ، وأن كل الناس ستعيش فى سلام وأخوة ، وأنه لن تعود هناك حروب بعد ذلك ، ولن تبق تعاسة ولا آلام .

ظل جرا كوس صامتا فترة طويلة حينذاك ، راحت ڤارينيا ترقبه خلالها فى حب استطلاع وبلا خوف . فقد كان بالرغم من مظهره الخارجى الضخم ، وبالرغم من جسده الضخم السمين كان رجلا رغبت فى أن تثق فيه ، ومغاير الكل رجل عرفته من قبل . كما كانت فيه أمانة غريبة معكوسة إلى الداخل ، وكانت فيه صفة ذكرتها بطريقة ما بسبارتا كوس ، لم تكن شيئا تستطيع أن تضع

يدها عليه ، إذ لم تكن شيئاً جثمانياً — بل ولا حتى أحد أساليب السلوك . إنما كانت ، بصورة أكبر ، هي طريقته فى التفكير . وكان فى بعض الأحيان — بعض الأحيان فقط — يقول شيئاً كما كان سبارتا كوس يقوله .

ظل صامتاً فترة طويلة قبل أن يتكلم من جديد . ثم علق عند ذاك على ما قالته من قبل ، كما لو لم تكن قد انقضت لحظة واحدة . قال :

— إذن فقد كان ذلك هو حلم سبارتا كوس ، أن يقيم عالما بلا سياط ولا أحد فيه يجلد - لا قصور فيه ولا أكواخ من الطين ؟ من يدرى ؟ ما ذا أسميت ابنك يا فارينيا ؟

— سبارتا كوس . وأى اسم غير هذا يجب أن أسميه ؟

— سبارتا كوس ، أجل . طبعا ، وسيشب ليصبح طويل القامة قويا ، فيه كبرياء . وهل ستحدثينه عن أبيه ؟

— نعم ، سأحدثه عنه .

— وكيف ستحكين له ؟ كيف ستشرحين ؟ إنه سيشب فى عالم

ليس فيه رجال مثل سبارتا كوس . كيف ستشرحين له ما جعل أباه نقيا ورقيقا ؟ .

فسألته ڤارينيا قائلة .

— وكيف عرفت أن سبارتا كوس كان نقيا ورقيقا ؟

فتساءل جرا كوس قائلا :

— وهل من العسير معرفة ذلك ؟.

— إنه عسير بالنسبة لبعض الناس . هل تعرف ما سأقوله لابنى ؟

أظنك ستفهمنى . سأقول له شيئا غاية فى البساطة . سأشرح له أن سبارتا كوس كان نقيا ، وكان رقيقا لأنه وضع وجهه ضد الشر وعارض الشر ، وحارب الشر — ولم يهادن أبدا طيلة حياته كل ما كان خطأ .

— وهذا ما جعله نقياً ؟

فقالت ڤارينيا :

- لست بالغة الحكمة ، لكنى أظن أن ذلك يجعل أى رجل نقيا

فسألها جراكوس قائلا :

- وكيف تسنى لسبارتاكوس أن يميز بين ماهو صواب وماهو خطأ ؟ .

- كل ماكان فيه خير لقومه فهو صواب، وماكان يؤذيهم فهو شر .

فأحنى جراكوس رأسه موافقا وقال :

الآن أستطيع أن أرى حلم سبارتاكوس وطريقة سبارتاكوس فى الحياة . لقد تقدمت بى السن كثيرا بالنسبة للأحلام يا قارينيا وإلا لأكثرت من الأحلام حول ما فعلته بالحياة الواحدة التى توهب للرجل ليحياها حياة واحدة . وتبدو شديدة القصر بلامعنى وبلاهدف . تمر كاللحظة الخاطفة . يولد الرجل ومايلبث أن يموت دون منطق أو وزن . وهأنذا أجلس هنـــا بجسدى هذا السمين الضخم القبيح . هل كان سبارتاكوس وسيما شديد الجمال ؟

فابتسمت لأول مرة منذ دخلت إلى بيته ، ابتسمت ثم بدأت تضحك . ثم استحال الضحك دموعا ووضعت وجهها على المنضدة وبكت .

— ڤاريڤيا ، ڤاريڤيا . ماذا قلت أنا ؟

— لا شيء .

ثم اعتدلت فى جلستها ، وجففت وجهها بالمنشفة . وقالت :

— لا شيء قلته أنت . لقد أحببت سبارتاكوس إلى حد كبير . لم يكن مثلكم معشر الرومانيين ، ولم يكن مثل رجال قبيلتى كذلك . كان تراقيا ، له وجه عريض مسطح . وحدث ذات يوم أن انكسر أنفه ، بينما كان أحد الملاحظين يضربه . وقال النـــاس إن ذلك أكسب وجهه شبها بالغنم ، لكنه كان كاملا بالنسبة لى . هذا كل ما فى الأمر .

كانت الحواجز التى تفصل بينهما قد ذابت . وانحنى جراكوس إلى الأمام وأمسك بيدها . لم يكن قد شعر يوما طيلة حياته بمثل هذا القرب من امرأة ، وبمثل هذه الثقة فى امرأة . وقال :

— يا عزيزتى ، يا عزيزتى ، هل تعرفين ما قلته لنفسى ؟ قلت لنفسى أول الأمر ، إننى أريد منك ليلةً من الحب . ثم رفضت أنا نفسى ذلك . ثم رغبت فى ليلة من التبجيل والاحترام ، وهذا رفضته كذلك . ثم أصبح كل ما أريده هو الشكر وعرفان الجميل . لكن هناك ما هو أكثر من عرفان الجميل . أليس كذلك يا ڤاريڤيا ؟

فقالت فى صراحة

— نعم . هو كذلك .

وأدرك عند ذاك أنها خلو من النفاق والتصنع ، إذ كانت لا تعرف إلا أن تجاهر بما فى ذهنها كاملا ، فرفع يدها إلى فمه وقبلها ، فلم تسحبها هى منه . وقال :

— أريد هذا . أمامى من الآن حتى طلوع النهار . هل تجلسين معى وتتحدثين إلى ، وتشربين قليلا من النبيذ ، وتأكلين بعضاً من الطعام ؟ عندى الكثير الذى يجب أن أقوله لك ، والكثير الذى يجب أن أسمعه منك . هل تجلسين معى حتى طلوع النهار ، وعند ذاك سيأتى فلافيوس ومعه الجياد ، وتغادرين روما إلى الأبد ؟ هل تفعلين هذا من أجلى يا فارينيا ؟

فقالت :

— ومن أجل نفسى كذلك . فأنا أريد أن أفعل ذلك .

— لن أحاول أن أشكرك ، لأنه لا توجد طريقة أعرف بها كيف أشكرك .

فقالت فارينيا :

— ليس هناك ما تشكرنى عليه . فأنت تبعث فى من السعادة قدراً لم أكن أظن أنى سأبلغه مرة ثانية فى يوم من الأيام . لم أكن أظن قط أنى سأستطيع الابتسام من جديد بعد موت سبارتاكوس . ظننت أن الحياة ستظل كالصحراء أبداً ، ولو أنه اعتاد أن يقول لى إن الحياة تفوق فى أهميتها كل ما عداها من الأشياء ، ولم أعرف يوما ما كان يعنيه ، قدر ما عرفت الآن . أريد الآن أن أضحك . ولست بقادرة على فهم السبب فى ذلك ، لكنى أريد أن أضحك .

عندما عاد فلافيوس ، كانت الساعة التى تسبق الفجر قد حانت ، الساعة الرمادية الموحشة ، عندما تكون الحياة فى جزرها ؛ وتصل الأشياء إلى منتهاها قبل أن تبدأ من جديد . وأدخلته مدبرة البيت دون أن تقول شيئاً إلى جراكوس وفارينيا . وكان جراكوس عمداً فى مقعد متعباً ، شاحب الوجه ، وإن كان لا يبدو عليه التعس أما فارينيا فكانت تجلس على أريكة ترضع طفلها . وكان التعب بادياً عليها هى الأخرى ، لكنها كانت رائعة الجمال فى جلستها هناك ترضع الطفل السمين المتورد . وعندما رأى جراكوس فلافيوس ، وضع أصبعه على فمه ، فانتظر فلافيوس فى هدوء . ولم تكن له حيلة فى أن يأسره الإعجاب بجمال المرأة . فقد كانت تبـــدو فى جلستها هناك تحت ضوء المصباح ترضع طفلها ، كأنها شىء منتزع من ذاكرة روما عن الزمان القديم ، القديم جدا .

وعندما انتهت من إرضاع طفلها ، غطت صدرها ، ولفت الطفل النائم فى دثار من الصوف . ونهض جراكوس ووقف قبالتها ، وظلت هى معلقة أبصارها به لحظة طويلة .

وقال لهما فلافيوس :

— لقد قررت استخدام المركبات . فبهذه الطريقة نستطيع أن نكسب أكبر وقت ممكن ، وتصبح المسألة عدد الأميال التى نقطعها سواء كنا سننجح فى الوصول أم لا . ولقد ملأت إحدى المركبات بالأغطية والحشيات كى تنالين أكبر قسط من الراحة . لكن يجب أن نرحل فى الحال . فنحن بهذا الوضع قد تأخرنا ، تأخرنا إلى حد كبير .

ولم يبد عليهما أنهما يسمعانه ، فقد كانت عينا كل منهما متشبثة بالآخر ، زوجة سبارتا كوس الجميلة ، والسياسى الرومانى السمين المتقدم فى السن . ثم استدارت فارينيا إلى مدبرة البيت وقالت لها :

— هل تحملين الطفل عنى لحظة ؟

وأخذت مدبرة البيت الطفل ، وذهبت فارينيا إلى جرا كوس وربتت على ذراعيه ، ثم مدت قامتها ومست وجهه ، فانحنى لها فقبلته :

وقالت له

— الآن يجب أن أقول لك هذا . أنا أشكرك لأنك كنت بالغ الطيبة معى . إذا جئت معى ، سأحاول أن أكون طيبة معك أنا الأخرى ، كأطيب ما يمكن أن أكونه مع أى رجل .

— شكراً لك ياعزيزتى .

— هل تأتى معى ياجراكوس ؟

— أوه ، شكراً لك ياعزيزتى ، وليباركك الله . أنا أحبك إلى حد كبير ، لكنى سأكون عديم النفع بعيدا عن روما . فروما أمى ، وأمى عاهرة ، لكنها ، فيما عداك ، المرأة الوحيدة التى أحببتها يوماً . ولست عديم الإخلاص . ثم أنا رجل عجوز سمين ، وسيضطر فلافيوس هذا إلى أن يفتش المدينة ليجد مركبة تحملنى . اذهبى أنت ياعزيزتى .

فقال فلافيوس وقد نفد صبره

— قلت لكما إننا قد أضعنا كثيراً من الوقت . خمسون شخصاً يعرفون بهذا الأمر فى هذه اللحظة . أتظن أنه لن يثرثر واحد منهم ؟

فقال جراكوس :

— إرعها جيداً . فستصبح الآن رجلا غنيا يافلافيوس ، وستعيش بعد اليوم فى راحة . فافعل هذا الشىء الأخير من أجلى . إرعها هى والطفل رعايةً طيبةً ، رافقهما كل الطريق شمالا حتى تصل إلى التلال التى تقوم عند أقدام جبال الألب . والفلاحون الغاليون

الذين يعيشون هناك فى الأودية الصغيرة ، قوم طيبون ، بسطاء ، يجدون وستجد لنفسها مكاناً بينهم . لكن لا تتركها حتى تستطيع رؤية جبال الألب — واضحة على السماء . وأسرع . الهو بالسياط على الجياد . اقتلهم إذا لزم الأمر ، واشتر جيادا جديدة ، لكن لا تتوقف أبدا . هل تفعل هذا من أجلى يافلافيوس ؟

— هل أخللت بوعد قطعته لك بعد ؟

— لا ، لم تفعل . فليرعكم الله .

وذهب معهم حتى الباب ، وحملت هى الطفل بين ذراعيها . ووقف فى الباب الخارجى ، فى الفجر الرمادى الذى أخذ الضوء يشوبه ، وراقبهم وهم يصعدون إلى المركبات ، وكانت الجياد ثائرة الأعصاب ، نشيطة ، راحت تقرع الرصيف بأقدامها وتلوك ألجمتها .

وصاح يخاطبها قائلا :

— ليرعك الله يا ڤارينيا .

فلوحت له بيدها ، ثم انطلقت المركبات تقرقع فى الشوارع الضيقة المقفرة ، موقظة الجيرة بأسرها بدويها وضجيجها .

عند ذاك عاد جراكوس إلى مكتبه، وجلس فى مقعده الكبير وقد استبد به التعب فى تلك اللحظة، وأغمض عينيه برهة. لكنه لم ينم فقد كان رضاؤه باقيا لم يزل. وأغمض عينيه، وترك أفكاره تسرح، وفكر فى أشياء كثيرة. فكر فى أبيه. كان حذاء فقيرا فى ذلك الزمن الذى كان من الواضح أنه انقضى إلى الأبد، أيام أن كان الرومانيون يكدون ويفخرون بكدهم. وتذكر تدريبه السياسى فى الشوارع، والحروب الدموية التى كانت العصابات تشنها، والتدرب على بيع وشراء الأصوات بما فى ذلك من سخرية شريرة، واستغلال الدهماء، وتسلقه سلم السلطان والقوة. نهم لا يشبع إلى السلطان، ونهم لا يشبع للمال. فى تلك الأيام، كان مازال هناك الرومانيون الأمناء الذين حاربوا فى سبيل الجمهورية، والذين حاربوا من أجل حقوق الشعب، والذين تكلموا بشجاعة فى الساحة العامة عما فى انتزاع أراضى الفلاح وإقامة مزارع العبيد الشاسعة من ظلم. كانوا يحذرون. وكانوا يهدرون كالرعد، وكانوا يقفون أمام الطغيان وجها لوجه. وكان جراكوس يفهمهم، ويقر بعدالة قضيتهم. لكنه كان يعرف كذلك، أن قضيتهم قضية محتومة الخسران. فليس من الممكن إرجاع عقارب ساعة التاريخ إلى الوراء، لأن الزمن يتقدم إلى الأمام. فانضم إلى أولئك الذين كانوا يضعون ثقتهم فى الإمبراطورية. وبعث بعصاباته لتحطم

أولئك الذين كانوا يتحدثون عن الحريات القديمة . وذبح العادلين وذوى المبادىء .

فكر فى ذلك فى تلك اللحظة ، لا أسفا أو رثاء ، إنما رغبة فى الفهم . كان أعداؤه القدامى هؤلاء يحاربون فى سبيل حريات قديمة . لكن ، هل كانت هناك حريات قديمة ؟ كانت هنا امرأة خرجت من بيته . والحرية تشتعل بداخلها كالنار ، وقد أسمت ابنها سبارتاكوس ، وسيسمى هو ابنه سبارتاكوس - ومتى يرضى العبيد بالبقاء عبيدا ؟ لم يجد إجابة لنفسه عن أسئلته ، ولم يستطع أن يوجد لنفسه حلا . ولم يبعث ذلك أيضاً الأسف إلى نفسه ، فقد عاش حياة حافلة لا يأسف عليها . وكان فيه إحساس بالتاريخ حينذاك ، إحساس بسرعة مرور الوقت الذى لا يعدو أن يكون هو مجرد لحظة فيه ، وبعث ذلك بالراحة إلى نفسه . ستدوم مدينته الحبيبة . ستدوم إلى الأبد . ولو أن سبارتاكوس عاد يوما وحطم أسوارها حتى يعيش البشر فى مأمن من الخوف ، فسيدركون أن رجالا مثل جراكوس قد عاشوا يوما ، رجالا أحبوا المدينة على الرغم من أنهم قبلوا ما فيها من شر .

وانتقل إلى التفكير فى حلم سبارتاكوس . هل يعيش ذلك الحلم ؟ هل يدوم ؟ هل كان الشىء الغريب الذى قالته فارينيا صحيحا ،

إن فى وسع البشر أن يصبحوا أنقياء خلصاء بمحاربة الشر ؟ إنهم لم يعرف قط مثل هؤلاء الرجال ، لكنه لم يعرف سبارتاكوس قط لكنه قد عرف فارينيا . وسبارتاكوس قد ذهب ، وفارينيا قد ذهبت . لقد أصبح ذلك كالحلم عند ذاك . وهو لم يلمس إلا طرف المعرفة الغريبة التى تمثلها فارينيا ، لكن تلك المعرفة لم يكن لها وجود بالنسبة له ، ولا تستطيع أن توجد .

ودخلت مدبرة منزله ، فتطلع إليها فى استغراب ، وسألها فى رقة قائلا

— ماذا تريدين أيتها العجوز ؟

— حمامك جاهز ياسيدى .

فقال يفسر لها

— لكنى لن أستحم اليوم .

وأدهشه ما بدا عليها من دهشة وحيرة . ومضى يقول

— كل شىء قد تغير اليوم ياعجوز . انظرى . هناك ، على تلك المنضدة ، تجدين صفا من الحقائب . فى كل حقيبة توجد شهادة

عتق لكل واحدة من عبيدى . وفى كل حقيبة ، يوجد عشرون ألف قطعة ذهبية . أريدك أن تعطى الحقائب للعبيد ؛ وتطلبى منهم مغادرة بيتى . أريدك أن تفعلى هذا الآن يا عجوز .

فقالت

— أنا لا أفهمك .

— لا ؟ لماذا لا تفهمينى ؟ ما قلته واضح تماما . أريد منكم أن تذهبن جميعا . أنتن حرائر ومعكن قدر من المال ، هل سمحت لك يوما من قبل بعصيان أوامرى ؟

— لكن من سيطهو لك طعامك ؟ من سيعنى بك ؟

— لا تسأليني كل هذه الأسئلة يا عجوز . افعلى ما أقول .

وخال جراكوس الوقت الذى سبق خروجهم جميعا من البيت دهرا ، ثم ران على البيت سكون غريب ، سكون جديد . وكانت شمس الصباح ترتفع ، وامتلأت الشوارع بالحيـــاة والأصوات والضجيج ، لكن بيت جراكوس كان ساكنا صامتا .

وعاد إلى مكتبه ، وذهب إلى خزانة وفتحها وأخرج منها سيفا ، سيفا أسبانيا قصيرا من النوع الذى يحمله الجنود ، لكنه جميل الطرق

وله غمد مزخرف رائع . كان السيف قد أعطى له منذ سنين وسنين مضت بمناسبة احتفال ما ، لكنه لم يستطع ، على الرغم مما بذل من جهد ، أن يتذكر أية مناسبة كانت . غريب أن يحمل مثـــل هذا الاحتقار للأسلحة ، لكن ذلك لم يبد غريبا للغاية ، عندما تذكر أن السلاح الوحيد الذى اعتمد عليه طيلة حياته كان مواهبه الخاصة .

وأخرج السيف من غمده وتحسس حافته وطرفه المدبب . كان ماضيا شديد المضاء . ثم عاد إلى مقعده وجلس وراح يتأمل كرشه الضخم ، وبدأ يبتسم لفكرة قتله لنفسه . لم يكن فى ذلك أى كرامة ، بل كان أمرا سخيفا كل السخافة ، وشك جديا فى أن يجد من نفسه القوة على إغماد السيف فى - بالطريقة الرومانية الشريفة . أنى له أن يعرف أنه لن يطعن أكثر من الشحم ، ثم يفقد السيطرة على أعصابه ويرقد متخبطا فى دمائه يعوى ويصيح طلبا للعون . ياله من وقت فى حياة رجل يبدأ فيه القتل . إنه لم يقتل شيئا واحدا طيلة حياته ، حتى ولا فرخا من أفراخ الدجاج .

ثم أدرك أن الأمر ليس مسألة أعصاب . فهو لم يخف من الموت إلا لماما . وكان منذ طفولته يسخر من القصص المضحكة

عن الآلهة . وكان كرجل ، قد قبل بسهولة وجهة نظر المتعلمين من أبناء طبقته ، فى أنه لا توجد آلهة . وأنه لا حياة بعد الموت . لقد قر رأيه على ما ينوى عمله ، إنما يخاف فقط ألا يعمله فى وقار .

ولا بد أنه أغفى بينما كانت تلك الأفكار تدور فى ذهنه ، لأنه استيقظ على دقات شخص يقرع الباب الخارجى قرعا مدويا ،

فنفض عن نفسه النعاس وأصغى .

وفكر لنفسه قائلا

— يا له من مزاج مزاجك يا كراسوس . يا له من سخط عادل ، أن يستطيع هذا الأحمق العجوز السمين أن يلفك حول أصبعه وينتزع منك مكافأتك الكبيرة عن الحرب . لكنك لم تحبها يا كراسوس . أردت سبارتاكوس لتعلقه على الصليب بالمسامير ، وعندما لم تستطع الحصول عليه ، أردتها هى . أردتها أن تحبك ، وأن تزحف على قدميها أمامك . أوه يا كراسوس ، أنت أحمق كبير ، أحمق غبى كثير الخطأ . ومع ذلك فالناس من أمثالك هم رجال العصر . لا شك فى ذلك .

وبحث عن السيف فلم يجده . فهبط راكعا على ركبتيه حتى وجده تحت المقعد . وركع والسيف فى يديه ، ثم أغمده بكل قوته

فى صدره . وكان الألم من العنف إلى حد أن صرخ فى ألم . لكن السيف نفذ ، ثم سقط إلى الأمام فوقه ، فدفعه حتى نهاية الطريق .

وهكذا كان عندما حطم كراسوس الباب ودخل . واحتاج القائد إلى كل قوته ، حتى قلبه على ظهره ، وعند ذاك رأى القائد وجه السياسى وعليه جهامة أو ضحكة فاترة .

وعاد كراسوس بعد ذلك إلى بيته ، يفيض غضبا وكراهية . لم يحس من قبل طيلة حياته كلها أنه يكره إنسانا أو شيئا بنفس الطريقة التى كان يكره بها جراكوس الميت . لكن جراكوس قدمات ، ولم يعد لكراسوس ما يستطيع عمله فى ذلك الشأن .

وعندما دخل كراسوس إلى بيته ، تبين أن لديه ضيفا . كان كايوس الشاب فى انتظاره . ولم يكن كايوس يعرف شيئا عما حدث . كان قد عاد لتوه ، كما أوضح ذلك على التو ، من عطلته التى أمضاها فى كابوا ، فجاء مباشرة ليزور حبيبه كراسوس . وراح إلى كراسوس وبدأ يربت على صدره . وعند ذاك أهوى عليه كراسوس بقبضة يده فطرحه أرضا .

واندفع كراسوس كالعاصفة إلى الغرفة المجاورة ، وعاد يحمل سوطا . وكان كايوس قد بدأ يجمع شتات نفسه وينهض من وقعته

على الأرض ، والدم يجرى نازلا من أنفه ، ووجهه ملىء بالدهشة والألم والسخط ، ثم بدأ كراسوس يجلده بالسوط .

وصرخ كايوس ، وصرخ مرة ومرة ، لكن كراسوس مضى يهوى بالسوط فوقه . وكان من الضرورى فى النهاية أن يتدخل عبيد كراسوس ويوقفوه ، فتعثر كايوس خارجا من البيت ، وهو يبكى كالصبى الصغير من ألم الجلد بالسوط .

— ١ —

نفذ فلافيوس اتفاقه مع جراكوس ، فاندفعت المركبات تشق طريقها شمالا ثم تعرج إلى الشرق وهى مسلحة بخبر أوراق الاعتماد الموقعة من جراكوس نفسه . ولم تتذكر ڤاريفيا الكثير من الرحلة ، إذ أمضت معظم اليوم الأول نائمة والطفل متشبث بصدرها . وكان طريق كاسيا طريقا ممتازا ناعما سطحه صلب ، فتقدمت المركبات فى يسر وانتظام ، قاد السائق الجياد خلال الجزء الأول من النهار بلا رحمة . ثم استبدلت بالجياد مجموعة جديدة عند الظهر ، وتقدمت المركبات خلال الجزء الأخير من النهار تجرها الجياد فى عدو سريع منتظم . وعندما نزل الليل كانوا قد ابتعدوا عن روما أكثر من مائة ميل شمالا . واستبدلوا الجياد مرة ثانية فى الظلام ، واستمرت المركبات فى اندفاعها طول الليل تحت ضوء القمر فى سرعة منتظمة تلتهم الأميال ميلا إثر ميل .

واعترضت طريقهم الداوريات العسكرية عددا من المرات ، لكن تفويض مجلس الشيوخ الذى كان جراكوس قد أعطاه لفلافيوس كان كافيا على الدوام لشق طريقهم . ووقفت ڤاريفيا ساعات بأسرها فى أثناء تلك الليلة فى المركبة المتأرجحة والطفل ينام

الجزء الثامن

وفيه تنال فارينيا حريتها

مكتبات
www.library4arab

فى سلام عند قدميها وهو ملتف بالأغطية تحيط به الحشيات . وشاهدت الريف يمر أمام عينيها يضيئه نور القمر . وشاهدت فى أثناء مرور المركبات فوق الجسور الرومانية الرائعة ، سيول الماء وهى تندفع هابطة إلى أسفل . كانت الدنيا نائمة لكنهم واصلوا السير .

وعندما أفل القمر قبل الفجر بساعات قليلة ، عرجت المركبات خارجة من الطريق إلى مرج صغير ، وحلوا الخيول من المركبات وقيدوها ، وتناولوا شيئا من الخبز والنبيذ ثم رقدوا فوق الأغطية ليستريحوا . واستعصى النوم على فاريتيا . أما السائقون المجهدون فسرعان ما غرقوا فى نوم عميق . وبدا لفاريتيا أنها لا تكاد تكون قد أغفت عندما أيقظها فلافيوس ، فأرضعت الطفل بينما كانوا يسرجون الخيول . وكانوا يعملون متبرمين فى بطء شأن الرجال عندما لا يكونون قد تغلبوا بعد على إرهاقهم ، وعند ذاك قادوا المركبات عائدين إلى الطريق فى ضوء الفجر الشاحب . ثم اتجهوا إلى الشمال من جديد . وكانت الشمس تشرق عندما توقفوا فى إحدى المحطات التى تقوم على جانب الطريق كل ميل ليلينوا أطرافهم وليستبدلوا الجياد مرة ثانية . وبعد فترة قصيرة مروا بمدينة مسورة ، وظل السائقون يلهبون الجياد بالسياط طيلة ذلك الصباح فتندفع المركبات متقدمة فى دوى كالرعد . وعندذاك بدأت

حركة المركبة اللانهائية تؤثر على ڤارينيا . فتقيأت عدة مرات ، وظلت فى خوف دائم من أن يتوقف لبنها عن التدفق . إلا أن فلاڤيوس ، عندما جاء المساء ، اشترى لبنا طازجا وجبنا من لبن الماعز من أحد الفلاحين - وهو الطعام الذى كان فى استطاعة ڤارينيا أن تبقيه فى معدتها - واستراحوا معظم الليل نظرا لأن السماء كانت مليئة بالغيوم .

وقاموا مرة ثانية قبل الفجر وبدءوا المسير ، ومع انتصاف النهار ، وصلوا إلى حيث يلتق طريق كبير آخر بطريقهم ويقطعه . كانوا حينذاك يتقدمون شمالا فى اتجاه الغرب . وشاهدت ڤارينيا لأول مرة على بعد والشمس آخذة فى الغروب ، قمم جبال الألب المكللة بالثلوج . وكانت الليلة مقمرة ، فمضوا فى طريقهم دون توقف ودون إمعان فى إرهاق الجياد . إلا أنهم توقفوا مرة فى أثناء الليل ليستبدلوا الجياد للمرة الأخيرة ، ثم انحرفوا قبل الصباح عن الطريق الرئيسى إلى طريق مترب غير مرصوف يمتد شرقا . وتعرج الطريق هابطا إلى أحد الأوديه ، واستطاعت ڤارينيا عنـــدما أشرقت الشمس أن ترى الوادى كله ممتدا أمامها مغلفا بالضباب ، بالضباب ، ونهراً جميلا يتدفق فى منتصفه ، والتلال ترتفع على كل من جانبيه . كانت جبال الألب قد أضحت أكثر قربا عند ذاك .

هنا لم يعد فى استطاعتهم أن يتقدموا بسرعة كبيرة نظراً لأن المركبات كانت تترنح من جانب إلى جانب من الطريق المترب غير الممهد . فجلست قارينيا بين الحشيات ، وهى تمسك بطفلها بين ذراعيها . وعبروا النهر فوق جسر خشبى ثم بدءوا يصعدون فى بطء على سفوح التلال . وجاهدت الجياد طيلة النهـــار صاعدة مقتفية الأثر على الطريق الجبلى المتعرج . وكان الفلاحون الغاليون عندما يرونهم ، يوقفون عن عملهم ليشاهدوا المركبتين الكبيرتين والجياد الأصيلة ذات الصدور الضخمة التى تجرهما ، وكان الأطفال يجرون على الدوام إلى جانب الطريق ورءوسهم مغطاة بنسيج الكتان ليحدقوا بعيون واسعة إلى هذا المشهد غير العادى .

وقبل المساء بقليل ، عندما أصبح الطريق مجرد درب غير ممهد ، وصلوا إلى قمم التلال ، وشاهدوا واديا عريضا يمتـــد أمامهم . واستطاعت قارينيا أن ترى هنا وهناك فى هذا الوادى العريض مدينة صغيرة ، ومجموعة من المنازل ، ومجموعات من أكواخ الفلاحين فى أماكن أخرى . وكان الوادى يضم مساحات عريضة من الغابات ، وكثيراً من القنوات الصغيرة ، وما يوحى بمدينة كبيرة مسورة غير واضحة المعالم على بعد . وكانت المدينة تقع إلى الغرب بالنسبة لهم ، فراحوا يشقون طريقاً لأنفسهم هابطين فى اتجاه الشمال متجهين إلى جبال الألب التى كانت مازال تبدو بعيدة .

وكان هبوط التلال فى نفس صعوبة ارتقائها ، فقد كان من الضرورى كبح جماح الجياد وشدها إلى الوراء ، كما أن الطريق كان ينثنى ويدور . وكان الظلام قد حل بالفعل عندما وصلوا إلى قاع الوادى ، فتوقفوا لينالوا قسطا من الراحة ولينتظروا بزوغ القمر وسافروا زمنا فى تلك الليلة تحت ضوء القمر ثم توقفوا من جديد ثم استأنفوا السفر مع تباشير نور اليوم التالى . وكانت الطرق كلها رديئة فى هذه المنطقة ، ومع ذلك فقد واصلوا التقدم حتى وصلوا فى النهاية إلى التلال المتحدرة حيث تبدأ جبال الألب .

وهنا افترق فلافيوس عن فارينيا ، تركها فى وقت مبكر ذات صباح على رقعة من الطريق حيث لم يكن يبدو شىء على مرمى البصر عدا الحقول والغابات .

وقال لها

— صحبتك السلامة يافارينيا . لقد نفذت ماوعدت جراكوس بعمله . وأظن أننى أستحق بعضا من المال الذى دفعه لى . وآمل ألا يرى واحد منا روما مرة ثانية فى يوم من الأيام ، فليست هى بالمدينة الصالحة لكلينا من الآن فصاعدا . أرجو الحظ الحسن والسعادة ، لك ولولدك الصغير هذا . توجد قرية ريفية صغيرة

على بعد حوالى ميل صعودا فى هذا الطريق ، ويحسن ألا يروك قادمة فى مركبة . إليك هذه الحقيبة ففيها ألف قطعة ذهبية تكفى لشراء طعامك وإيجار مأوى لك لمدة عام إذا احتاج الأمر فى هذه المناطق . والفلاحون هنا قوم بسطاء ، وسيساعدونك إذا أردت أن تعبرى الجبال إلى وطنك . لكنى أنصحك بألا تحاولى ذلك . إذ يعيش فى الجبال قوم متوحشون يكرهون الأغراب . كما أنك لن تجدى قومك قط يافارينيا . فالقبائل الألمانية دائمة التجوال فى الغابات من مكان إلى مكان ، ولا يستطيع إنسان أن يحدد مكان قبيلة ما من سنة إلى سنة . كما أن تلك الغابات الموجودة فى الجانب الآخر من جبال الألب ، فيما سمعت ، مكان كثير الرطوبة غير صحى لا يصلح لنشأة طفل صغير . لو كنت مكانك يافارينيا لقررت أن أعيش فى جهة ما من هذه المنطقة المجاورة . ويجب أن أعترف لك بأن هذا لا يستهوينى ، لكن هذا ما أردته أنت . أليس كذلك ؟

وأحنت رأسها موافقة وقالت

— هذا ما أردته . وأنا كثيرة الشكر لك يافلافيوس

وعنـــد ذاك أداروا المركبات ليعودوا أدراجهم ووقفت فارينيا هناك والطفل بين ذراعيها ، ترقبهم وهم يبتعدون وسط عواصف الغبار ، وظلت ترقبهم حتى أخفاهم مرتفع من الأرض عن نظرها .

وجلست إلى جانب الطريق وأرضعت الطفل . ثم قامت وتقدمت على الطريق . وكان الصباح صباح يوم من أيام الصيف الرائقة الندية ، وكانت الشمس تصعـــد فى سماء زرقاء صافية ، والطيور تشدو وتغنى وأسراب النحل تنتقل من زهرة إلى زهرة تمتص الرحيق وتملأ الهواء بطنينها.

وكانت ڤارينيا سعيدة . لم تكن سعادتها هى السعادة التى عرفتها مع سبارتاكوس ، لكنه كان قد أورثها معرفة الحياة وقيمة الوجود الثمينة . وهى حية وحرة ، وطفلها حى وحر . لذلك كانت راضية بطريقة ما ، وتتطلع إلى المستقبل فى أمل وتفاؤل .

— ٢ —

هذا ما حدث لفارينيا . والمرأة لا تقوى على الحياة وحيدة ، فوجدت مأوى لها فى القرية التى انتهت إليها ، وهى قرية تضم قوما من الفلاحين الغاليين البسطاء ، وجدت مأوى لها مع رجل ماتت زوجته فى أثناء الوضع . من المحتمل أن يكون الفلاحون قد عرفوا أنها أمة هاربة ، لكن ذلك لم يعن لهم شيئاً . فقد كانت ممتلئة الأثداء ومنحت الحياة لواحد من أطفالهم . وكانت هى امرأة طيبة ، فأحبها القوم لقوتها وبساطتها الصريحة .

وكان الرجل الذى دخلت بيته فلاحا بسيطاً . لا يقرأ ولا يكتب ، ولا يعرف إلا دروس الكد . لم يكن سبارتاكوس ، ومع ذلك فلم يكن ليختلف كثيراً عن سبارتاكوس . فله نفس الصبر على الحياة . وليس سريع الغضب ويحب طفليه حبا عميقاً — طفله هو ، والطفل الذى جاءته به فارينيا .

أما فارينيا ، فقد قدسها وعبدها — لأنها جاءته من الخارج وجلبت له الحياة معها . واستطاعت هى مع الزمن أن تعرفه ، وأن تبادله بعضاً من شعوره . وتعلمت لغتهم بسهولة كبيرة ، فهى لغة

لا تينية الأصل خالطها كثير من الكلمات العالية ، وتعامت طرائقهم التى لم تكن لتختلف كثيراً عن طرائق وعادات قبيلتها الأصلية . فهم يفلحون الأرض ويخرجون منها المحصول . وينذرون بعض المحصول لآلهة قريتهم ، ويدفعون جزءاً آخر لجامع الضرائب ولروما . يعيشون ويموتون ، يرقصون ويغنون ، يبكون ويتزاوجون ، وتمضى حياتهم مع الدورات العادية للفصول .

وكانت تغييرات كبيرة تطرأ على العالم ، إلا أنهم ما كانوا يشعرون بالتغييرات فيما بينهم إلا ببطء كبير ، لدرجة أن حياتهم لم يكن ليصيبها أى صدع حقيقى .

وكانت ثاريتيا مثمرة ولوداً . فكانت تخرج من بين حقويها كل عام طفلا جديداً . فأنجبت سبعة أطفال من الرجل الذى تزوجت منه قبل أن تتوقف عن الحمل . وشب سبارتاكوس الصغير معهم ، طويلا قويا منتصب القامة . وعندما بلغ السابعة من عمره حدثته لأول مرة عمن كان أبوه ، وروت له قصة ما فعله أبوه . وأدهشها أنه استطاع أن يحسن الفهم . ولم يكن أحد فى هذه القرية قد سمع من قبل باسم سبارتاكوس ، فأحداث أكبر من هذه قد هزت الدنيا ولم تدر بها هذه القرية . ومع نمو بقية أطفالها : وثلاث منهم بنات وخمسة صبيان ، روت لهم ثاريتيا القصة مرات كثيرة .

قصت عليهم كيف استطاع رجل عادي ، كان عبدا ، أن يقف في وجه الطغيان والظلم ، وكيف ظلت روما العاتية ترتعد من مجرد ذكر اسمه طيلة سنوات أربع . وحدثتهم عن المنجم المشئوم الذي كد فيه سبارتاكوس وروت لهم كيف قاتل في المجتلد الروماني وفي يده سكين . وحدثتهم عن مدى رقته وطيبته وحنوه ، ولم تحاول قط أن تفصل بينه وبين القوم البسطاء الذين كانت تعيش بين ظهرانيهم فكانت ، في الحقيقة ، عندما تتحدث عن رفاق سبارتاكوس تنتقي هذا أو ذاك من سكان القرية لتضرب به المثل . وكان زوجها يصغي ، عندما تروي هذه القصص ، في عجب وحسد .

ولم تكن الحياة التي عاشتها فاريفيا حياة سهلة لينة . فقد كانت تعمل منذ طلوع النهار حتى نزول الليل ، تستأصل الحشائش ، وتعزق الأرض ، وتنظف ، وتغزل وتنسج . ولوحت الشمس بشرتها البيضاء فأحالتها سمراء ، واختفى جمالها ، لكن جمالها لم يكن يوما بالشيء الذي تعلق عليه كبير أهمية . فما من مرة توقفت فيها لتفكر في الماضي وتتأمله ، إلا أحست بالشكر لما أعطته لها الدنيا . ولم تعد تبكي على سبارتاكوس . وأضحت حياتها مع سبارتاكوس عند ذاك كالحلم .

وعندما بلغ ابنها الأول العشرين من العمر ، أصابتها حمى ، وماتت بعد ثلاثة أيام . وكان موتها سريعا وبلا كثير من الألم ،

وبعد أن بكاها زوجها وأولادها وبناتها لفوها فى كفن ودفنوها فى الأرض لتستريح إلى الأبد.

وحدث بعد موتها أن طرأت تغييرات على ذلك المكان. فقد بدأت الضرائب تزداد، وكانت الزيادة مطردة بلا نهاية. وجاء صيف جاف فمات أغلب المحصول، وعند ذلك جاء الجنود الرومانيون. وطردوا العائلات التى لم تستطع دفع ما عليها من ضرائب من بيوتها ومن أرضها، وقيدوا أفرادها بالسلاسل من أعناقهم، وساقوهم إلى روما ليباعوا هناك استيفاء لما عليهم من ضرائب.

على أنه، ليس كل من ماتت محصولاته قد قبل هذا الموقف فى خنوع. فقد فر سبارتاكوس وإخوته وأخواته وغيرهم من أهل القرية إلى الغابات التى تنمو إلى الشمال من قريتهم، الغابات التى تنمو على السفوح صاعدة مع جبال الألب الموحشة. وعاشوا هناك حياة فقيرة تعسة على ثمار البلوط والجوز وعلى القليل من الصيد الذى يستطيعون قتله. لكنهم، عندما أقيم بيت ريفى كبير على الأراضى التى كانت ملكا لهم من قبل، انقضوا عليه وأحرقوا هذا البيت الريفى وأخذوا كل ما كان فيه.

عند ذاك جاء الجنود إلى الغابات ، وانضم الفلاحون إلى قبائل الجبال لمقاتلة الجنود . وانضم إليهم العبيد الفارون ، واشتعلت نيران حرب أثارها من جردوا من أملاكهم ، عاما بعد عام . فكان الجنود يسحقونهم أحيانا ، وفى أحيان أخرى كانت قوة الثوار تزداد إلى حد أن يجتاحوا السهول ويحرقوا ويسلبوا وينهبوا .

فى مثل هذه الحياة عاش ومات ابن سبارتاكوس ، مات وسط الصراع والعنف كما مات أبوه . وكانت القصص التى رواها هو لأولاده أقل وضوحا وأكثر بعدا عن الحقيقة . واستحالت القصص إلى أساطير ، وأصبحت الأساطير رموزا ، لكن حرب المضطهدين ضد من يضطهدونهم استمرت ودامت . كانت شعلة يعلو نورها ويخبو لكنها لم تنطفىء قط . ولم يمح اسم سبارتاكوس - ولم يكن ذلك نتيجة لوراثة الدم ، إنما كان نتيجة لوراثة الصراع المشترك .

وسيأتى يوم تتحطم فيه روما — لا على أيدى العبيد وحدهم بل على أيدى العبيد ، وعبيد الأرض ، والفلاحين ، والبرابرة

الأحرار الذين ينضمون إليهم.

وما دام هنـاك من البشر من يكد ويأخذ غيرهم ثمرة الذين يعملون ويستغلونها، فسيظل اسم سبارتاكوس فى الأذهان، يهمس به البشر أحيانا، ويصيحون به عاليـاً واضحا فى أحيان أخرى.

« انتهى »

دار العهد الجديد للطباعة ت ٥٠٨٥٢

منتديات
www.library4ara

منتديات مكتب
www.library4arab